القيصر

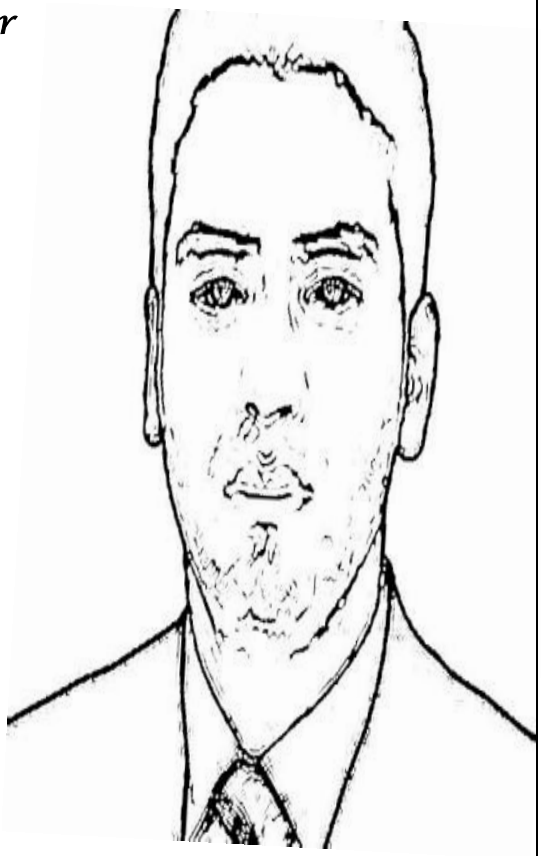

When anyone thinks! This is a great honor to him, because the philosophy is a good food to human spirit. The philosophical idea is so important to individual, because it open all new doors for him. I know that the speech about the philosophy is so difficult in the Arab lands, but I know also that any human can make his way by his special philosophy of life.

Everyone was born with a mind, in some case! The human can lose his capacity of thought, but it isn't a raison to keep silence for the domination in moral life, because in all times! We have the power of thinking, criticizing, and making an opinion freely.

There are some lines between philosophy, studies and daily life, if you want to discover theirs, you can ask yourself this question: Who am I?

Mr. Mezouar Mohammed Said

القَيْصَر

****

twitter.com/msmezouar

ملاحظة:

كلّ الحقوق محفوظة لحساب التغريد المدوّن في الأعلى، هو حساب خاص بصاحب هذا العمل
"نشكركم إن كنتم من زوار هذا الحساب، كما نؤكد على الشكر الجزيل إن كنتم من متابعيه"
شكرا جزيلا أيضا على قراءة هذا العمل، كما نشكركم على قراءة هذه الملاحظة.
شكرا جزيلا.

كلمة[1]:

[1] **www.glory.onlc.eu**

أمواج البحر تحكي قصصا لا يفهمها إلاّ البحارة المهرة، كذلك الفلسفة فهي تروي قصصا مليئة بالعبر لا يفهمها إلاّ من تسري الفلسفة في دمائهم الزكية.

سيّدي القارئ: [1]

"هذه الأسطر تمثل أفراحي، أحزاني، أشجاني، هواجسي و تطلعاتي، إن كنتَ ستقرؤها و قد أصدرتَ حكما عليها مسبقًا فلا تقرأها، و إن كنتَ ستقرؤها لتحكم عليها من مزايا أو هفوات صاحبها الشخصية فلا تقرأها، فقط اقرأها لتعرف، لتتعلم، لتستمتع و لتحرك عقلكَ في عدّة اتجاهات فكرية خالصة التعقيد و البساطة، لأنني كتبتها انطلاقا من مقولة الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي حين قال: .... يجب أن يُسَمَّى القِطُّ قِطاًّ[2] .... "

السيّد: مـــزوار محمد سعيد

اسكوبيتا الفلسفة

[1] twitter.com/msmezouar

[2] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الوعي الجزائر، ص118.

"إن الفلسفة لا ينكر فائدتها إلا جاهل أو معاند أو كلاهما، إلا أنك إذا أردت أن تفهمها حق الفهم، فلا بد من معرفة آراء الأقدمين، إذ الفلسفة كالمرء يكون طفلا ... ثم يصير كهلا و هو شخص واحد، كالسلسلة كل حلقة منها ارتبطت بالأخرى.
فمن لم يقف على أقوال القدماء لا يتمكن من استنباط آراء المعاصرين.".
دافيد سانتلانا
"المذاهب الفلسفية اليونانية في العالم الإسلامي"
تحقيق وتقديم _ جلال شرف

الفلسفة، كلمة واحدة ذات معاني عديدة، أحيانا تكون نوعا من التفكير، و أحيانا تكون نوعا من البحث، و أحيانا أخرى تكون علم بالمبادئ و غيرها من التعريفات التي اختلفت باختلاف الفلاسفة و المؤرخين.
هذا الاختلاف بدا واضحا خلال تطور الإنسان، و منذ تفلسفه لأول مرة، لكن ما نلمسه من خلال تطور الفلسفة هو ذلك الاختلاف الذي امتد ليشمل جميع ما يحيط بها، و أحيانا كان يضربها في الصميم.
فقد اختلف حولها العلماء و الحكماء و رجال الدين والسياسيين وحتى العامة من الناس بين محب لها وعامل بها وناقم عليها و مكفر للعامل بها و غيرها من الأفكار و الاعتقادات، و قد جالت شكوك كثيرة و من أطراف متنوعة حول مواضيعها و أهميتها و تأثيرها على البشر و محيطه و مستقبله.

و هنا نجد السؤال الذي يطرح نفسه بناء على ما تقدم في الموضوع:

هل للفلسفة فائدة؟ أو على الأحرى أين تكمن حاجتنا للفلسفة؟ أو بطريقة أخرى ما الذي بجعلنا نتفلسف؟

إن فوائد الفلسفة على الإنسان لا حصر لها فهي كشجرة الزيتون التي تذر على الإنسان زيتونا صافيا في موسمه وظلالا وافرة أثناء الحر ونفاياتها عبارة عن زيت فيها شفاء لمستعمليها كذلك الفلسفة, فهي تجعل الإنسان ينظر إلى ماضيه واضعا إياه تحت المجهر ليستخلص معانيه وعبره و أخطائه وهفواته و ليمكنه من عيش حاضره والتخطيط للمستقبل الذي يحلم به هذا الإنسان في نومه ويقظته.
فإن أعظم فائدة مرجوة من الفلسفة حين نقوم بها هي رصد المجهول القادم و الإعداد له من مخلفات الماضي،و باعتبارنا الإنسان محاربا، فالفلسفة تأخذ ماضيه لتجعل منه درعا لحاضره ثم تعمد إلى أخذ حاضره لتجعله سيفا في يده لمستقبله، و هنا يتبين لنا أن الإنسان يملك كنزا ثمينا يكمن في أقوال و حكمة القدامى، التي تعبر عن نتائج تجاربهم خلال حياتهم في عصور مضت، و إن على إنسان اليوم أن يأخذ جواهر هذا الكنز القديم من نصائح و معلومات، و يبدأ بتحليلها و التدقيق فيها من كل الزوايا، و ترشيحها، فيأخذ ما هو صائب و صالح لمقامه و آماله، و يترك كل ما هو سيء و مضر بأهدافه، ليتمكن بهذا المخزون المعرفي القديم أن يستنتج و يولد مخزونا معرفيا حديثا، عصريا، فإن رأي الإنسان القديم مرآة تعكس رأي الإنسان الحديث.
و ما يؤكد هذه النظرة ما يلي:

1) إذا أخذنا تعريف أفلاطون للفلسفة:" الفلسفة هي البحث في جواهر الأشياء حينما يتدرج العقل في البحث في الانسجام الوجودي بينها، والذي هو ليس إلا الخير." فإننا نجد تلك الفائدة العظيمة التي سعى أفلاطون إلى نشرها بين البشرية جمعاء حين نجح في تعميمها بين أوساط الشعب الأثيني آنذاك، ألا و هي فائدة الأخلاق و العلم و البحث عن المعرفة من جميع جوانبها، و هنا تكمن قيمة الفلسفة في معناها الصافي، فالنظر إلى فلسفة أفلاطون المثالية التي علمت البشرية طرق الخير ومفاتيحه، من علم و أخلاق و مبادئ، يؤكد لنا أن القدامى لم يتفلسفوا لتنوير أنفسهم فقط، بل لنقل ذلك النور أو جزء منه إلينا و عليه تكمن مهمتنا المتمثلة في نقل تلك المعارف و النتائج و الوقائع و النور إلى الأجيال القادمة.

2)إن الفلسفة كما نعرفها اليوم، لم توجد على هذا النحو دفعة واحدة، فقد تطورت بتطور الفكر الإنساني، و زادت بزيادة بحثه عن رفاهيته و تقدمه، و يتضح هذا التطور جليا عبر التاريخ الفلسفي، فإن أخذنا الفترة اليونانية، فإننا نجد أن فلسفة سقراط أسست لفلسفة أفلاطون، فتلميذ سقراط ورث عن معلمه قاعدة فلسفية متينة ليبني عليها فلسفته، ثم يورثها لتلميذه أرسطو الذي جعل من فلسفة أفلاطون مركز انطلاق لفلسفته التي أضاءت عقول كثيرين أشهرهم ألكسندر الأكبر. فالفلسفة بهذا المعنى كالعلوم الحديثة التي تبني نتائجها انطلاقا من القوانين السابقة،و من هنا و بالاعتماد على النظرية العكسية فبإمكاننا القول أن لولا فلسفة سقراط لما كانت انجازات الكسندر الأكبر، فهذا الأخير هو حفيد سقراط فلسفيا و هذا أكبر دليل على تطور الفلسفة و تطويرها للإنسان معرفيا و ثقافيا و سياسيا.

3)و إذا نظرنا إلى التاريخ البشري الحضاري فإننا نجد الحضارة تقوم على أنقاض حضارة سبقتها و هذه السلسلة الحضارية ملازمة للسلسلة المعرفية الفلسفية فنجد الحضارات الصينية و الهندية تمهد لقيام الحضارة الفارسية والمصرية الفرعونية, وهذه الأخيرة تمهد بدورها لقيام الحضارة اليونانية و الرومانية ثم تأتي على أنقاضهما الحضارة الجرمانية التي هي في نظر هيجل آخر الحضارات ومنه يتضح لنا أهمية الفلسفة بكونها عنصر متجدد بتجدد الرقي و الازدهار. فكل موروث حضاري فلسفي ينهار ليفصح الطريق لفلسفة جديدة تؤسس لحضارة الغد.

وما يؤخذ على هذه النظرة ما يلي:

إن نظرنا في الحضارات السابقة فإننا نجد كل منها في قطيعة مع الأخرى, فإن افترضنا أن الحضارة الصينية و الهندية أسست للحضارة الفارسية و المصرية القديمة لترابطهما بالفكر الأسطوري اللاهوتي فهذا ينفي تماما أن تؤسس الحضارة الفارسية و الفرعونية المصرية لحضارة اليونان, فالأولى قائمة على الأسطورة و الثانية قائمة على العقل وهما ضدان لا يلتقيان, أما بالنسبة لنظرية تطور الفلسفة من سقراط وأفلاطون وأرسطو وصولا إلى ألكسندر الأكبر فهذا اقرب إلى المستحيل منه إلى الحقيقة, فلكل واحد منهم زمانه الذي عاشه بظروفه ووضعياته التي انعكست على أفكاره وبالتالي على فلسفته, فكيف لفلسفة سقراط التي اعتبرت العالم الحسي سجنا كبيرا للروح التي مقرها الأصلي هو العالم الآخر أن تؤسس لإنجازات الكسندر الأكبر الدنيوية العظيمة من انتصارات عسكرية

وسياسية, وإن نظرنا إلى آراء أفلاطون حول الفلسفة فإن هذا الرأي صالح لفترته المتميزة والمختلفة عن فترتنا الزمنية الراهنة فلا يمكن لنا أن نلتزم بأفكار ولدت قبل الميلاد أين كان المجتمع الإنساني همه الوحيد الحرية الفكرية و العقلية في النظر إلى الظواهر المختلفة, وهذا كله يأخذنا إلى النظر بحذر كبير من القائلين بفوائد الفلسفة, والتي حصروها في التطور والتكامل والاستمرارية.

وما نخلص إليه هو أن الفلسفة بالنسبة للإنسان كالسيارة التي تسير على طريق مستقبله الجبلي الوعر مسهلة له النظر إلى ماضيه بمراياها العاكسة.

****

الجمال

الجمال هو مجموعة تعيينات مشكلة بنسق معين، تبعث للناظر لها بإشارات براقة، تساعده على الارتياح بقدر ما، و تفجر صمام أنابيب المشاعر على نحو ايجابي في ذهن المتأمل.
ولذا فإن الجمال يختلف باختلاف المكان، و الزمان، و نوعية المتذوق له، و الاستعدادات الاستقبالية للمحيط الموجود فيه. فالشيء قد لا يبدوا جميلا لدى الفرد، بينما يبدوا لا حصر لجماله لدى فرد آخر، في نفس المقام المعتمد للتقييم. و عليه يمكننا الوصول إلى أن الجمال يختلف باختلاف درجة تذوقه، فمتى نقول عن الشيء أو الفرد أنه جميل؟
لو بدأنا بالشيء أو الجماد، فصعب تحديد جماله على أسس قاعدة واحدة ثابتة لدى الجميع، فجماله يتوزع على عدة جوانب، و زوايا، قد تجتمع، و قد تتفرق، عند إصدار الحكم عليه. و هذا ما يثير الخلاف حوله، و الذي ينتهي بنقاش حاد، أو أكثر من ذلك.
فالجمادات أوجدها الله، و بعضها أوجدها الإنسان، لغايات تعددت، و تنوعت، بتعدد العقليات، و المرجعيات، و الإيديولوجيات، و المجتمعات..... و غيرها من العوامل. قد لا تتحدد بتحدد الأفق العلمي، أو العامي. و عليه فإن الجميل من الأشياء، يبقى محل صراع، قد يقود إلى شتى النزاعات الفكرية، و العصبية. و حتى العنيفة منها، فمطلق الأفكار حول جمال الجميل، قد تتصادم، إما بطريقة يقال عنها أنها حضارية، أو بطريقة بربرية، ونداليـة، متوحشة.
و قد يسير بنا نهر الجمال ألجمادي، إلى حقيقة ثابتة. و هي القبول بالاختلاف، في التصنيفات، حول هذا الموضوع. خصوصا أننا نعيش عصرا تختلف فيه أوجه العُمُلات، و العَمالات، و التعامُلات. وفق اختلاف الأنظمة، و الأهداف. و هذا ما ينقص المجتمعات العربية، و يجب إدراكه ذهنيا، بإسقاطه على مسرح الواقع المعاش.
فهذه المجتمعات أقصت الجميل من جوانبها تبدوا لها قبيحة وجب محاربتها، و لو على حساب التنوع القائم على الاختلاف أصلا. فالجمال الجامد الساكن منه و المتحرك، وفق إرادة تختلف من شخص لآخر، هو أصل الاختلاف المختلف عليه.
و هذا يقودنا إلى النوع الثاني من الجمال، ألا و هو جمال الأفراد. و قد نجهد أنفسنا في تلخيص هذه النقطة، في قالب يبدوا جميلا، لكننا في جوهر الأمر، و بطبيعتنا البشرية، التي تسير وفق عتبات. لا

يمكننا ذلك، لكن تبقى المحاولة قائمة، بالاعتماد على نفس الطبيعة العتبية البشرية، و المصطدمة بلغة الأضداد المعروفة.

فالفرد كما هو معروف، يتكون من جسد و روح. يتفرع كلا منهما إلى عدة أشكال، و أوجه. و على هذا الأساس فإن الجمال الكامل للفرد، يبنى على جمال الجسد و الروح معا. و هنا وانطلاقا من أن إرضاء الناس غاية لا تدرك، فإن الاتفاق على كمال جسد بعينه غاية لا تبلغ، و لو باستعمال القهر أو السياسة. و عليه فالجسد الجميل عند كثيرين هو القوام الخالي من العيوب الفيزيائية، و البيولوجية، و المتراص على منهج التفرد و التميز.

فأحيانا يبدوا المختلف، و النادر جميلا لتشويقه للمتلقي، و لانبعاث الراحة الممزوجة بالعجز، في محيط هذا الجسد مصدر الحكم. و مثال هذا أن الفتاة الألمانية الآرية، المشهورة بزرقة عيناها، و اصفرار شعرها على نحو ذهبي، تبدوا جميلة بالنسبة للمجتمعات العربية، أو الإفريقية مثلا، لندرتها في محيطهم.

و قد نلمس عكس صحة هذه النظرة الجمالية أيضا، و منه فإن الندرة قد تجعل من خداع البصر، و البصيرة، و الفكر أمرا سهلا. و تحول القبيح إلى جميل.

بالإضافة إلى هذا نجد الاعتياد و الوراثة، فالجسد الجميل قد يحكم عليه من قبيل استعدادات البشر النفسية، فمذيعة الأخبار جميلة لأن الجماعة تعودت أن تراها جميلة. و لا مجال لأحد أفرادها أن يعتبرها "قبيحة، و إلا أعتبر شاذا وجب إقصاؤه، إما معنويا بحسب الحضارة، أو قتاليا وفق التوحش.

فإلصاق الفكرة بأذهان الجماهير، على أن أحد الأجساد جميل ممكن، إذا تطابقت الروايات، و صبت في نفس المنوال الملخص لجماله، و رونقه، المركز في عقليات الجماعات و الأمم.

و الوراثة تجد هي أيضا منصبها في هذه العملية القهرية اللطيفة، فقد نلاحظ أن المسلمين القارئين منهم أو السامعين للقرآن الكريم، يعرفون أن يوسف عليه السلام كان جميل المظهر. حتى أنه أذهل نساء زمانه، و من هنا يمكننا الاستنتاج، أننا كمسلمين لم نرى سيدنا يوسف جهرة، و مع ذلك فإننا نؤمن بجماله الأخاذ اعتقاديا، و هذا بأن القرآن منزه عن التحريف، و التبديل، و الكذب.

فسيدنا يوسف جميل في نظرنا، لأننا مسلمون. اعتمادا على بذور غرست فينا، في صبانا من قبل مجتمعاتنا، و قبله آباؤنا و أمهاتنا. وهذه الأحكام الجمالية على أجساد أشخاص بعينها، قد تفرض علينا. دون أن نحس أننا جبلنا عليها، أو دخلت أوجه نظرنا عنوة، بمرجعية معينة، أو صبغة حددها لنا أناس هم في الأصل أحباؤنا، مع كثير من الحب.

هذا من جهة الجسد، لكن من جهة الروح يظهر الاختلاف جليا، و قد يتطور إلى شرخ واضح. فالروح جميلة إذا تطابقت مع اعتقاد المستقبل لتصرفاتها، على نمط معين. تتحكم فيه البيئة، و العادة، و التقليد. بالإضافة إلى الدين، و العصبية، و الثقافة بشكل حاسم. و تنتج عواقب جد عنيفة عبر ظروف معينة.

فالمؤمن الزاهد تحت قبب أماكن العبادة، جميل الروح لدى نفس التيار، و المعتقد باعتقاده. بينما هو قبيح كل القبح لدى التيار المعادي، الداعي إلى جعل روح العبادة، بين يدي العمل المنجز. و مثال هذا تلك الحروب التي أتت على الأخضر، و اليابس، عند المجتمعات الكاثوليكية، و البروتستانتية. لا لشيء إلا لأن الكاثوليك زاهدون، جميلو الأرواح، في نظر الفاتكان. بينما البروتستانت قبيحو الأرواح، لأنهم جعلوا من العمل عبادة، و ابتعدوا عن الكنائس، و دور الصلوات. و هنا يمكن لكثيرين أن يستنتجوا أن

جمال الروح، هي من أمر ربي، و ما أتي للبشر إلا قليلا، في اعتقاد المؤمنين من المسلمين. و الروح هي شيء مقدس لدى المسيحيين، بالإضافة إلى خلودها.
و انطلاقا من هذه النقطة المحورية، يمكننا أن نتفهم القائلين أن جمال الروح موجود في كل الأرواح البشرية على وجه العموم.
في الأخير، لا لحصر الكثير، و لا لحبس الزفير. و إنما بتواضع الخبير، يمكنني القول أن الجمال ينبع من الجميل، كما قال الشاعر: كن جميلا ترى الوجود جميلا.

****

مـــا فائدة الإنسان إنْ لم يغيّر العالم!؟

أرسطو هو "المعلم الأوّل"، لقب منح له باحترام و بيان جميع الفلاسفة، فقد وضع نسقا فلسفيا خالصا و خاليا من الخطاب المثالي، و كان منهجه واضحا، كما أنّه اصطنع لفلسفته علما أسماه بالمنطق، مما جعل أرسطو أشبه بالرصاصة التي خرجت من العصر ما قبل الميلاد و أصابتنا في العصر الحالي.
فقد ولد أرسطو في مدينة استاغيرا سنة 385 ق م، و كان متميّزا منذ الطفولة بأخلاقه و سلوكه ودهائه العلمي، كما أنّه التحق بأكاديمية أفلاطون في الثامنة عشرة من عمره، أين لفت أنظار زملائه في الأكاديمية إلى درجة لقبوه بـ"القارئ" و لقبه أفلاطون بـــ"عقل أثنا". عندما بلغ 24 سنة جمع أرسطو أكثر من 1400 دستور من الامبراطوريات الشرقية القديمة، و حقق فيها، و قارن بينها مستخلصا نتائج عظيمة في كتاب "دستور الأثنيين" ، و عند اشتهار صيته في اليونان و ما جورها، استدعاه ملك مقدونيا لكي يدرس ابنه الكسندر، فبهذه الخطوة التي أقدم عليها الملك المقدوني استعان بها الكثير من الباحثين ليربطوا بين علم أرسطو و انجازات الكسندر الأكبر، كما أنّ أرسطو قد أخذ العلم عن أفلاطون، و بعد وفاة هذا الخير و تولي فنيكسس مقاليد أمور الأكاديمية، هجرها أرسطو مؤسسا بذلك أكاديميته الخاصة و التي أسماها بـــ"اللسيوم" مشاركا أستاذه أفلاطون في صنع مجد البشرية.
و قد التحق باللسيوم طلبة كثر كان يدرسهم أرسطو وهو يمشي حتى سميت فلسفته بـ"الفلسفة المشائية"، و بالإضافة إلى هذا فقد كتب أرسطو في المنطق كتاب "الأبولاس"، و كتاب "القضايا" و كتاب "المنطق الكبير"، إلاّ أنّ أرسطو نفسه توفي و لم يكمل تأليف كتاب "المنطق الكبير" حتى أتى تلميذه "بوبوريوس" و أضافإليه القياس.
كما أنّ المعلم الأوّل كتب في الطبيعة "السماع الطبيعي" اضافة إلى كتاب "الميتافيزيقا"، و كتب في الجمال كتاب "فن الخطابة"، و كتب في الشعر أيضا. و نجد في تصفحنا لفكر هذا العملاق المعرفي مؤلفات أخرى لا تقل أهمية ككتابه "فساد الكون" الذي ترجمه عميد فلاسفة الأندلس ابن رشد رحمه الله إلى كتاب "الفساد"، و كتاب في السياسة.
و قد عالج أرسطو مفاهيم عدّة كمفهوم الدراما و التراجيديا و المسرح، و عمد إلى استحداث مناهج استقرائية كان أهمها:

1. **<u>المنهج النقدي التحليلي</u>: و يدرس فلسفة عصره و فلسفة أستاذه أفلاطون.**

2. **المنهج الوصفي: و قد وظفه أرسطو في وصف الفلسفات و وصف فلسفته الخاصة.**
3. **المنهج البنائي: و استعمله أرسطو في بناء نسقه الفلسفي.**

و لو تأملنا في فلسفة أرسطو جيّدا لحتما سنجدها قد جاءت كبديل عن فلسفة أفلاطون المثالية. فلو لم يكن أفلاطون لما كان أرسطو، فانزعاج هذا الأخير من أستاذه أثناء تلقيه لدروسه منه هو الذي كان بمثابة الحافز المؤدي إلى التفكير في البديل عن فلسفة أفلاطون، فظهرت فلسفة أرسطو لكي تضع حدا قاطعا لهيمنة السفسطائية آنذاك، و قد نجحت في بلوغ هذا المبتغى بجدارة و استحقاق بفضل ميزان العلوم، و قد وضح أرسطو هذا الزمن الجميل في كتابه "المغالطات" الذي قضى على مجد السفسطائيين إلى الأبد. و بهذا يكون أرسطو قد نجح في تحقيق ما عجز عنه سقراط و أفلاطون بفلسفة أساسها نقد أفلاطون مما يجوز لنا طرح السؤال التالي:

كـــيف يجرأ أرسطو على نقد أفلاطون؟

و عليه فقد وجد أرسطو أنّ أفلاطون قد أخطأ عندما قسّم العالم إلى عالميْن، عالم الحس و عالم المُثُلْ، و قال: "أفلاطون قسّم الحقيقة إلى حقيقتيْن"، وقد أخفق بوصل العالميْن ببعضهما البعض، و هنا يمكننا طرح ما يلي:

ما دور الديالكتيك في كل هذا؟

و للإجابة عن هذا الاستفهام يمكننا التنبيه إلى أنّ أرسطو لم يقتنع بالديالكتيك، و قال بخرافية عالم المُثُل، و اعتبره مجرد ملجأ و هروب من الواقع المعاش.

هذه النتيجة كانت كردّ فعل عن زمن طويل رضع خلاله ارسطو من ثدي الفلسفة الأفلاطونية كثيرا إلى أن أتت هذه اللحظة التي تمثّل لحظة القيء بعد الشبع، أين اختلف أرسطو و أفلاطون حول نظرية الوجود، ففي نظر المعلم الأوّل أستاذه فرّ من الوجود، و صنع لنفسه وجودا غير موجود، و هذا الوجود له فلسفته الخاصة به، و بالتالي أفلاطون تفلسف حول شيء غير موجود، أي إنّ هذه الفلسفة العظيمة هي هروب من الحقيقة.

فحسب أرسطو الأجدر بنا أن ننظر في العالم الحسي و ليس عالم المُثُل الغير موجود، حيث قال ارسطو: "الحقيقة هي مخبأة بين الموجودات، الحقيقة هي هنا و ليست هناك.". و قال أيضا: "القضية توجد هنا على الأرض و ما عليها من موجودات.". و وضح هذه الفكرة عقل أثنا في قوله: "عالم الطبيعة بما يحتويه من موجودات حتى من الديدان التي تنخر الميّت تخضع لأربعة علل ... و ترابط العلل يوصلنا إلى العلة الأولى التي هي علة العلل ... فالله محرك و غير متحرك ... و القدرة الالهية تعمل وفق نظام سلسلة العلل في الكون، و البشر عاجزون عن الفهم ... ".

فحسب قول أرسطو الله هو الذي يحرك الكون ونحن نشعر فقط بما يظهر في الحس، نحن نتعامل مع الظاهر لا غير.

و لتوضيح المغزى من هذا قسّم أرسطو العلل إلى أربعة هي:

I. **العلة المادية: كالخشب بالنسبة لأيّ شجرة.**
II. **العلة الصورية: كالشجرة بالنسبة للخشب.**
III. **العلة الفاعلة: كل ما هو موجود في الطبيعة له فعل.**
IV. **العلة الغائية: كل ما هو موجود له غاية و هدف من وجوده.**

فحسب أرسطو فإنّ كل ما هو موجود في الطبيعة هو كائن فزيائي و ميتافيزيقي في الوقت نفسه، أي أنّ الصورة الفزيائية هي التصرفات الانسانية مثلا و الصورة الميتافيزيقية هي الطبع و التفكير و الاعتقاد، بحيث أنّ عالم الميتافيزيقي يسكن ما وراء الفيزيقي.

و من هنا فإنّ تدرج العلل يفضي في الأخير إلى الوصول إلى الغاية النهائية، و عند بلوغها من قبل الانسان، فإنه يحاول الاستقالة من هذا العالم، أين لا يبالي بشخصه، و يصبح بائسا، و هنا يمكننا القول أنّ الحياة البشرية مرهونة بالمادة و الصورة معا، فإنْ تكاملا يحلّ موعد العَدَم و الموت.

كما أننا نجد في جعبة انجازات أرسطو "علم المنطق" الذي يفضي إلى حقائق هامة جدّا فهو آلة العلوم عند أرسطو، لأنه لا يعطينا العلم كالفيزياء و الرياضيات، أي أنه مجرد طريقة لتحصيل صدق العلوم، و هنا نجد أنّ المنطق هو منهج في إنتاج الفكر و العلم، و مساعد العقل للعثور على الصواب، و تجنب الخطأ، و قد وافق أرسطو في هذه النقطة الامام الغزالي بقوله: "من لا منطق له لا يؤخذ بعلمه ... ".

كما أنّ الامام الغزالي سمى المنطق الأرسطي في مؤلفاته بميزان العلوم، و منه نجد السؤال التالـي:

هل هذه هي وظيفة المنطق الوحيدة؟

يمكننا توضيح هذه البصمة بالقول أنّ للمنطق عدّة وضائف أسماها الوظيفة الكونية بالإضافة إلى وظيفة أبستمولوجية تتمثل في بيان صدق العلوم، و وظيفة أنطولوجية تتمثل في فهم العلاقات الموجودة بين العلل الأربعة.

فالمنطق هو الذي يشرح علاقة النفس بالجسم، كما أنّ أشكال الحياة هي عبارة عن صور لجوهر لا يُعرف إلاّ بالمنطق، و الذي يمكننا أيضا من ادراك أنّ الطيور نوع من الحيوان، و به ندرك أنّ الانسان هو حيوان كذلك، فبإحدى العمليات المنطقية البسيطة نستنتج أنّ الانسان يتميّز بخاصية العقل، و الطيور لها الريش كخاصية، و كلّهم يخرجون من الجنس الحيواني كمفهوم كلّي.

فبالمنطق نستطيع ربط الكليات بالجزئيات، و به نختصر العالم و الوجود، بحيث أنّ مستخدم المنطق يعوّض الأشياء بمفاهيم عقلية كالاستنتاج و القياس، و التي تعتبر الترسانة التقنية الخالصة و النقية، البعيدة عن هفوات الحسية المغالطة.

كما أنّ أرسطو تطرق إلى النفس على أنّها القوّة التي توظف المادة في تحقيق صورتها و منه غايتها، فالقوّة هي وسيلة المادة إلى غايتها النهائية، و النفس أنواع على حسب أرسطو:

01.النفس النباتية
02.النفس الحيوانية
03.النفس العاقلة وهي أفضل النفوس.

و هذا التصنيف مرتبط بثلاث قوى:

1. **قوة المخيّلة**
2. **قوة الذاكرة**
3. **قوة التعقل**

فالإنسان في فكر أرسطو هو حيوان مدنيّ بطبعه، أي أنّه كائن اجتماعيّ مهذب عن طريق الأخلاق. فبها يحدث الانسجام في المجتمع للوصول إلى سيادة الفضيلة و العدالة و الخير المطلق، فهمرس يقول: "الإنسان خيّر و ليس شرير.".

في الأخير فإن أصاب أرسطو فله أجران، و إن أخطأ فله أجر بما صنعت يداه و صدّقه فكره. و منه علينا نحن أبناء هذا العصر الجديد أن نقف بإجلال أمام هذا الاسم المرتل بإتقان، و الذي يعتبر إحدى أوراق خريف الذاكرة التي لا تتناسى، و لا تنسى أبناءها العظام.

****

قَالَكْ الفَلْسَفَة العَرَبِيَة يَا خُويَا!!!

" لا شك أن الفلسفة العربية قد تأثرت بالفلسفة اليونانية و أن الفلاسفة العرب قد نسجوا على منوال أفلاطون و أرسطو و أفلوطين و أخذوا عنهم معظم آرائهم و نظرياتهم و لكن تأثر فلاسفة العرب بفلاسفة اليونان لا يخفي ملامحهم الخاصة...
لا شك أن الفلسفة العربية فلسفة عقلية كالفلسفة اليونانية لأن معظم فلاسفة العرب يعتقدون أن العقل قادر على إدراك الحقيقة... و لا شك كذلك أن معظم فلاسفة العرب يؤمنون بوحدة المعرفة و الحقيقة و يقولون بمطابقة ما هو موجود في العقل لما هو موجود في الأعيان .... و لكن الفلسفة العربية، و إن شربت من نبع اليونان و استمدت منه كثيرا من عناصرها، فإن كيفية استخدامها لهذه العناصر، و الغاية التي من أجلها رتبتها هذا الترتيب مختلفتان.....
و يرجع هذا الاختلاف في نظرنا إلى أن الفيلسوف اليوناني ينظر إلى العالم نظرة فنية (استيتيكية)، على حين أن الفيلسوف العربي ينظر إليه نظرة دينية. بل الدين في نظر الفلسفة العربية، كما هو في نظر فلسفة القرون الوسطى المسيحية، أساس ضروري لا بد للفيلسوف من التوفيق بينه وبين الفلسفة.
جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية. دار الكتاب اللبناني بيروت. ط2 . 1973. ص 23_25 .

إنه "جميل بن حبيب الخوري داود صليبا" المولود في 7 شباط من عام 1902 في قرية" القرعون" من قضاء البقاع الغربي من محافظة البقاع، وكان والده يعمل متعهداً ومعمارياً، وانتقل إلى "دمشق" مع أسرته للعمل في شق طريق "دمشق- درعا"، التحق بمدرسة "الآسية" ومن ثم بالمكتب السلطاني العثماني وتابع في عام 1918 دراسته في" مكتب عنبر" وحصل على شهادة الدراسة الثانوية منه عام 1921.
أوفدته وزارة المعارف السورية إلى باريس لمتابعة تحصيله العلمي، ودخل "صليبا" في فرع الفلسفة من كلية الآداب في جامعة السوربون، وبالإضافة إلى تمكنه وإتقانه للفرنسية حصل على دبلوم التربية من معهد علم النفس في عام 1923، وعلى درجة الإجازة في الآداب فرع الفلسفة في عام 1924، وعلى درجة الإجازة في الحقوق في عام 1926، وقدم إلى جامعة باريس أطروحة الدكتوراه عام 1926 وكانت بعنوان: "دراسة في ميتافيزيقية ابن سينا"، وفي عام 1927 قدم أطروحته المكملة

بعنوان: "نظرية المعرفة على مذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية"، ومنحته جامعة السوربون درجة الدكتوراه في الآداب قسم الفلسفة، وكان أول عربي سوري يحمل هذه الشهادة في العلوم الإنسانية.

جميل صليبا" للأستاذ "الياس انطون نصر الله."

لا يختلف اثنان أن الفلسفة اليونانية هي مهد الفلسفة و نشأتها في التاريخ القديم، و مازالت تأثـر على الفلسفات التي تعاقبت على العالم بعدها حتى يومنا هذا، و نجد من بين هذه الفلسفات الفلسفة العربية أو الإسلامية، و التي تبنت الفلسفة اليونانية، و اقتبست منها المفاهيم العقلية لأفلاطون، و أرسطو.
لكن هذا الاقتباس لم يمنع الفلسفة العربية من صهر هذه العمليات و المفاهيم العقلية اليونانية في قالب المعتقد الإسلامي و العادات و الأعراف العربية القبلية منها و الحضرية، سواء على صعيد الثغور و الجبال، أو المدن و الدول العربية الحديثة.
و هنا و بناء على ما تقدم في مقدمة الموضوع نجد السؤال الذي يطرح نفسه:
أين نلمس الفلسفة اليونانية في الفلسفة العربية؟ أو على الأحرى: ما هو الجانب العربي والجانب اليوناني في الفلسفة العربية؟
إن اعتبرنا أن الفلسفة العربية سيف، فإنه حتما سيكون ذا حدين، فالحد الأول يمثل الفلسفة اليونانية المسنون بمبرد المفاهيم العقلية، و الحد الثانـي يمثل الطابع المعرفي و التراثي العربي المسنون بمبرد المعتقدات الإسلامية و الأعراف و المعارف الشعبية الروائية منها و التاريخية.
وهنا يتبين لنا أن الفلسفة العربية بنيت على أسس المفاهيم العقلية الإغريقية القديمة من المثالية الأفلاطونية و المنطقية الأرسطية و الرموز المجردة الفيثاغورثية، ليمزجها بالاعتقاد الديني إسلامي كان أم مسيحي بالإضافة إلى العادات القبلية القديمة، فجعل منها فلسفة تفرق بين الصواب والخطأ بميزان العقل والمعتقد.
و مما يؤكد هذا الطرح ما يلـي:

1. **الفلسفة العربية فلسفة عقلية كالفلسفة اليونانية، فنجد الفرابي يقيم فلسفته على أساس المثالية الأفلاطونية، وفلسفة الخوارزمي تقوم على فلسفة فيثاغورث وغيرها .... من الأمثلة التي توضح أغصان الفلسفة العربية التي تخرج من الجذع اليونانـي العريق.**
2. **و نجد أيضا أن العرب لا يرضون بديلا عن وحدانية المعرفة و الحقيقة، و جعلوا منها مسارا للحق، وعبادة من العبادات و ذلك يظهر جليا في الآيات القرآنية التـي تحث المسلمين على طلب العلم، و الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث بدورها العرب عموما، و المؤمنين خصوصا على التأمل في الكون ليزدادوا خشية من سلطان الله، الذي لا تعرف قدرته حسب هذه المصادر إلا بالنظر إلى مخلوقاته.**
3. **و مع هذا فإننا نجد أن العرب في بحثهم عن الحق و الخوف من الله الواحد، فقد نظروا إلى مخلوقاته، و تدبروا في الكون و إبداعاته الحسية، و ترجموها بالاعتماد على العقل إلى صور لرموز مجردة، لتبسيطها و تسهيل تداولها بين متاهات العمليات العقلية الخالصة، التـي تتحدث لغة جافة، و تعبر بطريقة مجردة عن الواقع المعاش و الماضي المحفوظ، و المستقبل الذي يتوجب التخطيط له.**

4. و هذا يجرنا إلى اختلاف الفلسفتين الإغريقية و العربية، و المتمثل في الاستخدام. فلكل فلسفة منهجها و هدفها المنشود، و الذي يظهر جليا في اللاورائيات والأبحاث الميتافيزيقية مثلا، فاليونانيـون يعتقدون بالعالم الآخر، و الذي هو الموطن الأصلي للروح . بينما العرب و المسلمون خصوصا يعتقدون بوحدانية الله الأحد الذي جعل للإنسان حياتين منفصلتين، الأولى فانية و الثانية خالدة، و النجاح فيهما متوقف على العمل الجاد. فاليونانـــي القديم نظر إلى العالم نظرة استقرائية للظواهر التي تشغل تفكيره آنذاك، و جعل من الاستنتاج المبنـي على المقدمات المستوحاة بدورها من الملاحظات المعمقة للظواهر خلال حدوثها، وسيلة للتحكم فيها أو تفاديها مستقبلا، بينما نجد الفكر العربي يميل إلى التفسير العقائدي للأمور و الظواهر المستعصية على الفهم، بما أن هذا الفكر في بداياته وُجد للنظر في إبداع الخالق، و قدرته على إدارة الكون، ليُدرك في الأخير أنه ضعيف أمام الله القادر على فعل ما أراد، وهنا وقع الفكر العربي في التفسير الجاهز للظواهر حينا، و الكسل في أحيان أخرى، مما ولد الجمود و الخمود و التعطيل للفكر العربي و الإسلامي.

و ما يُأخذ على هذا الطرح ما يلـــي:
إن الفلسفة العربية تبدوا للمتأمل فيها بعمق أنها فلسفة مستقلة بذاتها، و ذلك اعتمادا على المواضيع التي ناقشتها و تناقشها. و نجد القائلين بالنظرة الدينية للفلسفة العربية يُغفلون أن العرب و كما هو معروف عنهم منذ فجر التاريخ، أمة متعددة الثقافات و الديانات و الأعراق، مما انعكس على أنواع طرق تأملهم للوجود، بالإضافة إلى أن عدة فلاسفة كُفروا لاتخاذهم العقل ملجأ، و بيان لأسرار الحوادث الطبيعية منها و المُستحدثة، و مثال هذا دعوة الغزالـي لتكفير كل ما يتصل بالفلسفة اليونانية بالضرورة. بالإضافة إلى هذا فإن الاختلاف الموجود بين الفلسفتين كاختلاف الشمس على سائر الكواكب، و يبرز صدق هذا القول في الهدف منهما، فلو تعمقنا في دراسة الفلسفة اليونانية فإننا نجدها تبحث عن الحقيقة في الموجودات و المُثـل، و لو نظرنا إلى الفلسفة العربية لوجدناها تبحث في الحوادث و المُستحدثات مما وحد هدفهما معا، و المُتمثـل في حقيقة الحقائق الحقيقية و المُحَـقـقـة.

و ما نخلص إليه هو أن الفلسفة العربية كالشجرة التي أغصانها المباحث المختلفة، و التي تخرج من الجذع اليونـانـــي، و جذورها العادات و الأعراف و المعارف الشعبية، بينما هذه الشجرة هي موجودة في حديقة النظرة الدينية الإسلامية منها والمسيحية أو الوثنية و التي يجب تجاوزها كما تجاوزها الفكر الغربي الحديث.

****

علينا اقتحام المواضيع الإنسانية

إن المواضيع تختلف و تتجلى في العلوم الإنسانية بحيث أنّ هذا التعدد يجعل المتأمل فيها ضمن مجال مفتوح، تختلف أبعاده باختلاف النظرة الملقاة عليه. لكن كل هذا لا ينفي وجودها و قبوعها في مجتمعنا العربي الحديث، فهي إن لم توجد أمامنا فهي حتما موجودة في أعماقنا وعلى جوانبنا، و التي لا يمكن في أي حال من الأحوال أن نتجاهلها عل نحو معين. مما يضعنا تحت مسؤولية إلقاء السؤال التالـي:

ما قيمة هذه المواضيع و ما هي ماهيتها و كيف تتم معالجتها؟

في محاولة الإلمام و الأخذ بالنصيب الكافي من البرهان يمكننا القول أن المواضيع التي نتحدث عنها لا تخرج عن حدود القوانين المتعارف عليها لدى أفراد الإنسان المتمايزين فيما بينهم، و التي تحتاج إلى اهتمام أكبر، يجعل منها قبلة للتجارب و الاستثارة و التنبيه، قصد بلوغ النتائج المرجوة في أي حال من الأحوال.

بل نحن نأمل أن تجد هذه المواضيع التي هي حتما مهمشة و تقطن ضمن الكبت الفاعل لتأثيراتها المتواترة، وهنا نخص بالذكر المواضيع النفسية التي غالبا ما تبدوا خاضعة للصدفة أو الحظ، و تبقى عصية عن الإخضاع للجانب العلمـي أو المعرفي المنهجي.

لكن جوهر الأشياء ليس ظاهرها، فإن الإنسان بصورته البيولوجية المقننة بالتفاعلات الكيميائية أو التحولات و التفاعلات المهضومة أكثر تعقيدا، و خارجة عن السيطرة الفعلية أو الإرادة البشرية. و التي يصطلح عليها إما بالإيمان عند رجال الدين، أو مجرى الطبيعة عند العلماء العلمانيين، مما جعل من هذه المواضيع مناطق ملغمة تكاد تكون محرمة على الدارسين أو الباحثين.

و بعد تقدم العلم على الطريقة الجديدة، وتخلصه من التبعية الدوغماتية التقليدية، خاصة في ظل التقدم و التطور المعيشي. و الذي أفرز عدّة نتائج، كانت كبرى في انعكاساتها على الجانب الشعوري، و الذي تأثر في العمق بالضغوطات المتكررة على جميع الأصعدة النفسية و الإحساسية. مما ولّد سلسلة تتفاقم تفككا يوما بعد يوم، و إن كان على مراحل و بهدوء. إلاّ أنه موجود و حاصل إما شعوريا متنقلا بين نبرات المتكدسات العصبية، أو احساسيا متدرجا على أدراج القلوب و الانطباعات.

هذا التأثر كان ضخما جدا فقد مس جميع المجتمعات من كافة المناطق و البقاع، مما أهلها لأن تكون عالمية بامتياز. بما فيها المجتمع الجزائري الذي تجرع أفراده من كأس هذه التأثيرات و مازال إلى وقتنا هذا.

لذا يتحتم علينا كعرب أن نشارك في إخضاع هذه الظواهر المتجذرة في العمق البشري إلى القوانين المتعاهد عليها، و التي تكوّن مفاهيم أقل ما يقال عنها أنها غالبا ما تصبح سد مناعة يحارب جراثيم الضغوطات على هذه المستويات، فالعالم يتغير بتغير أفراده، و مناخه، و تركيباته المتنوعة. لكن هذا لا يمكن أن يكون مبررا لجمود الأعمال البارزة، و التي يمكنها الخروج بالإنسان إلى بر الأمان.

هذا الأمان الذي ضحى من أجله نفس الإنسان تضحيات جمة، و قام في سبيل ذلك بتنازلات كثيرة قصد بلوغ القيمة المعرفية، و التي هي عبارة عن عدّة عناصر تتكامل فيما بينها قصد الوصول إلى نتيجة آلية، عالية التقنية و الديناميكية. و التي تهبط إلى مستوى عدم التعرض إلى خطر الصدمات أو الارتجاف أو ردود أفعال مرفوضة. من ظاهر المبادئ المكونة للعنصر المزعج أو المحيط بطريقة الانكشاف العام لذات القيمة المعترف لها بتسيب هدوء عام لدى نفسية الكائن البشري، و التي تجعل من تناقح الأفكار و سريان المعلومات في حلقات اتصالية أمرا سهلا للعامة منها و الخاصة.

و لابد أن يُتحكم في هذه العملية، حتى لا تنتج طريقا صعبا متعرجا يصعب إدراكه إما على المستوى القاضي معالجته أو المستوى الواجب إدراكه، قصد تعريته و الكشف على المستور من جوانبه، والتي تكون ذات تأثير عظيم على مسار الدورة التعاقبية للأجيال.
فهذه المواضيع هي في حد ذاتها مكسب و نعمة قبل أن تكون مسلب و نقمة، بتحريك العملية التفكيرية، و إن لم تصل إلى أهدافها المتوخاة أو المرجوة منها فهي تجعل الذهن يعمل، و يمعن النظر في ظواهر كانت بالأمس القريب حكرا على اعتقادات عديدة، و حبيسة تكهنات في مجملها خاطئة، تفتقر إلى الدليل و الإقناع. أو تستعمل الإكراه لبلوغ تثبيت المعايير، و المعارف على حسب التطلعات المتنامية، و المحفزات المتراصة، ضمن النطاق المحدود و الموجه لتفادي الأضرار المنعكسة على مصادر هذه المواضيع و أهميتها.

****

"عَلـَى قـَدْرِ أَهْلِ العَـزْمِ تـَأتـِي العـَزَائـِمُ"

بينما أنا جالس مع أستاذي مونيس، الذي أعتبره مصنع الفكر الشريف و الصادق، و بينما كنا نتحدث حول أمور عديدة. فإذا بي ألمس في كلامه ذلك المفتاح السحري الذي يصل الأجيال ببعضها، فذلك المفتاح الذي جعله الله في الأرض بين أيدي عباده الذين اختارهم لهذه المهمة. فقد ورث هذا المفتاح أفلاطون عن أستاذه سقراط وورثه لتلميذه أرسطو و الذي سلمه لألكسندر الأكبر، و هكذا انتقل من جيل إلى آخر حتى وصل إلى أستاذي مونيس الذي يحاول تسليمه إلينا.
هذا المفتاح تمثل في مقومات و أسس الفكر القائم على الإنسانية الخالصة، و الذي يستقيم بالعقل والأخلاق معا. هذا هو الفكر الذي يطبع في مطبعة التاريخ، و ينشر في أذهان الشعوب و الجماهير عبر الزمن. هذا هو الفكر الذي عرفنا بالفلاسفة و عظماء الإنسانية، فنحن اليوم نعرف أرسطو و سقراط و أخيل و هكتور و غيرهم. عبر مؤلفاتهم، و بطولاتهم، و مواقفهم التي انتقلت عبر العصور، و علقت بذاكرة الأفراد و الجماعات. و إن لم نعرف ملامحهم، و وجوههم، و أشكالهم البيولوجية و الفيزيائية.
فالفكر ينتقل بين الأجيال عبر التاريخ، و الذي يعتبر ذاكرة الإنسانية التي لا تنسى. فالتاريخ هو عبارة عن قرص تخزين عملاق و كبير كبر الزمن، فهو لا ينسى أدق التفاصيل عن الأفراد الذين صنعوا أحداثه، و أدق تفاصيله. فالتاريخ يذكر الأخيار و الأشرار، وهنا نجد السؤال التالي: من هم صانعوا التاريخ الذين لا ينساهم على مر العصور؟
لو نظرنا إلى الماضي، لوجدنا أن هناك عددا لا يحصى من الأفراد، الذين سكنوا هذا الكوكب. من سيدنا آدم إلى عصرنا الحالي، و من يدري لربما عاش أكثر مما هو في القبور الآن مستقبلا. لكن التاريخ ذكر منهم القليل، فقد ذكر أصنافا عديدة و مميزة من البشر، بخصائص معنوية أو بيولوجية محددة. و لو تأملنا التاريخ لوجدناه يذكر الأنبياء، و الرسل، و الملوك، و الأباطرة، و رجال الدين، و الأثرياء، و المجانين و البخلاء، و قادة الجيوش، و الأبطال، و السياسيين، و المجرمين، و الكتاب، و المفكرين،و آخرين غيرهم... فلو نظرنا إلى هؤلاء الأصناف من البشر، لوجدنا لكل صنف مميزاته التي ترفعه إلى

مراتب عليا. و لو نظرنا إلى الشخصيات التاريخية مثلا، لوجدنا أن لكل شخصية خصائصها التي تميزها في نفس الصنف، و هنا نجد مدى الاختلاف بين الأصناف، أو شخصيات الصنف الواحد. و نتجه إلى تحليل الأصناف التي سبق ذكرها على أنها لا تنسى من قبل التاريخ البشري واحدا بواحد، قصد الفهم و الاقتداء بها، إذا ما أراد أي فرد أن يحفر اسمه في سجل الخالدين في ذاكرة الإنسانية.

فالأنبياء يذكرون على أنهم أحسن الخلق و أرفعهم شأنا مثل الرسل، وذلك راجع إلى قداسة مهمتهم التي تعرف بأنها أقدس المهمات و أصعبها. فالتاريخ لا ينسى أبانا آدم و أمنا حواء، كما لا ينسى الأنبياء و الرسل الآخرين من إبراهيم، و إسماعيل، و إسحاق، و يعقوب، و نوحا، و صالحا، و شعيب، و موسى، و عيسى و غيرهم... و صولا إلى خاتم النبيين، و المرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه و سلم). وإذا أخذنا سيرة آخرهم عليه الصلاة و السلام، فإن ما يلفت انتباهنا أولا ظروف ميلاده التي تزامنت مع أحداث عظيمة، و أشدها عظمة حادثة الفيل التي أصبحت اسما لتلك السنة. بالإضافة إلى حوادث أخرى وقعت في نفس العام، كاهتزاز قصر كسرى، و انطفاء نار المجوس. مرورا بنسبه الشريف الذي خص به، فنسبه من آل هاشم و أجداده من أسياد أقوامهم، و أطهرهم و أشدهم بأسا. و لو نظرنا إلى تربيته، لوجدناها نموذجا وجب اعتباره منهجا صالحا لتنشئة الأبناء و البنين. كما أنه عليه الصلاة و السلام تميز بصفات لم يتصف بها غيره، من العلم رغم أميته، و عدم تعلمه، و بلاغته التي أعجزت و ما زالت تعجز و تحير الكثيرين إلى يومنا هذا. بالإضافة إلى أخلاقه العالية، و الحميدة، من صدق و أمانة، و رجولة قل نظيرها في ذلك الوقت. كما أنه سليم الجسم، جميل المظهر، بشوش الوجه، تظهر عليه أثر النعمة رغم تقشفه. مما جعله يحمل رسالة الإسلام، و ينذر الأقوام، و يقود أمة كانت قبل مجيئه قبائل متفرقة بطريقة لم يشهدها التاريخ. بحيث عليه الصلاة والسلام قاد الأمة بفضيلة سقراط، و مثالية أفلاطون، و منطق أرسطو، و شجاعة ألكسندر الأكبر، و علم فيثاغورث، و نظرة طاليس، و أخلاق هكتور، و بسالة أخيل، و فصاحة فحول العرب. مما حتم على التاريخ ذكره بكل خير، كما ذكر أنبياء الله ورسله التي سبقت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. فهؤلاء الأنبياء و الرسل، جاؤوا بتفاسير ميتافيزيقية للظواهر، و معجزات أعجزت جبابرة عصرهم. فرويت من الجد، إلى الأب، إلى الابن، و الذي سيرويها إلى الحفيد. فدخلت هذه التفاسير رواسبنا الاجتماعية وأصبحت أساس برمجتنا في صبانا، و ماركات مسجلة باسم أصحابها. فما يمكننا قوله في الأنبياء، و الرسل، هو أنهم أناس أحبوا الناس، فأحبهم الناس بدورهم. و عملوا على سعادة الإنسانية، و إظهار الحقيقة. ببعديها الروحي، و المادي. مع حسن إدارتهم للظروف، التي تربصت بهم، في عصورهم. مما أكسبهم شرعية القيادة، و النصح و التوجيه، و إقامة أنماطهم المعيشية القائمة بذاتها. فأهلهم إلى بلوغ المناصب الدائمة، في قرص تخزين البشرية، و الإنسانية جمعاء.

كما أننا نجد صنفا آخر من البشر، تخلد أعمالهم في التاريخ، و تتناقل من جيل لآخر. و لمعرفة من هم و كيف وصلوا إلى شغل إحدى زوايا الذاكرة الأممية، نتأمل الحوار التالي. الذي دار بين أخيل، و أغاممنون سنة 3200ق م على شواطئ طروادة، بعد يوم دام من أيام المواجهة الشهيرة. فأخيل هو بطل ملحمة طروادة، و أغاممنون هو ملك ميسينا، و قائد جيش اليونان الذي غزى طروادة آنذاك.

أخيل: أحرزت نصرا ساحقا.

أغاممنون: ربما لم تلاحظ ! كان الشاطئ ملكا لبريام في الصباح، و الآن قد صار ملكا لأغاممنون.

أخيل: لم آت من أجل هذا.

أغاممنون: لا !! جئت هنا ليذكر اسمك عبر العصور، أحرزنا نصرا ساحقا، و لكنه لا يعود إليك، لن يركع الملوك أمام أخيل، و الملوك لن يقدموا الولاء لأخيل.
أخيل: ربما لأنهم كانوا يختبئون و الجنود من قاتل.
أغاممنون: التاريخ يذكر الملوك و ليس الجنود، غدا ستُدَمر أسوار طروادة، سأشيد التماثيل في كل جزر اليونان، سأنحتها، و أغاممنون سيخلد اسمه.
أخيل: حذار أيها الملك، فلتنتصر أولا.
لو تأملنا جيدا في هذا الحوار، فحتما سيلفت انتباهنا، و نباهتنا تلك العبارة المعبرة، و المعتبرة جدا. ألا و هي قول أغاممنون:"التاريخ يذكر الملوك وليس الجنود..." . و هنا، وبناء على ما تقدم، نطرح السؤال التالي: لماذا يذكر التاريخ الملوك؟
إن الملوك، و على مر العصور، و باستثناء القليل منهم، هم مالكو السلطة المطلقة في مجتمعاتهم. فلغَة كلمة مَلك مشتقة من الفعل مَلك، يَملك، و منه مُلكا و امتلاكا. أي وضع اليد، و السلطان على قطعة جغرافية يقطنها، جماعة من الناس، يصبحون رعية بعملية آلية، و خاضعة لهيمنة، و تحكم المَلك المُنصب عليهم. و قد جرت العادة، و الأعراف أن لكل مملكة ولي للعهد. و غالبا يكون أحد أبناء الملك، أو أقربائه أو أحد المقربين منه. يرث عن هذا الملك المملكة و ما لها، و ما عليها. فهذه النتيجة خلاصة طبيعية لإنسان ضمن الحكم، و التحكم في ملكه في حياته، و يريد الاطمئنان على هذا المُلك بعد مماته. لذا أنسب وسيلة لذلك، هو اختيار ورثته. و بما أن الملوك هم الآمرون الناهون في المملكة، و لا شيء يزيغ عنهم فإنهم بهذا يفرضون أسماءهم على انجازات كل أفراد المملكة في كل المجالات. فنجد اسم الملك على الاكتشاف الطبي الجديد في عصره، أو الاختراع العلمي، أو الانتصار العسكري، و غيرها من الانجازات المُحققة. فالملك و إن لم يفعل شيئا، إلا أن مكانته تأهله لامتلاك حتى انجازات المالك لهم، أو الذين تحت إمرته، و نهيه من حاشية و عامة. و هذا ما عناه أغاممنون مَلك ميسينا لأخيل، فهو كالولي على الأيتام. اليتيم يعمل و ينجز الأعاجيب، و وليه يتبناها و تُسجل باسمه. كذلك الملك تسجل كل أعمال شعبه باسمه، ليبقى هذا الاسم متداولا بعد مماته حتى موعد فناء الكون.
هذا من ناحية الملوك ، فما ينطبق على الملوك ينطبق على رجال السلطة المستبدين، والقامعين لشعوبهم سواء بسواء. أما من ناحية أخرى فإننا نرى أصنافا أخرى من البشر، يذكرهم التاريخ و يمجدهم، ألا و هم رجال الدين. فنجد أن لرجال الدين مكانة لا بأس بها في تاريخ الأمم و الحضارات. فكلنا قد طالع ما فعله كونفوشيوس في الصين القديمة، و ما مدى تأثير البراهما في الهند الضاربة في القدم، بالإضافة إلى سان أوغسطين و توما الأكويني لدى المسيحيين. و كيف حجزوا مقاعدهم في ذاكرة الإنسانية، و من هذا المنضار، و إسقاطا لهذه الأفكار على المسلمين، فإنه يتضح لنا جيدا، أن الخلفاء الراشدين، و الصحابة الكرام، كانوا رجال دين قبل أن يكونوا رجال سياسة، أو حرب. فقد جعلوا من تعاليم الإسلام مبادئ لممارستهم، و مراجع لسياساتهم و خططهم. مما جعلهم رجال دين ميدانيين بامتياز، و ضمن ربط الأعمال السامية، و انجازاتهم العظيمة بالإسلام. و مثال هذا: خطبة طارق ابن زياد ذات الطابع الديني، و التي ألصقت انتصار جيشه على جيوش لذريق بالإسلام. مستغلا بذلك الإلهام الديني، و حب الشهادة و هدف بلوغ الجنة لدى مقاتليه. لتوليد الدافع القوي الذي جعلهم يقاتلون قتال الأبطال، و ينتصرون على جيش يفوقهم عددا وعدة. فلو لم يكن طارق رجل دين، لما جاءته فكرة الإغراء بالصبر، و الاستشهاد في قوله: "أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في

مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم...."

فرجال الدين كان لهم و حتى وقت قريب، الشأن العظيم في تسيير الدول، و المماليك، لينتج عن هذا كله حديث الأجيال، و تعليقات الأفراد حولهم. فالناس لا تنسى نصائح، و خطابات رجال الدين. و كم من رجل دين خدم الأمة، وكم منهم من خدم الحكام، وكم منهم من خدم نفسه. و بين هذا وذاك، فلا يمكن لأحد أن ينكر مكانة رجال الدين عبر العصور، في أذهان و عقليات الشعوب. فهُم جزء لا يتجزأ من الأحداث التي ألمت بالإنسانية. وهذا راجع لطبيعة الإنسان، الذي يحتاج في شقه الروحي إلى التغذية و الإلهام. مما جعل هذا الإنسان البسيط يبحث عن رجل الدين ليسهل عليه التقرب من الله، أو الاستفسار عن طريقة بلوغه رضا الله، لترتاح روحه وتنعم بالسكينة. مما أكسب رجال الدين مكانة الطبيب الروحي، أو الحكيم الروحي. بصفته الأعلم بما أتت به الكتب السماوية، من إرشادات و توجيهات، لبلوغ السعادة و الحقيقة الروحية في العالميْن. و جعل من رجال الدين رجالا ذا فضل على البشرية التي لم تنساهم أبـــدا.

كما أن هناك نوع آخر من الرجال، الذين يذكرهم أجدادنا و آباؤنا. ونتذكرهم نحن، و سيتذكرهم حتما أبناؤنا و أحفادنا. ألا و هم أولائك الذين يصنفون في الرتبة الثانية بعد الأنبياء، فهُم ورثتـُهم، و يطلق عليهم اسم العلماء و الباحثين أو المفكرين، والكتاب أو المخترعين و المثقفين. و إن تعددت الأسماء، إلا أنهم يرمزون إلى نوع واحد. و الذي يتميز بالذكاء الحاد، و سرعة البديهة، و الأخلاق العالية، و الهمة الشاهقة، والعمل الجاد، و الذهن الصافي، و حب الخير للأفراد بدون قيد أو شرط. و هذا النوع من البشر الذي أعتبر أستاذي مونيس فردا منهم، موجودون منذ وجود الإنسانية على وجه الأرض. فنحن نلمس مؤلفاتهم، و آثارهم حتى قبل الميلاد. من أمثال سولون (640-559ق م) صاحب كتاب "دستور سولون،" و اكتيانوفون (570-480ق م) الذي بحث في الاقتصاد المنزلي و التربية، و سقراط (469-399ق م) و هو صاحب المنهج القائم على الشك و التجربة كدليل مقنع، و أبيقور(341-270ق م) مكتشف الدوافع الإنسانية. بالإضافة إلى أفلاطون، و أرسطو و غيرهم من مفكري و مبدعي عصر ما قبل الميلاد، و الذين أناروا دروب المعرفة الإنسانية. كما أن هناك فلاسفة و مفكرين، و باحثين آخرين. فلو نظرنا إلى المسيحيين، لوجدنا توما الأكويني (1225-1274م). و لدى المسلمين نجد الكثير من عمالقة الأدب، و الفكر العالمي، كالفارابي (870-950م) و ابن مسكويه (932-1030م)، و البيروني(973-1048م) و انجازات ابن خلدون (1332-1406م). ولو نظرنا إلى العصر الحديث لوجدنا في جيوب التاريخ أسماءً أخرى، كأوغست كونت (1857م)، و كارل ماكس (1818-1883م) و إميل دوركايم (1858-1917م)، ونتشه و هيجل و ديكارت و القائمة تطول من الأفراد الذين أعطوا للإنسانية صفاتها السامية. وجعلوا من الخير و العلم غاية، فبذلوا في سبيل الوصول إليها كل جهد. بالإضافة إلى أصناف أخرى من الناس الذين لا يمكن للتاريخ تجاهلهم، كأدولف هتلر و جوزيف ستالين و ماوت ستونغ، و جورج واشنطن و صدام حسين، و العربي بن مهيدي، و تشغفارا و كاسترو و الطنطاوي رحمه الله. بالإضافة إلى ايليا أبو ماضي و مارتن لوثر كينغ و محمد علي، و غاندي و فوكوياما و غيرهم.....، من الذين تركوا بصماتهم على هذا التاريخ المحفور بحروف ذهبية لا تصدأ، في ذاكرة و أذهان الشعوب المتعاقبة.

و ما أستنتجه أخيرا، أن التاريخ لا يفنى إلا بعد فناء البشرية. لذا فإن حجز مكان لأي فرد فيه لشرف عظيم، و مجد الأمجاد. و لا يتم بلوغ هذا الشرف، أو المجد إلا بامتلاك خصائص أحد الأصناف الإنسانية، التي تحفظ جيدا في ذاكرة أمم العالم. لذا يمكنني القول أني فهمت رسالة أستاذي مونيس، لقد فهمت.

****

أونْشولْد القوّة

إن القوة ضرورية في كل الأحيان، حتى يستتبّ الأمر في موقعه، و تسير دفة الزمان على خط الزمن، و يأخذ كل ذا حق حقه، و لينجلي الليل و يظهر الفجر بضيائه.
فما هي القوة، و أين يكمن تأثيرها؟
القوة هي مجموعة أجزاء مؤثرة تأخذ اتجاه ما، و هي مبنية على سببيْن: أوّلهما الغاية، و ثانيهما الحافز، مصاغان في أحد جوانب التركيز، و الرغبة، التي قد تكون قصد التأثير، فهي قوة هجومية، أو لقصد ردّ التأثير، فهي قوة دفاعية ردعية.
و عليه فكثير من ينظر إلى أحد الأفراد على أنه قويّ، فإما للهيبة منه، على سبيل الوقار. أو للخوف منه، على سبيل الرهبة.
و لو نظرنا في ميدان الحياة، لوجدنا أنّ القوة منبوذة في ظروف التغليب، و التسيُّب، أو الضعف و عدم القدرة على المواجهة. بينما هي محببة عند رد ما يعتقد أنّه جائر، أو رد مناصب إلى مناصبها. و ممزوجة بالخير مع السمعة الراقية، أو بالشر مع دنو المرتبة الاجتماعية.
فالأقوياء أبطال كما قال أغممنون ملك مسينا (3200 ق م): " السلام للجبناء، و النساء، و الضعفاء. الإمبراطوريات تصنع بالحروب." و عليه فإن أمعنا النظر في قول هذا الملك، لحتما سيتبيّن لنا مدى وقع تأثير القوة على مستوى مجرى التاريخ، فهذا الأخير يشهد بصدق، أنّ الحروب المدمّرة لم ينتصر فيها إلاّ الأقوياء، و أنّ التأريخ نفسه، لا يقرن إلاّ بوقع السيوف، و أصوات البنادق، و زئير الرصاص و القنابل.
آه لو يتخيل الإنسان يوما، أنه إلى جانب جذع شجرة إحدى الغابات الكثيفة، و هو يحمل سلاحه الملقم، و يسمع رذاذ أصوات الرصاص، و هو يخترق الجبال. و كل هذا يبدوا هيّنا، أمام الثواني التي تمرّ و هذا الإنسان ينتظر أجله، بين الفينة و الأخرى، حتى يطلع عليه فجر اليوم التالي، أين يكون كابوس يقظة الليلة المتوارية قد انقضى، فيحمد هذا الجندي الله على بقائه حيا، و هو يلملم أسلحة أصدقاء الوغى، الذين أمسوا أحياء، و أصبحوا أموات. كل هذا هو عبارة عن صراع، وجد منذ وجود المخلوق المقدس. إنه تصادم للقوى، التي تصنع الحياة على أنقاض الموت. قوى ترهب، و تزعج، و تقضي على أجزاء من الإنسانية، للحفاظ على أجزاء أخرى.
فالقوة مهما كانت، فهي سوط في يد جلاّد، لا يعرف للرحمة طريقا، فحتى بين الأفراد نلمس زبر الشظايا الناتجة عن صدام ليس بالهيّن، بين قوى قد تتعادل في الشدة، لكن يجب عليها أن لا تتوازن في النتيجة. و على هذا الأساس ظهر الصديق، و العدو. و صنف الضعيف، و القوي. و حتى و لو عبثنا بالمصطلحات! إلاّ أننا في النهاية نركن إلى حقيقة واحدة، و هي أنّ للقوي موقع، لا بأس به في

سلم رفاهية الشعوب و الأمم. لكنّ الضعيف حبل نجاته قصير، و هو أقرب إلى الهاوية من شفاها. هذه هي الإستراتجية التي تسمى بثقافة الغاب.
فالأسد ملك بأسلحته، و أنيابه الفتاكة. و الغزال ضعيف بانعدام تأثيره، و لطفه، و لولا سرعته لما بقي على صقع الحياة يدبّ.
و نجد أيضا أنّ هناك من يسعى إلى اكتساب القوة، و تغيير موازينها، و هو الهاضم لكل ما سبق من أفكار. و هذا السعي قد تتعدد أوجهه، و تختلف على حسب الساعي و بيئته، فهناك القويّ بالمال كما يقول المَثَلُ الانجليزي: "إذا تكلم المال سكت العالم"، و هناك القوي بالسلاح المادي، و هذا ما يشهده عصرنا من تنافس محموم حول الإعداد و التصنيع لوسائل التدمير الشامل منها و الجزئي، أو الكيماوي و البيولوجي...و غيرها...كما نجد أيضا سلاح الضغوطات و المواجهات النفسية التي تستهدف الروح لا الجسد و هو انقياد الشعوب لامتلاك قوّة العِلم التي تستهدف الماضي، و تصنع الحاضر، و تستبشر بجمال المستقبَل.
إنه السلاح الفتاك، الذي تقام على ضفافه كل الأسلحة الأخرى. فبالعِلم وجد السيف للهجوم، و به وجد الدرع للحماية، و بالعِلم وجدت الدبابة، و به وجدت المضادات، و منه فإن سمّ ضعفنا انصرافنا عنه، و ترياق قوتنا عودتنا إليه.
فلا يجب أن نبقى ضعفاء، لأن ضعفنا بيّن، و أساسه فقدنا الإمكان في القلوب. فلو آمنا بإمكانية استقوائنا، لصرنا الأقوى. لأن القوي قويّ في عقله، و وعيه بالمتغيرات. لا في سلاحه، و قدرته التدميرية.
فمشكلة الضعيف ليست في ضعفه، وإنما هي تتعدد، و تتوزع على عدة عوامل، قد تأخذ شكل عدم إدراكه أنّه ضعيف أصلا، و قد تأخذ شكل عدم مقدرته على مواكبة عصره لتشبثه ببطولات الماضي، و قد تكون عدم محاولته اكتساب القوة لأنّه اعتاد على ضعفه و وهنه، و قد ترجع أيضا إلى فقدان التحكم في قوته. لدى يجب إرفاق القوة باللين كضديْن واجب تلازمهما لأنهما مكملان لبعضهما، فاللين بدون قوة يعتبر ضعفا، و القوة بدون لين تعتبر ظلما، كما قال الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: "... بلغني أنّ الناس هابوا شدتي، و خافوا غلظتي و قالوا: قد كان عمر يشتدّ علينا و رسول الله صلى الله عليه و سلم بين أظهرنا، ثم اشتدّ و أبا بكر والينا دونه، فكيف و قد صارت الأمور إليه؟ ... ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أنّ تلك الشدّة قد أضعفت، و لكنها إنما تكون على أهل الظلم و التعدي على المسلمين: فأما السلامة و الدين و القصد، فأنا أَلْيَنُ لهم من بعض لبعض..."[1].

****

بروفينثيا فلسفية

1. **س: أذكر العوامل التي كانت وراء نشأة العقل الإسلامي مع إعطاء بعض النماذج (الفلاسفة) ؟**
2. **ج: إن العقل العربي على وجه الخصوص قبل مجيء الإسلام، كان عقلا مغيَّبا بحكم طبيعة الإنسان العربي آنذاك، الذي استهوى الحس، و جعل من الطبيعة اله يحاول التعايش معه.**

[1]: عباس محمود العقاد، "عبقرية عمر"، دار النجاح للكتاب _الجزائر_، ص 23.

لكن في هذه الفترة بالذات حين كان للعربي قيمة شعرية فصيحة ذات طابع وصفي، و كانت مكة عاصمة العالم التجارية و الثقافية و منبعا للاحتكاك، و التناقح الحضاري و المعرفي، ظهر شاب منها بحيث أنه كان مهيئا لحمل مشعل العلم بأخلاقه و مزاياه الحميدة مما جعل منه رسولا إلى الأمة، يحمل إليها الكلام الرباني أو الوحي الإلهي، بحيث أنّ السماء تتدخل في حياة البشر و توقظ عقل العرب مما جعلهم يجدّون في طرح الأسئلة حول الوحي، أي أنهم انتقلوا من الوصف إلى المضمون، بتدبر معاني القرآن بعد الإنصات له.

هذه الأسئلة أصبحت تحتاج إلى أجوبة، تكون بمثابة بلسم شاف، مما جعل المسلمين ينشئون أول مؤسسة اجتماعية تغلب الكل على الفرد، ألا و هي "المسجد"، و لكن هذا لا يكفي مما ولّد علم الكلام، و الذي دار بين فرق كلامية شتى، كفرقة المعتزلة التي أسسها واصل ابن عطاء، و فرقة الأجهمية التي أسسها جهم بن صفوان، و الأشعرية التي أسسها موسى الأشعري و غيرها، معتمدة بذلك الجدل و النقاش، و الذي كان عقيما في أغلب الأوقات.

في خضم هذه الأحداث و تشعبها يظهر شاب من كندة يدعى أبا إسحاق الكندي متأثرا بفكر مدرسة المعتزلة الذين قدموا العقل على كل شيء، لكنه يختلف عنهم في أمر أساسي، و هو تقديم العقل عن الوحي، و الذي وضحه في تقسيمه للمعرفة، بحيث قال الكندي بأنّ المعرفة نوعان:

أ. معرفة جزئية يسيطر على استقرائها العقل.

ب. معرفة كلية أو إلهية يسيطر عليها الحدس أو العرفان

و لا مجال للعقل في العلم الإلهي، هذا القول جعل من الكندي فيلسوف العرب بامتياز، و أسس للفلسفة العربية الإسلامية بأعماله المختلفة من ترجمة كتب الأسبقين من اليونانيين، و اعتماده على المنهج الواضح، و الرؤية الثاقبة للأمور، و هذا ما تجلى في مؤلفاته المختلفة، و التي كان أهمها كتاب " الفلسفة الأولى" الذي يتحدث فيه عن الميتافيزيقا.

و نجد أيضا أسماء لامعة في تاريخ الحضارة الإسلامية، و التي لمعت بالعلم و أبرقت سهام المناهج و المواضيع، ألا و هو الفارابي الملقب " بالمعلم الثاني" و الذي أبدع مشروعا فلسفيا ضخما، و قدمه للمجتمع آنذاك بعدما كان متأثرا بالمثالية الأفلاطونية، بحيث أن الفارابي أنتج المدنية و القوانين، و قد شرحهما في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" بالإضافة إلى هذا جعل من عالمية الإسلام هدفا يجب العمل عليه، و الذي يبدأ بنشر تعاليم الإسلام بالعلم قبل السيف، كما أنه عمل على تقريب نظرية فوتونية الخلق للمفهوم الإسلامي.

إلى جانب هذا تواصلت الحضارة الإسلامية و امتدت شرقا و غربا إلى أن وصلت إلى الأندلس، التي تعتبر ربيع الحضارة الإسلامية و ورودها التي ذبلت بذبول عميد فلاسفتها، ألا وهو ابن رشد"الحفيد"، بحيث تشاء الصدف أن ينشأ في الأندلس "الشارح الأكبر" كما لقبه كبير شعراء ايطاليا "دانتي"، طبيبا و فيلسوفا و عالما و ساعيا إلى المساهمة في العلم و إثراء الرصيد المعرفي الإسلامي، و بحكم نباهة و نباغة ابن رشد جعلته يتبوأ درجات العلى في القضاء، فولي قاضيا على اشبيليا، و اعتمد طبيبا خاصا لابن المنصور ملك الموحدين قبل أن تحاك له المؤامرة الشهيرة، و تحل به النكسة التي أعتبرها نكسة كل المسلمين إلى يومنا هذا.

فحياة ابن رشد كانت مليئة بالعلم بشرحه و ترجمته للأدب اليوناني القديم، و خاصة أرسطو، و دفاعه المستميت عن المرأة المسلمة و حقوقها، و مهارته الطبية الباهرة بشهادة ابن طفيل، بالإضافة إلى قوة فلسفته، و التي حاول بها أن يوفق بين الحكمة و الشريعة، و هذا ما وضحه في كتابه

الشهير"فصل المقال فيما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال". مما جعله يدفع ضريبة النجاح، و الذي خلصت إلى انتصار حزب الرجعيين على حزب الفلاسفة و العلماء، فرحم الله فلاسفة الإسلام و علماءهم المؤهلون للاقتداء.

في الأخير ما يمكننا استنتاجه هو أنّ عوامل حث العقل الإسلامي على العمل تتمحور فيما يلي:

1) ظهور الوحي و الفرق الكلامية.
2) ظهور حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى العربية.
3) نشأة المشاريع الفلسفية العربية على أنقاض علم و ثقافات الأمم الأخرى.
4) نجاح الخطاب العمودي بين فئات المجتمع و ابتعاد أفراده عن الحسية.

مما ولّد الإقلاع الحضاري الذي نحن بحاجة إليه الآن، فصار الفيلسوف يحاور الفقيه، و الطبيب يحاور السياسي و غيرها من مظاهر الإنسانية المنظمة و المنتظمة وراء قناع العلم و المعرفة.

****

توركويزا

إن من جوانب القدر أن جعل الإنسان كائنا ذا إحساس يثور و يهدئ، يضحك و يبكي، يرتقي بأناه روحا إلى درجات من جهة، و ينزلها دركات من جهة أخرى.

و هذا كله خاضع لعامل مهم جدا، ألا و هو الوقت و الغرينتا المتمركزة في قلب كل إنسان، و تحرك خيوط مشاعره لتصنع منه ذاتا تغلف جوهرا يتصل في الكثير من الأحيان بروافد. تلك التي تضايق البشر في لحظات معينة، وفق ظروف متنوعة بتنوع المواقف و المؤثرات. لذا بكل اختصار ما هي الذات؟ ولماذا و بماذا تتأثر سلبا أو إيجابا؟

إن الذات البشرية عبارة عن نهر متقلب المزاج، قد يكون هادئا شتاء، و متدفقا صيفا، أو العكس. و هذا تحت سيطرة العوامل المؤثرة عليه، و المستقلة عنه، بتوجيه من الحاسم الذي يمثله الوقت و الزمن.

و عليه فإن الذات البشرية، و وفق بنياتها المائعة و المتحولة. قد تأخذ أشكالا لا بأس بها في نفس الوقت المستنسخ، عبر مدة الأيام. و هي الباقية في إطار نفس القالب البيولوجي أو الهيكلي الذي لا يتغيّر كثيرا، إلا على عتبة الكبر أو الهرم الذي لا دواء له.

فنجد أن الذات قد تُعصَم اليوم من أخطاء وقعت فيها البارحة، في نفس التوقيت و الظروف و المكان و الأرضية الانطلاقية. لكنها تصل إلى نتيجتيْن مختلفتيْن تماما، هذا التبديل حير الدارسين لها. فمنهم من أدخله ضمن نطاق التفسير اللاهوتي الأسطوري، بأنّ هناك قوى خفية تحرك هذه الذات وفق إرادتها و مشيئتها على سبيل الجزاء. لكننا نجد فريقا آخر ينادي بأن هذه الذات إن كانت مسيّرة و مسَيطر عليها، فأين يكمن الخير و الشر، أو الانزعاج و الارتياح و على من تقع المسؤولية و من يضمن الحرية؟

إنها ذات تمتد داخل حيز خاص، و تتكيف مع كل أشكال العمران المحيط بها، على سبيل الإيجاب بالمزاج الطيّب و الرغبة الجامحة، إضافة إلى التعقل و تسيير الأهداف و المصالح من حيث المبدأ، أو على سبيل السلب بمشاعر خبيثة و الاندفاع المتمرد على منطق التفكير، و الممزوج بالخوف من ضياع الفرص التي تبدوا أنها لا تأتي سوى مرة في العمر.

إنها الكائنات البشرية في مسيرتهم الحياتية الاجتماعية منها و النفسية، و التي تمرّ على محطات عديدة تكون انطلاقتها الإخصاب و نهايتها الحساب الذي يفضي إلى الثواب و العقاب، و تتوسطها محطات عبور قد تبيض أعمالا خالدة و مخلدة، أو تسوّد بجرائم متعمدة.

أحيانا يضع الإنسان مصيره بين يديْه، فتعبث به اليد اليسرى احتقارا و شتما، بينما تحن على نفس المصير اليد اليمنى إعجابا و تشجيعا و حماسا، فيقع صانع القرار بين كلمات مُعَذَّبٍ، إمّا يقول الحقيقة فيخسر المجد، و يربح الدنيا و الرفاهية الزائلة، و إمّا يكذب فيجني الذكرى و يخسر نبضات قلبه المتعب أصلا من السير في طريق لا يعرف نهايته، و لا يستطيع العودة إلى بدايته.

هذا هو الإنسان الذي قمع العراقيل، و جعل الأقوال الهدامة تسحق تحت أرجل الفيل، فلكل إنسان ذات تحركه على حسب هواها، و شهوتها، لكن عليه كبحها بقيود العلم، و إن لم نقل المعرفة فإننا نقول التعرف على ما يجهله هذا الكائن المقدس قداسة عمامة جدّي رحمه الله.

و هنا نحن نحرص على صناعة الذات لأن كل ذات عاقلة هي إضافة للجماعة المشتركة في صناعة ازدهار الحياة، فاجتماع ذوات يشكل اجتماع أناة، و يشكل جماعة في حده الأدنى و مجتمع في حده الأوسط، وشعبا حيا في حده الأسمى.

إن العظمة لا تعطى، وإنما تبنى، كالفنادق الفخمة التي لا تُصنف بديكوراتها، و إنما بنوعية خدماتها و علو كعبها الاستيعابي، و المخطئ كل الخطأ من يعتقد أن العلم و المعرفة محصورة أو محدودة، فقد أثبتت الأيام و حكاياتها أنّ العِلم شاطئ بحره لم تدركه الأبصار بعد، و رغم ذلك استطاعت الذات البشرية التأقلم معه. و احتوته، و مازالت تطالب بالمزيد.

تلك الذات التي عاشت في غرب الأرض، و تنفست هواء الأمازون المنعش، أو أكسجين الألب. أما الذات المكتوية بنار الصحراء، أو المرتخية تحت ظل الواحات مازالت ترفض نور العِلم، مما ولّد عندها قناعة الاستسلام و التي انعكست على ركيزتها بذلك الوهن، الذي أصاب عصب الذاكرة. ممّا جعل الذات الشرقية تعود إلى مخلفات الماضي العاجز و تابعة دون أن تدري لذات غربية آمنت بمستقبلها، فعملت لأجل نحته بأدوات تخلى عنها مالكوها الأصليين و حوّلوها إلى أشواك في أحلاقهم.

يـا ذات الشرق استفيقي و استيقظي، و لا تكوني كما قال جبران خليل جبران:{ بينما كنت يوما أدفن ذاتا من ذواتي الميتة إذ وقف بي حفار القبور،(...) و قال لي:"إنّ سواك يأتي باكيا و يعود باكيا، أما أنت فإنك تأتي ضاحكا و ترجع ضاحكا".}[1]

****

[1] جبران خليل جبران، المجنون، المكتبة العصرية للطباعة و النشر بيروت_لبنان، ص:19.

دِيرْ الخِير صاحبي

الخير هو حب الإيجاب للغير و السعي لتحقيقه، رغم كل المعوجات التي تعترض هذا المبتغى، و تحت طائلة أي ظرف، مع مراعاة زيادة المدّة أثناء العمل على ذلك، و صبغه بالتمام، و الاقتراب نوعا ما من الكمال.

فهو أولا رغبة شعورية نفسية، تدفع فاعله نحو الإيمان بمدى جدواه على الأرض، أين تتولد تلك الشحنات العصبية، و التي تندفع ناحية الجهاز العصبي للإنسان، واضعة في جزئه الرئيسي حزمة تصورات، تبشره بالغد الأفضل، إذا ما هو سعى إلى رغبته بصدق، و تفان.

هذه العملية في حد ذاتها تمهيد إلى أخرى أكثر تعقيدا، حين تتحول الرغبة من الجانب الشعوري، إلى الجانب الواجب تطبيقه، على المستوى العقلي. أين تُجمع كل التصورات السالفة الذكر، في حدود الاستعداد، و التهيئة للقيام بما يفيد. و الذي يعتبر خيرا يجب تجسيده على نطاق الملموس.

و بوصول فاعل الخير إلى هذه المرحلة، يكون قد تجاوز العائق النفسي الخفيّ، و الأقوى. لينتقل إلى مرحلة أخرى ثالثة، و التي تظهر مع حجم قدرته على التكيّف مع الظروف، و تكييف قدراته الذهنية و العاطفية، مع معطياته المحيطة به. و ذلك لإيصال رسالة السموّ المنشودة من طرفه، قصد صياغة ما بدا له خيّرا، على أنه خير في مجتمعه الذي ينشده. و أمام ربّه الذي يعتقد بأنه يتقرب منه بهذه الأفعال، على هيئة القربان المعنوي.

و كل هذا لا يتم إلاّ على وقع حروب ذاتية مدمّرة، أي على فاعل الخير الحقيقي خوض معارك عدّة، نفسية بالدرجة الأولى. لتكون بمثابة جسر عبور نحو قهر النفس الأمّارة بالسوء، في عملية تراجيدية لا يجيدها إلاّ فاعل الخير عينه، لاكتساب الرغبة، و المضي قدما إلى الأمام.

كما أنّ فعل الخير، و شدّة قبوله في أوساط العوام، تكوّن لباعثه مكانة قد تأخذ مكانة الأمير في مملكة دستورية. ففاعل الخير قد يعيش بدون حكم، فهو يمتص الصدامات، و يضمد الجراح، و يغلق أبواب، و فتحات الشقاق، و التشقق على ناحية رأب الصدع.

مما جعل من فاعل الخير بطلاً محبوبا، و محببا الاقتداء به. أي أنه مميّز، و متميّز، و ذا باع طويل. و ذلك يظهر في قول العرب قديما: "سيّد القوم خادمهم". أي أنّ فاعل الخير هو سيّد في نظر أبناء جماعته، و أمره غالب على أمرهم، لجراحة عاطفته، و ايجابية نتائج أفعاله، المنعكسة على ايجابية استقبالهم لها.

كما يمكننا الإشارة بوضوح، إلى أنّ الكثير من البشر ينسون أو يتناسون، على سبيل القصد، أنّ فعل الخير ليس له جزاء فوريّ، أو بعديّ، على سابق إصرار. و أنّ الذي يقوم به، لا يرجوا من مستقبِله الثواب. بل و أنّ الكثيرين من هؤلاء الفاعلين العظماء، لا ينتظرون حتى الشكر. ممّا أهلهم للاقتراب من إنسانيتهم إلى الحد الأعلى، الذي لا تفوقه إلاّ التضحية بالروح الغالية، على نفسية الكائنات المقدسة.

فالإنسان لا يقوم بأفعال خيّرة ليجني المقابل بها، بل و أكثر، هو لا يقوم بهذه الأفعال المحبوبة، ليكون محبوبا. قل إن كان صادقا، و مؤمنا بما يقوم به، في قالب أخلاقي خالص، و دقيق. فإنّ فاعل الخير لا ينتظر الخير من غيره، ليزيد منه. و إلاّ وقع في المحظور، من لعبة المصلحة، و المصلحة المتبادلة. فانتظار ردّة فعل خيّرة، هو بمثابة انتظار أجر عن عمل، هو في الأصل و النواة، واجب بعد الأمانة. أي أنّه و ليكن واضحا في نظر الكثيرين، أنّ القيام بالخير، و نشره، يُبنى على أساسات التطوّع، لا

الإجبار. أو أساس المسؤولية، لا القهر. و في أسمى الحالات و أجلها قدرًا، فالقيام بالخير هو عمل يقوم مبدؤه على إنسانية الإنسان، التي تكفل التضامن، و التراحم، و التجاور، و التسامح ...و غيرها... من صفات تسهل العيش، و التعايش بين الأفراد، و الجماعات، و الشعوب، و الأمم، في سلام و وئـــام.

فكما قال الدكتور إبراهيم الفقي: "افعل كما تستطيع من خير... و بكل ما تستطيع من وسائل... و بكافة الطرق الممكنة... كلما أتيحت لك الفرصة... إلى أكبر عدد من الناس... لأطول فترة ممكنة... و سوف يكون جزاؤك النجاح المطلق و السعادة الكاملة.".[1]

****

عربية الفكر الجواني

لو تأملنا في الفكر العربي عبر تاريخه الحافل بالتذبذب صعودا و نزولا، لوجدنا أن هناك عدّة دلالات تؤرخ لهذا العملاق، الذي يحرك أمة تختلف في كل شيء، و تتفرع ألوانها مشكلة أشكال مدهشة. وكل هذا ضمن عملية آلية، خفية، يشارك فيها العام و الخاص، و تتصادم فيها المرجعيات و الاديولوجيات، و الاتجاهات، إضافة إلى الطرائق المتبعة و المتحكمة بسريان التجارب المختلفة.

و لو عدنا إلى ما مضى لوجدنا الفكر العربي في جاهليته فكرا متفوقا، فبينما كان العجم يتخبطون في تيه الاضطرابات التكوينية، و الغرب يصارع الأسطورة، و الشرق يعذب الذات و النفس، كان العرب ينتجون ثروة هائلة، من السياسات التي جعلت مكة المكرمة تتسيّد عصرها، و هي الملتقى و المعبر لكل ثقافات الأرض آنذاك.

فكثير من المهتمين يعتبرون أنّ الفكر العربي في تلك الحقبة سادته الشكلية و الوصفية، و لكن أغفلوا أو تغافلوا أنّ لكل عصر لغته، فكيف للعربي أن يتحدث لغة المضمون، و هو يعيش لغة الشكل، و الطبيعة في حدها الأقصى؟؟

و قد أجادها بامتياز فأصبح العربي فصيحا فصاحة لا مثيل لها إلى يومنا هذا، جعلته يأتي بعد كتاب الله المعجز، و سنة نبيه عليه الصلاة و السلام. و رغم هذا فقد تجاوز هذا الفكر لسان الشكل، و بدأ يتحول تدريجيا إلى المضمون، في جدليات و أطروحات، كانت جديدة على الشعوب آنذاك. ملقيا بأعبائه الزائدة على التدبر في الوحي الإلهي، و الذي أعتبر الإبرة التي حثت الوعي العربي على الصراخ، فانطلق الذهن العربي إبداعا، و تشكيلا. خالصا إلى جلسات فكرية لافتة، بخواصه و عوامه. و مقدما للبشرية مثالية لم يدركها لا أفلاطون، و لا تلميذته من بعده في عصورهم الذهبية. بل و أكثر من هذا، فقد بدأ هذا الفكر الذي نعت بالشكلية، و الحسية المقيّدة لأنامل التحضر، يزرع بذور العلم و المعرفة في كل الاتجاهات مرفقا العلم بالسيف، و الشوك بالورد، مع ازدهار الدولتيْن الأموية و العباسية، و جانب من الدولة العثمانية.

[1]: إبراهيم الفقي، "البرمجة اللغوية العصبية"، إبداع للإعلام و النشر جمهورية مصر العربية_القاهرة، ص: 134.

و لو نظرنا إلى حركة التاريخ بصدق، لوجدنا أنّ الفكر العربي تموقع في أغلب فترات حياته في خندق الممانعة، و المقاومة، مما جعل منه فكرا مستهدفا قبل أن يحوّل هذا الفكر الاستهداف إلى هدف، في حركة عجيبة منه قلب السحر على الساحر، فكان إما فكرا مبدعا في مخابر غربية، أو فكرا مؤسسا في بلاد عربية، و لكن ضمن نطاق الظل الساتر.

بكل بساطة إنه ذكاء العربي الذي جعل من نفسه سيّدا إلى يومنا هذا، بفكره الخلاّق القادر على استيعاب معطيات الحاضر، فالعربي لا يعمل فقد ترك العمل للشرق مستعبدهم بماله، و لا يفكّر فقد ترك الفكر للغرب، و هو يجني فقط نتائج الفكر و إرهاصاته، كملك مبجل، أجل عربي اليوم ملك مبجل، يتحكم في كل أمور عصره، و لكن من وراء الستار، فهو يأخذ الفكر عن الغرب، و يطرحه في الميدان ليستهلكه الشرق، و ما عليه إلاّ أن يجني ثمار زواج الغرب بالشرق ليكون العربي عرّابا لمولودهما بماله و ثرواته و سلطانه، لكن كل هذا في الخفاء. مما جعل البعض ينخدع و يهزء من قدرة العربي، و ينظرون إليه على أنه عبد بينما هو سيّد بمظهر عبد، فإن جعلنا فكر الغرب مبنيّ على التأمل، و الذي قاده إلى ثورات عظيمة في العلم و التقنية، و فلسفة الفلسفات، و التي مزجت بين عمق الماضي، و تجديد الحاضر، وسفر الوجدان ناحية المستقبل الذي يدّعي نفس الغرب معرفة أجزاء من تفاصيله، أو التنبؤ بمظاهره، و التحكم بها، بواسطة استراتيجياته المختلفة، و المتكونة بين أروقة القصور الغربية كواشنطن و برلين.

و إن جعلنا الفكر الشرقي مبنيّ على الحركة و الخفة و النشاط، و التي جعلته آلة من آلات الزمن و اختراعاته، ينجز الأعاجيب بأرخص الأثمان، و يوفر الوقت بالجهد، و قد عمل في ماضيه، و يعمل في حاضره و سيعمل في مستقبله، و فاصلا الروح عن الجسد.

فإنّ بين هواء الغرب، و تسونامي الشرق، أبراج العرب الشاهقة الشامخة، أي بين هواء الشرق، و أكسجين الغرب، رئتيْن عربيتيْن.

فالفكر العربي، و إن شئنا أو أبيْنا فهو قائم بين فكريْن مختلفيْن تماما، مما ولّد تلك التركيبة المستنسخة عن الجهتيْن، الشرقية بحركتها، و الغربية بقوتها، و لكن يبقى الفكر العربي متميّزا عن الشرق و الغرب بذلك الذكاء القابع وراء الستار، و الذي دفع بالهجمات المتكررة عليه إلى الارتداد على أعقابها.

فإنّ للعربي فكرا ذكيا متميّزا جعل من الأمة العربية تتسيّد، لكن دون دفع ضريبة سيادتها، إنه فكر يأخذ من كل فكر ما يحتاج إليه ليصنع منه ما يريد. و إن صح التعبير، فإن الفكر العربي كالطباخ الذي يستخدم في عملية طبخه كل ما يلزم لتقديم وجبة لذيذة.

إنه فكر خالص مجمّل بالحسية التي لابد منها، و متمسك بالمثالية التي تمثل الانتماء و العراقة. فليس المخطئ من يعتبر الحسية العربية هي إحدى قيود الفكر العربي، و ليس المخطئ الذي يعتبر المثالية هي من يقيّده بخرافاتها، و لكنّ المخطئ كلّ الخطأ من يظنّ أنّ الفكر العربيّ لا يَعِي قيوده، و لا يسعى للتحرر منها.

فكما قال جمال الدين الأفغاني مجملا خصائص الفكر العربي: "لقد جمعت ما تفرق من الفكر، و نظرت إلى الشرق و أهله، فاستوقفني الأفغان، و هي أول أرض مس جسمي ترابها، ثمّ الهند، و فيها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار و الروابط، فجزيرة العرب من حجاز هي مهبط الوحي، و من يَمَنٍ و

سعادتها، و نجد، و العراق، و بغداد و هارونها و مأمونها، و الشام و دهاة الأمويين فيها، و هكذا كل صقع و دولة من دول الإسلام و ما آل إليه أمرهم....."[1].

****

فـاطستينـا

إننا اليوم على أعتاب زمن تتحول فيه الموجودات و المشاعر، و تزول فيه الحدود و تفتح فيه المعابر، و تصدح المنابر، وتضيع الكلمات من الكاتب و الشاعر.
و إننا هنا نقف على منصة مشكلة بدأت تتضح جليا. مشكلة أصلها عربي، و اتجاهها عربي، و مكوناتها عربية. فشغلت الروح و الجسد و التفكير. هذه المشكلة تتمثل أساسا في الشباب العربي، و لنكن أدق في الفتيات العربيات. فلا يختلف عقلان أن زماننا أفرز عدة أشكال للإحباط، و بدرجات متفاوتة. كان جوهره أن الغرب أصبح سببا لوجود العرب، بل تعدوا ذلك إلى أبعد الحدود، و هنا كان لزاما علينا أخذ الفتيات كمجال للمقارنة، لعلنا نصل إلى علة العلل الإحباطية العربية.
فلو سألنا الشاب العربي: هل تفضل أن تكون زوجتك فاطمة العربية أم كرستينا الأوربية؟
فإنه سيجيبك بدون تردد، ولا حسابات: طبعا كرستينا.
وهنا نبلغ مبلغ السؤال التالي: ما الفرق بين فـاطمة و كرستينـــا؟
إن فاطمة فتاة ولدت في بيئة عربية، علمها والداها كيف تكون مسلمة أو تتظاهر بالإسلام على أقل تقدير. و بمرور الزمن تعلمت كيف تخلص لنفسها فقط، و أن تتعايش مع ما يتطلبه شخصها من محسوس، قد يتضح في المال و الجواهر. و تسعى إلى إقامة بيت مستقل، لا يهمها إن كان مستقرا. فقد تربت فاطمة و عينها على زوج صالح الجيب، و خال من العيب، و الأهم فيه أن يكون إما غاضا للطرف عن أفعالها، أو غير متفطن لهذه الأفعال أصلا. و بهذا فإن فاطمة أصبحت تبحث عن رجل تركي لتعيش حياة مكسيكية خالصة، فهي غير مقتنعة بالمبادئ الأساسية، و حياتها غير واضحة. حتى أنها في نفسها لا تعرف أي الطرق التي تؤدي إلى أهدافها المتحركة، بل إنها لا تعرف حتى لماذا تعيش؟ أو كيف تعيش؟
و لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ففاطمة فقدت الحياة، فمن أين لها أن تعطي الحياة؟ و فقدت الحب، فكيف لنا أن نلمس حبها؟ و فقدت الكثير من صفاتها الإنسانية، حتى أضحت تشك حتى في جنسها، و لونها، و مقوماتها الوجودية. و هنا أحسن وصف لها، هو أنها مسكينة. أجل فاطمة مسكينة، محتاجة إلى من يعيل وعيها قبل حالها، و محتاجة لمن يجيبها قبل أن يسألها. و ما ينطبق على فاطمة ينطبق على الكثير من فتيات العرب، في هذا الزمن الغادر الذي لم نحسن التعامل معه، فأصابنا في منبع حياتنا، و جعلنا أشباه شباب، لا نجيد إلا التسكع و السخرية من أنفسنا قبل غيرنا.
و في المقابل نجد كرستينا بنت غربية، ولدت بأوربا، فاكتسبت الجنسية الأوربية، وذلك أهلها لاكتساب الحقوق المدنية، تربت على أسس إنسانية. جعلتها تقف على نفس المسافة من الدين، و السلطة و المال، مما جعل كرستينا تنبذهم جميعا، فقد أخذت نصيبها، و ما تحتاج إليه لرسم مستقبلها، و حياتها

[1] تاريخ العرب الحديث و العالم، مجموعة مؤلفين، المعهد التربوي الوطني-الجزائر، ص51.

العلمية و العملية. فالإنسانية لدى كرستينا هي كل شيء، فهي الزوج، و الابن، و الأب، وكل الأفراد و الأحبة، و هي كل الجمادات من منزل، و سيارة و راتب و... غيرها ...
مما أوجد مزاوجة غريبة لدى نفسية كرستينا، بين الإحساس و المحسوس. فنتج عن ذلك كله إنسانة قبل أن تُحَب هي تحب، و قبل أن تعيش هي تتعايش، و قبل أن تضع الأهداف، تصير هدفا. فمن لا يجد العزاء في أحضان كرستينا الإنسانة قبل كل شيء؟

و عليه فالفرق واضحٌ للعقول قبل العيون، بين فاطمة و كرستينا، و كم حزنا كل الحزن حين وضعنا هذه المقارنة التي أدمت القلب، و أسالت الدمع، و وخزت العقل و الوجدان.
إن فاطمة دماؤها عربية، فهي حسب عصبية ابن خلدون من دائرة عمراننا، متنقلة بين أجيالها الثلاث، و هي حسب أغست كونت الاستاتيكا التي تحفظ النظام و تترأس القواعد، و حسب ايميل دوركايم هي التضامن الآلي الذي يعشق القداسة، و يتبرك بها، و بعيون و فكر ماكس فيبر فاطمة هي ذلك الفعل الاجتماعي الوجداني الذي يعكس سلطة الشباب الكاريزمية.
كل هذا هي فاطمة التي نبغي، و الأم التي نحفظ جميلها فوق رؤوسنا، و الأخت التي نفخر بها. فنحن نريد فاطمة الأم حنونة حنية الساحرة على ألكسندر الأكبر، و عطوفة عطف زوجة فرعون على سيدنا موسى، تحب أطفالها حبا صادقا يدفعها لإرشادهم إلى طريقة العيش المثلى، فتربيهم على الصفاء، و الوفاء. و نريد فاطمة الأخت حريصة على سلامة أخوتها حرص هكتور على أخيه بارس، و فخورة بعائلتها فخر الآنسة تشلسي بعائلة كلينتون. كما أننا نريد فاطمة الزوجة قادرة على حمل أمانة بعلها، و المتمثلة في الحفاظ على عرضه، و ماله، و ولده في غيابه، و طاعته بالمعروف في حضوره، كسيدة قريش خديجة بنت خويلد أم المسلمين رضي الله عنها و أرضاها. فلو تحققت كل هذه الصفات في فاطمة فلتذهب كرستينا إلى الجحيم.
نحن نريد عربيات لا أعربيات، و ما أحوجنا إليهن ليستردن دورهن، و ينهين حالة عدم الثقة بينهن و بين الشباب العربي، فحياتنا تدور وكأننا في طلاق جماعي بين الشبان و الشابات العرب، طلاق معنوي قبل تجسده على أرض الواقع. مما أنتج هروبا جماعيا لهذا الشباب إلى الخيال، بمتابعتهم لفتات الأوربيات التي تطل عليهم عبر نوافذهم الافتراضية، منمين بذلك الهوة بين العملي السليم، و الوهمي السقيم.
و في الأخير فما يمكنني قوله، هو أن فاطمة تبقى فاطمة، و كرستينا تظل كرستينا. و شباب العرب هو الذي يجب عليه التغير باتجاه الأنسنة الصريحة و الحقيقية.

****

قراءة لتطور التفكير البشري بنظارة أغست كونت

إن العقل الإنساني حسب أغست كونت،يمر بثلاث مراحل أساسية، لا بد منها لتكون الفكر الصحيح. و هي بذلك في حركة ديناميكية،الهدف منها تحقيق التطور. فهذه المراحل تشكل الوحدة العضوية، التي لا تقبل التقديم، و لا التأخير.بحيث أن العقل الإنساني حسب كونت، يمر بالمرحلة الأولى، و التي تعتبر بداية وعيه. فهي بداية التساؤل،و بداية محاولة الإجابة. فالإنسان في هذه المرحلة يحاول البحث عن المعارف المجهولة بالنسبة إليه،بطرحه لأسئلة مختلفة، و غير مركزة. لكن بادرة السؤال في حد ذاتها، هي أحد انجازات هذه المرحلة، و ذلك لاعتباره نقطة البداية، في طريق المعرفة.فهو اعتراف بجهل المعارف، أي إدراك الذات الإنسانية أنها لا تدرك الأشياء. فتلجأ للبحث عنها، عبر نافذة السؤال.
و من بين خصائص هذه المرحلة أيضا،هي تلك الإجابات التي تتبلور لدى العقل الإنساني، و هي في مجملها إجابات جاهزة، يعتمد تصديقها الإيمان بها. فهي في غالب الأحيان تكون عسيرة على الفهم، مستحيلة التكرار، و الإعادة في ظروف اصطناعية،أو في ميدان الواقع. و هي تجعل الوعي البشري، في مفترق طرق المعرفة، و أمام خياريْن، أحلاهما مر.فإما تصديقها بغض النظر عن صدقها، أو تكذيبها و بالتالي الطعن في منظومتها و معاداتها، و غالبا ما كان الخيار الثاني مهلكا لأصحابه. و قد عرفت هذه المرحلة باسم المرحلة اللاهوتية، لأن إنسان هذه المرحلة اتخذ من مبادئ الدين و المعتقدات، و الأساطير المختلفة ملجأ لتفسير الظواهر و تأثيراتها. فكون نتيجتيْن حتميتيْن لهذا المسار التفكيري، و تمثلت في زيادة سلطات رجال الدين، الذين اعتبروا مصادر المعلومات، و التفسيرات لمختلف الحوادث و الوقائع. و نتج عن ذلك أيضا،عدم خضوع العقل لأي ضوابط في عملية بحثه عن النتائج، فاستعان بمختلف الحكايات و القصص التي لم تساهم إلا في تضليل العقل، الذي ما فتئ أن تجاوزها مع مرور الزمن .
في أثناء هذه المرحلة التي أفرزت عدة أوجه للتناقضات، على الجانبين المعرفي و المعيشي، أخذ العقل البشري يحاول التخلص من تبعاتها السلبية. قصد الوصول إلى تفسير أكثر إحكاما للظواهر، بدون تبعات مؤذية، سواء للإنسان أو المعرفة الصافية. و هذا أدى به إلى تجاوز المرحلة اللاهوتية، و دخوله المرحلة الميتافيزيقية.بحيث أن هذه المرحلة حسب كونت مجرد رد فعل، و تعبير عن عدم رضا العقل البشري، عل إفرازات و إرهاصات المرحلة اللاهوتية،و ذلك بمحاولة منه لتجاوز المغالطات الإعتقادية.بل و محاربتها إن اقتضى الأمر، فهذه المرحلة كان لا بد منها لتسطير الوجه العام للمعرفة البشرية، و التي أخذت على عاتقها التحرر و التحرير على جميع المستويات غاية. و ذلك تم بالتدرج في هذه العملية من الحس إلى العقل،حتى تنتهي بتحرير العقل من القيود الأسطورية. واضعة بذلك حدودا و معايير لهذا العقل أثناء قيامه بعمله المعتاد، و الذي يقوم أساسا عل تحسين و فهم الأوضاع المختلفة، من أجل تيسير العيش و ضمان جريان المعاملات و العلاقات الأفقية، و العمودية. في خضم التطور و التجدد و التقدم في مجالات الحياة المختلفة العلمية و العملية.
مع نهاية المرحلة الميتافيزيقية حسب كونت، فإن العقل يكون قد حقق نتائج عظيمة، فهو الآن يفكر في الإجابة عن تساؤلاته التي تعلم صياغتها، انطلاقا من رغبته في اكتشاف المبهم بالنسبة إليه. و هو الآن متحرر من تلك المعارف الجاهزة، التي تمتلك السلطة لفرض نفسها. و يعمل وفق قواعد تعصمه من الخطأ إلى حد ما، و له القدرة على الإقناع و تثبيت المعارف. و هنا كان لزاما على هذا العقل الدخول في مرحلة جديدة، لإكمال ما بدأه منذ زمن .

هذه المرحلة حسب كونت هي المرحلة الوضعية، أو المرحلة العلمية، و في هذه المرحلة الفكر الآدمي يأخذ على عاتقه القيام بعمله، على جميع الأصعدة،و المجالات. بهدف الفهم و التفسير، و التوضيح و الاستكشاف،وفق مناهج تتطور بتطور المتغيرات الزمنية و المكانية و الأدواتيةالمختلفة.
فيقترب في هذه المرحلة الفكر البشري من الكمال، بل يتجاوز ذلك إلى محاولة هيمنته على الظواهر، التي يدخلها دائرةالدراسة واضعا مشاريع لا تنتهي آجالها.
فهذا العقل في هذه المرحلة حسب كونت، قد بلغ مستواه و مكانته الطبيعية و العادية، و التي كان يفتقدها في مراحل سابقة. فهذه المرحلة حسب كونت، هي المرحلة النهائية لتطور العقل البشري، و تفكيره. و ما يأتي بعدها ما هو إلا نتيجة الجهد المبذول من قبل نفس العقل، لتعميم سيطرته على الحوادث و الظواهر، بالاعتماد على قواعدهالمنظمة لعمله، و شغفه اللامحدود بفهم و تحليل و تفسير الحوادث المحدثة و الحادثة. قصد الاستفادة منها أو التحكم فيها على الأقل، تحت مظلة المنهجية السليمة، و المثبتة للقوانين و النظريات المختلفة، و المدعمة بالحجج الدامغة و القابلة للنقاش، و النقد المؤسس على الموضوعية المطلقة، بغرض التحسين و التنوع، و ذلك في إطار البحث العلمي السليم، الذي يسير على خطى و مراحل معينة متفق عليها.
و هذه المرحلة حسب كونت، تعتبر نهاية نمو العقل.في هيئة عقل ساع إلى تطبيق ما تعلمه، في هذا الكون الشاسع، لعله يصل إلى التحكم فيه، و السيطرة عليه. و هي نهاية الدورة التطورية.
و هذا في نظر أغست كونت من خلال قانون المراحل الثلاث:"إن مختلف تأملاتنا تمر بالضرورة، سواء لدى الفرد أو النوع بثلاث حالات نظرية بوسع التسميات المألوفة كاللاهوتي و الماورائي و الوضعي أن تفي بوصفها، على الأقل بنظر الذين فقهوا معنى هذه التسميات. و لو بدت المرحلة الأولى ضرورية بجميع جوانبها، فيجب بعد الآن اعتبارها مرحلة مؤقتة و تمهيدية أما الثانية...لاتتضمن أبدا إلا غاية انتقالية، توصلنا تباعا إلى المرحلة الثالثة و الأخيرة. فالنظام النهائي للعقل الإنساني يكمن فقط في هذه المرحلة الجد طبيعية..."[1]

****

فقرة فلسفية بين العلم و الأسطورة

إن الإنسان منذ نشأته و هو بمحاولته اكتشاف ما حوله و تحسين ظروف معيشته جد و اجتهد في تفسير الظواهر المختلفة سواء تلك التي تعلقت بالطبيعة أو المتعلقة بذاته كمخلوق بشري و قد تشارك إنسان اليوم مع الإنسان القديم في هذه المسألة لكن مع بعض الاختلافات في النتائج و الطريقة المتبعة للوصول إلى هذه الأخيرة.

ومن هنا و بناء على نص الموضوع نجد السؤال الذي يطرح نفسه:

[1] *Conte (A) Discours sur l'esprit positif Paris.ed.Sechleier-1909/P5 et 6.*

بماذا اختلف تفكير إنسان العصور القديمة عن تفكير إنسان العصور الحديثة، و ما هو النمط الذي اعتمده الأقدمون لتفسير الظواهر؟ أو على الأحرى كيف كان يفكر الإنسان في المرحلة السابقة و كيف يفكر الآن؟

إن القدماء فكروا تفكيرا وهميا و أعطوا مفاهيم غير واقعية بحيث أنهم كانوا شعراء مثبتين للحقائق بكلام بلا أساس يسنده، فلا يمكن التأكد من معارفهم و حقائقهم بخلاف الإنسان الحديث الذي جعل من المنهج العلمي طريقة لوصوله إلى مفاهيم عقلية منطقية مبنية على براهين تدعم صدقها، فالقدماء لجأوا إلى الأسطورة في تفسيرهم للحوادث و الظواهر مما جعلهم يبنون معارف خيالية لا عقلية غير منسجمة مع واقعهم المعاش.

و مما يدعم هذا القول ما يلي:

1) إن البابليين اعتقدوا بأن هناك طائرا عظيما يجلب لهم الزوابع والمطرو يخلصهم من الثور الذي يحرق زرعهم و محاصيلهم، فإن البابليين باعتقادهم هذا يكونون قد صدقوا أسطورة لا وجود لها في الواقع، و إنما سمحوا لخيالهم الواسع بان يهيم بهم في تفسيرهم لظاهرتي هطول الأمطار و الجفاف، فتفسيرهم ليس واضحا بالقدر الكافي للإقناع،بينما الإنسان الحديث أثبت أن هطول الأمطار لا يكونإلا إن توفرت له الظروف المناخية الملائمة لذلك، و باستعمال المنهج التجريبي، بتوفير نفس الظروف المناخية فسوف تتساقط الأمطار بصورة حتمية، فهذا التفسير يظهر مدى تطابق النتيجة التي وصل إليها الإنسان الحديث حول ظاهرة المطر مع الواقع، و مدى إمكانية إقناع أي شخص بهذه النتيجة المنطقية.

2) فالقدماء كانوا يصدرون أحكاما على وقائع و حوادث بشكل حاسم لا يقبل الجدل و النقاش،خاصة تلك الحوادث التي كانت تفسر على أساس ديني لاهوتي، عكس المعارف العلمية التي تقوم على الشك في النتائج لتحسينها و تطويرها.

3) إن المعارف العلمية لا تطالب أحدا الاعتراف بها، فهي لذاتها قابلة للإقناع، لاعتمادها على ضوابط العقل. فالنتيجة العلمية يتقبلها العقل بكل سهولة بخلاف الأسطورة التي تطالب المؤمن بها بالاعتراف بشرعيتها و صدقها، و إن لن يستطيع التأكد منها.

وما يؤخذ على هذا الطرح، أن معارف الأقدمين و إن كانت في جلها خرافية وهمية إلا أننا لا نستطيع أن ننكر اكتشافاتهم المختلفة في المجال المعرفي.

فالصينيون القدامى لهم الفضل في اكتشاف بعض الوسائل البسيطة كالحبر و البارود، و الهنود القدامى آمنوا بقداسة الأخلاق و القيم، و الفارسين القدامى بينوا فضائل النور و كيد الظلام.

لذا يمكننا القول أن تفكير أجدادنا القدامى الوهمي اللا-واقعي المستند على الأساطير كان المخاض العسير الذي تولد عنه تفكيرنا العلمي المنطقي العقلي القابل للإقناع، فكما قال مارتن: "عجبا لأمر الفلسفة!فكيف لما هو عاطفي وجداني أن يؤسس لما هو عقلاني واقعي".

****

الحرية

الحرية هي عدم الخضوع لكل القيود و الالتزامات الشخصية أو الجماعية، المادية أو المعنوية، فهي كلمة تحتوي جميع معاني إحداث الرغبة و تحقيقها في أي ظرف و في أي وقت و بهذا يكون معنى الحرية معنى معنوي عاطفي وجداني يؤسس لحوادث واقعية عملية، مادية كانت أم ذهنية عقلية و من هنا نجد الحرية تتفرع إلى نوعان:

حرية فيزيائية بيولوجية و حرية فكرية روحية

فالحرية الفيزيائية البيولوجية هي تحديد الشخص أو الجماعة وقتا للقيام بأعمال بيولوجية أو فيزيائية و إقراره كقرار ثم تطبيق هذا القرار على أرضية الواقع تطبيقا عمليا يتناسب مع ما جاء فيه من تحديد للزمان و المكان و الكيفية المتبعة لحدوثه و مثال هذا:

تحديد وقت مراجعة الدرس للطالب، فالطالب وحده يختار موعد مراجعته و يقوم بها على النحو الذي أراد حين حلول الوقت الذي حدده لمراجعة ذلك الدرس سابقا.

أما الحرية الفكرية الروحية هي إطلاق العنان للفكر ليبدع في جميع المجالات و في الوقت الذي يراه مناسبا و بالطريقة التي يراها تخدم أهدافه، كالتحرر من قواعد المنطق العقلية، فنجد الفكر الحر يمزج بين الخيال و الواقع، فقد يفسر الأحداث الواقعية بالاعتماد على حكايات خيالية أو يؤلف لحوادث خيالية انطلاقا من حقائق واقعية.

فهذا النوع من الفكر يتجاوز كل الحدود و يتخطى كل الخطوط بألوانها و مزاياها في بحثه في الموضوعات التي تشغله. و من هذا كله نجد أن الحرية الفكرية قد تصلح حينا و قد تفسد أحيانا، و هذا راجع إلى القاعدة الأولى لبداية العملية التفكيرية و هنا نجد في متناولنا الحريات الأخرى المعنوية كحرية الدين و المعتقد، فمن المعروف عن المسلمين في أوج قوتهم الفكرية و العسكرية قد حكموا الأرض الممتدة من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا و من إفريقيا الوسطى جنوبا إلى مدينة فيينا الأوربية شمالا و لعدة قرون متوالية، إلا أنهم لم يفرضوا عبر هذه المدة الزمنية أي نوع من أنواع المعتقدات الإسلامية على أي فئة غير إسلامية و هذا يحسب للمسلمين الذين ضمنوا لهذه الأقليات حرية المعتقد و ممارسة الطقوس الخاصة بها،

وهنا يستحضرنا الإمام الشافعي رحمه الله الذي لم يجز حتى اقتراح البعل المسلم على زوجه الكتابي الدخول في الإسلام باعتباره هذا الاقتراح قد يقيد أو يربك الزوج الكتابي حفاظا على الحرية الكاملة لهذا الأخير الإعتقادية بالإضافة إلى الحريات المعروفة في عصرنا و من المهم جدا أن نشير إلى أن مفردة الحرية كثيرا ما تستعمل في غير محلها فتصبح كلمة حق يراد بها باطل، فقد نسمع السياسيين ينادونا بحرية الأفراد و هم الذين يقمعون هذه الحريات حين تتعارض مع مصالح معينة و هنا يستحضرنا قمع الحريات المتجسد في إحدى الدول الأوربية التي تطبل ليل نهار للحرية و معانيها السامية حتى جعلت منها مبدأ أساسي لجمهوريتها و بقائها و هي تشرع لمنع رداء نسائي على الرأس فهذا التناقض الكبير هو الذي أفرغ كلمة الحرية من معناها و جعلها تسقط في السفسطائية الحديثة كما أضاع عند الكثيرين أسس المبادئ الأخلاقية و منها الحرية، فمثلا نجد كلمة حرية تتداول على أنها التخلص من المعوقات و الحواجز التي تفصل الفرد أو الجماعة عن تحقيق هدف معين و هذا المفهوم بهذا المعنى يسقط الدارك له في معنى التحرر و هذا يجعلنا نحدد معنى التحرر الدقيق، فالتحرر ينطبق على رغبة العبد أو الأسير أو المكتسب لحرية ناقصة و هنا بهذا المدلول يكون مفهوما جزئيا من معنى الحرية، فالحرية كمفهوم كلي يتفرع منها مبدأ التحرر كحالة جزئية هدفها الوصول إلى النقطة المنشودة الشاملة لهذا الفرع.

كما يمكننا القول إن الحرية لا تكون إلا بالتحرر، فالتحرر ظل لمدة عقود الشغل الشاغل لعدة مجتمعات و شعوبا بأكملها.

و لتحقيق ذلك بذل في سبيله العينات المضطهدة كل ما يملكون من وسائل و أفكار و تحالفات و حتى عمليات عسكرية أو اقتتالا ميدانيا سقط خلاله الملايين من الضحايا و بالمقابل نجد أن الجماعات أو الهيئات القامعة للحرية ترفض تحرر ضحاياها، فنجد المحتل للأراضي يأبى التخلي عنها، ونجد المحتل للثروات يأبى التخلي عنها و الحبل على الجرار في هذا السياق.

فتدرج قمع الحريات يتدرج بتطور الإنسان، ففي مجتمعات ولت كان الإنسان عبدا لإنسان مثله على أساس عنصري و هنا تتبين لنا كل الآفات الاجتماعية الأخرى، فساد الاضطهاد بكل أنواعه الجسدية، فالعبيد كانوا يحيون حياة الأموات، منزوعي الحقوق لدرجة أنهم في أماكن عدة من ذلك العالم القديم كانوا يعتبرون مخلوقات غير بشرية، فيحرمون من الجلوس مع أسيادهم و الزواج من بنات الأشراف أو حتى إبداء الرأي و ما شابه ذلك من حقوق الفرد، و مع مرور الأزمنة، و بالكفاح المتواصل بدأت الحرية تأخذ فضاء أوسع على الرغم من أن في المقابل اتسع فضاء الاحتلال أيضا حتى صارت اليوم الحرية في مجالات معينة مطلقة لكنها لا تزيغ عن حدود الاحتلال المرسومة فنجد المرأة مثلا ناضلت لتصل إلى ما هي عليه من حرية، فقد تحولت مع مرور الزمن من المخلوق نجس يمنع عليه دخول الكنيسة إلى أخت تحظى برعاية الرب و احترام المسحيين المخلصين، لكنها لا تحيد عن منطق و تعاليم الكنيسة، وهنا تظهر حدود حريتها، فالحرية بالمعنى المطلق غير موجودة، و بالتالي التحرر مطلوب، فترى في عصرنا احتلالا جديدا من الإمبراطوريات الإحتلالية التقليدية لمستعمراتها، فنجد هذه الأخيرة تستجيب لقمع حريات أفرادها دون أن تدري، مما أصطلح عليه بالاحتلال الثقافي أو الفكري، و هنا نرى إمبراطورية عظمى أقوى حتى من روما في عصرها تبسط هيمنتها على العالم العصري المتحرك من خلال استيعاب الأفكار بعد سحقها و صهرها في قالب المفاهيم السفسطائية العصرية.

فمثال ذلك أن الفرد يوجه إلى مجال معين يكون فيه حرا حرية أكثر من مطلقة دون مجال آخر تحت لواء الرغبات و الميول و القدرات، فيكون هؤلاء الأفراد أحرار في كيفية اللباس و المظهر و الاعتقاد و التنقل لكنهم غير مسموح لهم أن يكونوا أحرارا في ممارسة السياسة أو أداء الخدمة العسكرية، ومنه قمع الحرية في الألفية الجديدة أصبح ممنهجا، لبقا، يحتوي الكثير من الأدب والحلاوة والخبث، بحيث أن النظم الاحتلالية صارت تحتل الفكر و العقل، و تقيد حريتهما دون أن يعرف هذا العقل المحتل عن حالته التي آل إليها في خضم الأفكار التي تتبع اتجاها معينا.

فالفكر العربي مثلا اليوم يقبل أفكارا غريبة عن معتقده و حياته و موروثه العلمي و الثقافي و مع ذلك يقبلها انطلاقا من تبريرات صيغة من قبل مسوقي هذه الأفكار بإحكام، فمثلا نرى الإنسان العربي المسلم يذهب مع زوجته في رحلة على الشاطئ، فتلبس الزوجة لباسا فاضحا لجسمها و هي مقتنعة أن هذا الفعل من قبل حرية المظهر ، و يقبل الرجل العربي الأصيل بفكرة زوجته تتباهى بمظهرها الغريب عن ثقافته و معتقده و مجتمعه الذي لم يعرف سواه من منطق المودا مثلا، فيصبح المبدأ فكرة تخلف، مما ولد في المجتمع العربي أرضية صالحة لتقبل كل ما هو غريب في الماضي القريب من الحرية التي تكون لدى الفرد العربي عنها مفهوما سفسطائيا، و هنا نضيف حرية التنقل و الإقامة، بحيث نجد الشاب العربي المثقف الذي يعتبر من نخبة الأمة العربية يهاجر إلى جنة أوروبا انطلاقا من هذه الفكرة السفسطائية، و تزيد سعادة هذا الشاب العربي المهاجر الحامل للثقافة و العلم عندما يجد أوروبا تمنح له كامل الحرية في الإقامة و العمل متجاهلا أن أوروبا نفسها هي التي ترفض أعطاء حرية التنقل و الإقامة لشباب عربي آخر كل همه التنعم بظلال أوروبا الحضارية، لا لشيء إلا أنهم لا يعدونها بمستقبل واعد في العلم والخدمات الاستغلالية .

وهنا يبرز الفرق الشاسع بين الحرية والتظاهر بالحرية، فالأولى كما بينا سابقا ذات معنى نبيل، يخدم البشرية و الإنسانية و مفتاح من مفاتيح الخير و لكن في عصرنا استبدل بالمعنى الثاني المتمثل في التظاهر بالحرية بغية تحقيق مصالح ضيقة تلك القابعة و راء هذا الوجه الحر المجمل.

و في هذا المجال، و بانتقال معنى الحرية إلى التظاهر بها نجده مطابقا لقصة البابا و المذنب كما حدث ذات يوم، أتى رجل إلى الكنيسة و شرع في التوسل إلى البابا طالبا منه التوسط له مع الرب لكي يغفر

له هذا الأخير خطيئة تضييعه لإيمانه، فما كان جواب البابا لهذا الفرد المخلص سوى أن نصحه بقوله:"تظاهر بالإيمان".
و من هنا يمكننا القول أن عصرنا هذا أفرز طبقتين من البشر، الأولى حرة تعيش في ترف مادي و معنوي و حرية معرفية و فكرية و فيزيائية و بيولوجية اكتسبها من استعمار وسلب حرية الطبقة الثانية التي أوهمتها بالحرية و العدل و المساواة في الحقوق و الواجبات و غيرها من الشعارات البراقة مما جعل الطبقة الثانية أسيرة الأفكار التي تستوردها و قد يسأل سائل عن ماهية الطبقة الأولى السيدة و ماهية الطبقة الثانية الأسيرة؟
إن الطبقة الأولى في نظرنا هي قليلة بالنسبة لهذا العالم الفسيح، فهي لا تتجاوز 9% من سكان الإمبراطورية العظيمة.
تغلغلوا في مراكز صنع القرار و تحكموا في توجه السياسات وتدفق المعلومات، فأحكموا السيطرة على باقي أفراد العالم مما جعل تلك 9% تبلغ الحرية المطلقة، فبإشارة منها تقتل أقوام و بإشارة أخرى تحرم شعوب من المياه، و بفكرة من أفكارها تسوق شعوبا بأكملها على طريقة راع البقر في دالاس بتكساس.
هذا هو عصر الحرية الخرافية الذي نعيشه و إن أكبر مأساة تجول في خاطري، هو انتمائي للطبقة المستعبَدة الأسيرة في وهم الحرية المغلوطة. فإننا اليوم أمام حقيقة واحدة بدأت تظهر جليا، وهي إما أن نكافح من أجل بلوغ حريتنا الكاملة من هذا النظام الاستبدادي الجديد أو نلقي بأسلحتنا قبل بداية المعركة كما فعل كثيرون قبلنا.
فقد حانت لحظة الاختيار و إني لأميل إلى القول القائل:<< إما أعيش مبتسما راضيا حرا أو أموت و أنا أصرخ >>

****

مشاعر ربّان القارب الحجري

الإنسان، مخلوق يذرف الدمع حينا، و يرسم الابتسامة أحيانا أخرى، و هذا لا ينقص من إنسانيته شيء، بل على العكس، يزيد من شاعريته المفرطة، و المتخذة من القلب و الجوارح فرقة موسيقية، مكتملة الأعضاء و التجهيزات، عازفة بذلك أجمل و أعذب المقاطع، أين تتجلى أبهى صور امتزاج المادة بالمشاعر، و أين يجد البشري نقطة يلاقي بطرفيها الشهوة بالعقلانية، فيضبط المسار، و يغرد في ساحة السمو و الآصال.
من الواضح تماما أنّ المشاعر كيان مميّز لدراسة قيمة ألفة الجسد من الداخل، على شرط أن ندرسه كوحدة و بكل اتجاهاته و مؤثراته، إضافة إلى تأثيراته. و أن نسعى إلى دمج كل القيم بالقيمة الأسمى، التي تمثل الوحدة الأساسية.
الإحساس هو ركننا في العالم، إنه كما قيل مرارا، "كوننا الأوّل"، كون حقيقيّ بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فلو درسنا بدايات الإحساس كظواهر عاطفية، فإنها سوف تعطينا الدليل الملموس لقيم الجسد المسكون، للأنا الذي يغلف الأنا و يحميه.
إنّ الشعور و لو من طرف واحد بالطمأنينة للطرف الثاني، هو من أهمّ العوامل التي تدمج أفكار و ذكريات و أحلام الإنسانية. و مبدأ هذا الدمج و أساسه هو أحلام اليقظة.

في حياة الإنسان تأثر على الإحساس عوامل المفاجأة، و تخلق الاستمرارية، و لهذا فبدون المشاعر يصبح الإنسان كائنا مفتتا. إنه الإحساس من يحفظه عبر عواصف الضياع و أهوال الـزوال.
الإحساس نابع من الروح، و هو عالم الإنسان الأوّل. قبل أنّ "يُقذف الإنسان في العالم"، كما يدّعي بعض الفلاسفة الميتافيزيقيين، فإنه يجد مكانه في مهد الإحساس. و أية ميتافيزيقا دقيقة لا تستطيع إهمال هذه الحقيقة البسيطة، لأنها قيمة هامة، نعود إليها دائما في أحلام يقظتنا. الوجود أصبح الآن قيمة. الحياة تبدأ فسيحة، محمية، دافئة في صدر كل إنسان بإحساسه الدافق.
إنّ الفلسفة التي تنطلق من لحظة "إلقاء الإنسان في العالم" هي فلسفة زائدة. إنها تقفز من فوق الأولويات، و تلك حين كان الإنسان منخرطا في الهناءة، و حين كانت الهناءة ترتبط بالوجود.
فلشرح ميتافيزيقا الوعي يجب انتظار التجارب الإنسانية، حين يُلقى الفرد في العالم، خارج الإحساس أو الشعور بالآخر، و هو وضع تحتشد فيه عداوة البشر والكون.
و لكن الميتافيزيقا الكاملة، المحتوية على الوعي و اللاوعي تُبقي قيمتها في داخلها. في داخل الوجود، في وجود الداخل، فيغلف الدفء الوجود.
و عليه فالوجود يحكم نوعا من الجنة الأرضية، تذوب في متع الحياة الكفوءة. و كأنّ الإنسان في هذه الجنة المادية ينغمس في غذاء واف، و قد منح كلّ المزايا الجوهرية. فحين نلمس الإحساس الذي ولد فينا، أو نظهره للآخرين، و بينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى، ننخرط في ذلك الدفء الأصليّ، في تلك المادة لفردوسنا المعنوي. هذا هو المناخ الذي يعيشه الإنسان المحميّ في داخله، و لو عدنا للملامح الجنينية للإحساس، فسأؤكد مجددا، على ترجمة وجود الإحساس بأحلام يقظة تقودنا إليه.
في بعض الأحيان نعتقد أننا نعرف أنفسنا من خلال الإيمان، في حين أنّ كل ما نعرفه هو تتابع صور همجية في أماكن استقرار الكائن الإنساني، الذي يرفض الذوبان، و يمسك حتى بالماضي، حين يبدأ البحث في أحداث سابقة، و هو يحاول أن يمسك بحركة الزمان.
إنّ الإحساس موجود في مقصورته المغلقة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مكثفا، مكتمل الصور و التفاصيل. هذا هو دور الإحساس.
و حتى نتبيّن مدى ارتباطنا بمشاعرنا التي ولدت في أجوافنا، يساعدنا الحلم أكثر من الفكر. إنّ قوّة لا وعينا هي التي تبلور أبعاد ذكرياتنا، فعلى مستوى حلم اليقظة، لا الواقع، يظلّ حبنا حيا، نافعا شاعريا في داخلنا. و من خلال هذا الإحساس الدائم نحتفظ بشعر الماضي. فتشكل المشاعر مجموعة من الصور التي تعطي الإنسانية براهين أو أوهام التوازن، و الواقع أننا نستطيع مقابلة عقلانية الشعور بعلّة وجوده على الفور، كأنه يحمي الإنسان من فقر الذات.فعند المسيحيين نجد الراهب يقف وحيدا أمام الصليب، و لهذا فإنّها أسمى صور العزلة المركّزة، كون خارج الكون.
و عليه فالذات لا تستطيع أن تستفيد من ثروات هذا العَالم، إنها تمتلك هناءة الفقر المدقع، و الحق أنها إحدى أمجاد الفقر، فكلما ازداد الحرمان ازددنا اقترابا من صورة الملجأ المطلق.
آه لو يسرح إنسان بمخيلته فيرى سجين الشتاء مستعينا بالحس المثالي، الذي يثيره الأفيون، و منه المشهد لكوخ صغير بمنطقة صبرة أليس صحيحا أنّ الإحساس المرهف يجعل الشتاء أكثر شاعرية، و أنّ الشتاء يضفي مزيدا من الشعر على روح الإنسان؟ كان الكوخ الأبيض مبنيا على طرف الوادي الصغير، و محصورا بجبال عالية، و بدا ملفوفا بالشجيرات. نشعر حينها أننا نعيش في الجوهر الذي يحمينا. بذلك الإحساس المتولد عن تخيّل الوادي، إننا نحن أيضا نلتفّ ببطانية الشتاء. فنشعر بدفء مخيّلتنا لأنّ الخارج بارد، و بعد هذا يعلن بودلير أنّ الحالمين يحبون الشتاء القاسي بحيث يقول:

"...إنهم في كل عام يتضرعون إلى السماء، أن ترسل أقسى ما تستطيع من الثلج و البرد و الجليد. ما يريدونه حقا هو شتاء كندي أو روسي، لأنه بهذا تصبح أعشاشهم أكثر دفئا و نعومة، تصبح محبوبة أكثر...".

فالمشاعر بالنسبة للجسد كالثياب بالنسبة للخزانة، و هنا يمكننا التمييز بين الحاوي و المحتوى، بالإضافة إلى التفريق بين القيمتين المنفصلتين باطنيا، الظاهرتين حسيا أو ماديا، فكما يقول رامبو: "...الخزانة ليس لها مفاتيح!...ليس للخزانة الكبيرة مفاتيح. كثيرا ما كنا نطالع بابها البني الأسود بلا مفاتيح!... كان ذلك غريبا!مرات كثيرة حلمنا بالخبايا التي تكمن بين أجنحتها الخشبية، و اعتقدنا أننا سمعنا في عمق القفل الفاغر صوتا بعيدا، و همهمة مبهمة مرحة...".

حين نمنح الأشياء المودة التي تستحقها، فإننا لا نفتح خزانة دون إجفالة بسيطة. فخلف خشبها الخمري اللون، تكون الخزانة لوزة بيضاء جدًا، حين نفتحها نعيش تجربة البياض.

إنّ علب الجواهر، هذه التحف المعقدة التي أبدعها حرفيون مهرة، هي دلائل شديدة الوضوح على الحاجة للسرية، و على الحاسة الحدسية لأماكن الإخفاء. أمّا القفل فهو عتبة سيكولوجية.

تحتوي العلبة على أشياء لا تنسى بالنسبة لنا، بالنسبة لمن سوف نمنحهم كنوزنا. هنا يتكثف الماضي و الحاضر و المستقبل...فالعلبة هي ذكرى ما لا تعيه الذاكرة من الزمن. إذا كان هناك مجوهرات و أحجار كريمة في العلبة، فالإنسان يندفع إلى خلق رومانسية، لأنّ هذه الجواهر هي الماضي، الماضي البعيد، ماض يخترق الأجيال. فالجواهر سوف تتحدث عن الحب. بالطبع، و لكنها سوف تتحدث أيضا عن القوّة و القدر، و كلّ هذا أعظم بكثير من القفل و المفتاح!

بمجرد فتح العلبة ينتهي الجدل تماما. يلغي الخارج بضربة واحدة، و يسود جوّ من الجدّ و الدهشة، فلا يعود للخارج معنى. و حتى الأبعاد تفقد معناها، و ذلك لأنّ بعدا جديدا، هو بعد الألفة قد انفتح للتو.

فالخيال يزيد في حدّة حواسنا. إنّ انبعاث الخيال من موقعه، يؤسس للاستجابات الفورية المشكلة للانتباه. إنّ النشاط السريّ يمرّ دون انقطاع، من الإنسان الذي يخفي الأشياء، إلى الإنسان الذي يخفي الذات.

و هكذا حين أسمع في غرفتي في صبرة، جارا يدقّ مسمارا في وقت غير مناسب، فإنني أحيّد هذا الصوت، بأن أتصور نفسي في جنة الضباب، و أحوّل الدقّ إلى صوت القرع في الحديقة. بهذه الوسيلة أعيد الهدوء إلى نفسي.

و لهذا فإننا حين نعايش وضعا إنسانيا متأزما، نضع أنفسنا في المنبع الذي تنبثق عنه الثقة بالعالم، نتلقى بداية الثقة، و دافعا نحو الثقة الكونية.

فالحياة كلها في بذرتها الأولى هناءة. الوجود يبدأ بهناءة الوجود، حين يتأمل الفيلسوف مصاعب الإنسان و شقاه، فهو يبدأ في تأمل موضوع وجوده في إطار الوجود الهادئ للعالم.

شعور الإنسانية، مثل عالمها، لا ينتهي أبدا، فالخيال يساعدنا على المواصلة، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن صورة عظيمة كهذه، و لنكون أدق، إنّ صورة كهذه لا تتخلى عن إنسانها، فقد كتب باسترناك يقول: " ... الإنسان بذاته أخرس، و الصورة هي التي تتكلم. لأنه من الواضح أنّ الصورة وحدها هي التي تستطيع أن تجاري الطبيعة ... ".

و هنا نخلص إلى الإنسان كإنسان، إنه وحيد و غير وحيد، اجتماعي و غير ذلك، و لهذا فإنّ من الطبيعي أنّ الحياة المنشئة للأشكال، قادرة على خلق الأشكال الحية.

و مرة أخرى، إنه الإنسان، يحلم حلم اليقظة، فيدرك أنّ الشكل هو بيت الحياة، كما قال شاربونيه لاسيه: " ...كانت المحارة بقوقعتها الصلبة، و الحيوان بداخلها الذي هي رمز القدماء إلى الإنسان روحا و جسدا. لقد استعمل القدماء القوقعة كرمز للجسد الإنساني الذي يحيط الروح بغلاف خارجي، بينما الروح هي التي تنشط الجسد كله تتمثل بالرخوية. لهذا قالوا إنّ الجسد يموت عندما تغادره الروح، مثل القوقعة التي تتوقف عن الحركة عندما يغادرها الحيوان الذي يعيش في داخلها ...".
فأحيانا تكون الصورة سلبية، لا تكاد تظهر، و لكنها على الرغم من ذلك مؤثرة، إنها تعبر عن عزلة الإنسان المنطوي على نفسه. و في أحيان أخرى تكتسب الصورة قوتها من تماثل كل أمكنة الراحة، فيصبح كل فراغ أليف قوقعة هادئة.
و أخيرا يا عرب، يا أركان الأمة الوسطى، كونوا إنسانيين قبل أن تكونوا أناسا، كونوا شاعريين قبل أن تهاجموا الشعراء و الفلاسفة، فإنسانية الإنسان في قدرته على الإفصاح عن مشاعره التي تختلج صدره الرحيم، و مكمن هشاشة العاطفة هو شوق الوجدان للمادة البائسة.

****

من سيلاحظ؟

سؤال بسيط يحتاج إلى إجابة صريحة، واضحة، بعد إيضاحه للمتلقي له و الذي وصله في غلاف معبر، و معتبر جدا.
هذا السؤال يعني الكثير، و يتفرع إلى عدة أسئلة، هي في حد ذاتها عدة أجزاء منه. تتراص لتجعل منه وحدة عضوية تدل على غايتها، باستدراج السمع ناحية عدة معاني، لكن يبقي دائرة الفهم ضمن نطاق متساوي البعد من نقطة الوصول إلى إجمالية المعنى المتذوق من قبل المجيب، إما على رواق الإيعاز، و الإدراك السليم، و إما على ناحية الإجبار و الإدراك المغصوب. و منه من يلاحظ؟ ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما: من؟ و يلاحظ؟
فلو تأملنا في كلمة من؟ لوجدناه لغويا حرفا يفيد الاستفهام، أي يحدد للجملة قالبا عاما يحتوي في طياته أنساق، و مكونات عناصره اللغوية. و الذي هو مزيج يرغم المستقبل له، و يحفزه على أقل تقدير، لإبداء رأي أو تكوين إجابة ليست بالضرورة في مصب الموضوع، أو تخدمه على نحو ما. و إنما تمثل رد فعل عن منبه نابع من حرف من؟ و التي توجه تلك الإجابة إلى الدلالة آليا على اسم شخص، أو إنسان، أو كائن بشري، على وجه التحديد. لدى استعملها النبطيون العرب، من أجل الاستفهام على موقع الفاعل في الجملة الفعلية العادية منها، و المركبة. هذا من ناحية من؟ أما من جهة تلاحظ؟ فهي كلمة مكونة من خمسة أحرف، تجتمع في شكل متصل، و متحد، لإعطاء المراد لها. و الذي هو عبارة عن كوكتال من الأفكار، و الدلالات المختلفة، باختلاف موقع، و اتجاه، و غاية ورود الموضوع، و إلزاميته على نحو استدلالي، يكره المجيب عليه بطريقة ضمنية خالية من عيوب الاستنطاق الفاضح.
و بجمع الحرف "من" و كلمة "تلاحظ" ينتج عن ذلك سؤالا هو على النحو التالـــي: من يلاحظ؟

و قبل الشروع في استصدار إجابات عن هذا السؤال، كان يجدر بنا جمع دلالات السؤال أولا، و تحليلها. و هذا يقودنا إلى طرح أسئلة فرعية تحمل في سويداء قلبها أجزاء توضيحية لعلنا بهذا نصل إلى رد شاف.

و بالاعتماد على ما سبق فـ"من" دورها المنوط بها واضح، و هي جعل الجواب ينحصر في شخص بعينه. أما "تلاحظ" هي من تجمع خيوط المعاني، لتصنع منها حبلا يوصل إلى قمة هرم الإجابة، وذلك لأن مصدرها الملاحظة. و لهذه الأخيرة عدة أوجه، فقد تكون ملاحظة علمية، قائمة على إمعان النظر في الظواهر، قصد كشف سيرناها، و التعجيل بالتحكم فيها، بطريقة ايجابية، تعود بالخير على البشرية. و قد تكون ملاحظة عامية، حول موضوع ما، مما يكسبها طابعا اجتماعيا صرفا، في جوهره محاولة للتسيد، أو التحكم بمرجعيات أمور، تبدوا مصدر سلطة. و نلمس أيضا الملاحظة العابرة، و التي تكون ظرفية بظرفية المواقف، و المهمات... و غيرها من الملاحظات التي تتعدد، و تتنوع، و تقسم على المجالات، و الميادين، و المواضيع.

هذا كله لا يمكن فهمه قبل القرن الواحد والعشرين، فلكل زمن خصائصه، و مميزاته. لكن تبقى أحداث هذا القرن هي الأغرب، و الأعجب، و الأشمل على الإطلاق. فنحن كقوم يعيش وسط هذه المتاهة، التي تتعرج بتعرج الدقائق، و الثواني لم يعد حتى اسم "قوم" مناسب لنا. فقد تفككنا بشكل مدهش، فصار كل فرد يعيش حياته الخاصة، وفق مبادئه التي يؤمن بها وحده، و الذي هو واضعها، و السائر على هداها. فهذا التفكك و وفق صيرورته التاريخية، بدأ مع رنيه ديكارت، حين ناد بعدم ثبات المسلمات الرياضية، و دعا إلى التوافق على المتحرك لجعله ثابت في نظر المتفقين عليه.

هذا التفكك الذي وضع أساسه الفيلسوف رنيه، انتشر، و تعددت صوره حتى عم جميع مفاصل الحياة. بل و تعدى إلى أكثر من هذا، حين خرج عن السيطرة. فاتحا بذلك الباب على مجمل التخمينات، و التي تحولت إلى علم يدعى علم الاحتمالات.فكان للاحتمالات ما أرادت من نصيب في إدارة مستقبل الإنسان.

هذا الإنسان الذي أصبح يسيطر عليه الخوف الفوبي، في كل تصرفاته، و أفكاره، و معطياته، و خططه، أصبح بهذا الضغط الهائل للمتغيرات التي تزداد سرعة. بين المستقبل المجهول و الماضي المأسور.

و لـَكِــنْ:

من لاحظ؟ و من يلاحظ؟ و من سيلاحظ؟

من سيلاحظ أن الأرض التي نسكنها خربت بتبريرات واهية؟ و من سيلاحظ أن أحفادنا سيسكنون قببا من الفوضى؟ من سيلاحظ أننا استسلمنا للأسياد؟ و من سيلاحظ أننا بعنا أنفسنا و بإرادتنا؟

من سيلاحظ أننا صرنا طيورا خرساء؟ من سيلاحظ أننا صرنا آلات حمقاء؟ من و آلف من؟

و من لاحظ أننا نخنق أفكارنا قبل ولادتها؟ و من يلاحظ أننا تعبنا قبل العمل؟ و يلاحظ أننا أسرنا قبل تحررنا؟ و من يلاحظ أننا مغلوبون على أمرنا؟ و من يلاحظ أننا نتبع طريقا لا نهاية له؟ و من يلاحظ أننا أضعنا خاتم سليمان بين أكوام القش البالية؟ و من يلاحظ أننا نسير عكس التيار الحضاري؟

و من يلاحظ أننا صرنا أشباه بشر؟

و من يلعن من؟ و من يقاتل من؟ و من يقتل من؟ و من يتسيد على من؟؟؟؟؟؟

إضافة إلى هذا من لاحظ أن الجبن تملكنا و من لاحظ أن ثروتنا سرقت؟ و من لاحظ أن طريقنا فجرت؟ و من لاحظ أن أماناتنا استنسخت؟ و من لاحظ أن الأوطان صعقت؟ و من لاحظ أننا لا نلاحظ؟
كل هذه الاستفهامات و أكثر مازالت تحتاج إلى إجابة، قد تكون واحدة، و قد تتعدد. لكننا على يقين، أن لا مفر من الواقع، و الذي لا يصلح إلا بالفكر المفكَر له، و الذي ينتج أفكار تفكير عميق. فلكل داء دواء، و هذا الدواء إن كان موجودا فعلى عاتقنا اكتشافه، و إن كان غير موجود فعلى أرقابنا اختراعه. فالمريض لا يشفى بالدعاء فقط، كذلك الأمم لا تمسك بعروة الحضارة بالخطابات، و الأماني. فلكل أمة رجالها، و الرجال نوعان: رجال أقوال يهيمون في مخيال الخيال الواسع، المخطئ، و الخاطئ. و رجال الأفعال، الذين يسطرون جمل التاريخ، في فقرات على قشور الصخر، اعتمادا على سيوفهم المعرفية.
فصحيح أن الكون لله وحده، و هو ضابطه، و منظمه، ليسير وفق مشيئته، جل، وعلى. و لكن الإنسان خليفة الخالق في الأرض. و من هنا ينصب على عاتق هذا المخلوق، التمركز في موقعه، و الذي يؤهله للقيادة، و الزعامة، التي تقبع في أحشائه، مما يجعلها هدف شرعي، و طبيعي، في مدار الحياة، و ثبات الفناء.
في الأخير ما يسعنا ذكره هو قول أحد القتلة، و هو على مشارف الموت، مخاطبا أحد أصدقائه، بمترو لوس أنجلس الأميركية، التي تضم أكثر من 17 مليون نسمة. فقال:"أحدهم استقل القطار ومات، من سيلاحظ!!!؟".

****

نحن هم نحن

في فترات زمنية متقطعة، يأخذ ابن آدم فسحة للتفكير، يراجع النفس، ينبش في قبور الماضي، ويفتح نافذة الغد، الذي يتمنى نفس المخلوق أن يسير على المنحى المرغوب فيه، إنها عجائب الإنسان، و طبيعته الغريبة.
و في عالم اليوم، و كأي وقت مضى، مازال نفس البشر يسيرون على نفس المنوال، محاولين التحكم في عوامل شتى، تعددت بتنوع الظروف و المؤثرات. إنّ إنسان عصرنا لا يختلف عن إنسان عصور مضت، و أكبر مجال للاشتراك، هو مجال الحيرة. نعم! إننا حائرون، ضائعون، لا نعرف أين السبيل لبلوغ ما وجدنا من أجله. بل إننّا أحيانا لا نعرف حتى القصد من وجودنا، فالموجود في الوجود لا يفقه أسباب الوجود في الموجود. هذا هو حالنا الذي نأمل أن يتغير نحو السليم من المواقع.
و من هنا تعددت الأبحاث و تشعبت الأقوال و الاعتقادات، فهناك من ذهب يبحث عن نفسه بين أعماق الكون، و هناك من بحث عنها بين الكتب السماوية، و هناك من لم يقرر بعد. و عليه و اعتمادا على ما تقدم في الموضوع نجد أنفسنا أمام ما يلي:
أين نحن؟ و إلى أين نتجه؟ و ما السبيل لبلوغ ماهية أهدافنا؟
أسئلة عديدة، سهلة النطق، معقدة الفهم، و صعبة الإجابة. إنّ البشري يعيش دائما بين التيارات المتفاوتة في القوّة، و المتنوعة في الاتجاه، و المعرضة للتصادم و الانشطار قبل الالتئام. فنحن الآن

ندرك حقيقة واحدة، تكمن في أننا ما أدركنا، و لم ندرك بعد، و من الصعب تثبيت إدراكنا أننا لن ندرك في المستقبل أشياء مشتركة، رغم أنها تبدوا كذلك، فلقد تملكنا يقين الشك، و تبعنا طرق المتاهة بحثا عن مشكلة الحل.

هذا هو حال الدنيا البشرية، بالغة التعقيد، تقتات على تناقضها، تشرب من منبع مشاكلها، لبلوغ مشاكل أخرى هي بالنسبة لها بمقام الأدوية الواقية من مرض الشفاء.

فمصيبتنا في عافيتنا، و هذا هو مبدأ اتحاد اختلافنا حول تعدد المرجعية الواحدة، مما ولّد عدّة تفاعلات أدّت معظمها إلى انفعالات غيّبت العقل و الوعي، و طمست الإرادة، فمراتب الإنسان اختلت، بين ما هو جار، و ما هو مثبت على انهيار موقوت، كراعي الغنم في ليلة ظلماء، و في غابة "بوغار"، لكن مشكلته أنّه يحاول التخلص من رعيته بشرعية المحافظة عليها، أين تتجلى عقد الإنسان المختفية بين جنيات وضوح الصور، و قسوة الحق.

فالبشر ها هنا على الأرض، و كل فرد له روح، لا نستطيع الحكم على طبيعتها، و مع ذلك نجد الطبقات بين المجموعة الواحدة، و نجد الأصناف بين أفراد الصنف الواحد، و نجدّ في البحث في التعدد و العضوية واحدة، كمجنون يرى كل الناس مجانين، حتى ضاع مفهوم الجنون، و قصرت أعمار الأحياء بطولها، هذا كله نحن، و نحن هذا كله.

و عن وجهتنا لا يسعنا إلاّ محاولة التعرف على منبتنا، لنطال طموحنا. إننا آتون من مصادر لا نفهم مصادرها هي، مقدمون على عناوين نجهل أصحابها، سائرون على طرق لا نحتفظ بأسمائها و لا نملك مخططاتها. المهم أننا نسير و كفى، فنحن لا يهمنا مكان السير بقدر السير في حدّ ذاته، لا يهمنا أننا ضائعون بقدر ضياعنا بين ما هو مهمّ بالنسبة لنا، حتى توقفنا نراه سيرا، هذه هي وضعيتنا باتجاه أهدافنا، فنحن قادمون من المجهول، و نعيش في المجهول، و متجهون نحو المجهول الذي لا يبدوا أنه مجهولا بالنسبة لنا.

في أزمنة غابرة سمعت الإنسانية نداء يونانيّ قائلا: "اعرف نفسك بنفسك" فكافأته بتجريعه السمّ قبل المغيب أمام الجماهير، و لكن ألا يبدوا هذا غريبا؟

طبعا إنه غريب، و تكمن غرابته في انسجامه المتناقض، إنسان أشفق على الإنسانية، فحاول تخليصها من نسيانتها و قيادتها نحو أنسنتها، فدفع حياته ثمنا لذلك، أراد أن يخلص أرواح الأجساد العفنة من عفنها فسلبوه روحه. هذه هي حالنا، فكثرة بحثنا هو سبب أصلا، وعليه يقول رالف والدو أمرسون: "كل ما يوجد أمامنا، و كل ما يوجد في غير متناولنا، شيء بسيط جدّا للغاية، إذا ما قورن بما يوجد في أنفسنا..".[1]

في الأخير نستنتج أننا لا نعرف أنفسنا، و ما علينا إلاّ تهذيبها قبل فقدان السيطرة عليها، فبصلاح الجزئيات تصلح الكليات، و بصلاح الأنفس تصلح الأفئدة التي بتراصها تستقيم الأمم.

****

[1]: الدكتور ابراهيم الفقي، البرمجة اللغوية العصبية، جمهورية مصر العربية – القاهرة، ص 31.

ورود المجتمع الجميلة و القاتلة

إنّ الإنسان بطبعه اجتماعي محض، هذا ما تعارفنا على ترديده، و هذا ما تؤكده النظرة الملقاة على المجتمعات، بحيث يستحيل أو يكاد نحو ذلك أن يعيش الإنسان وحده، على طريقة مستر ولسن، لكن هذا الكائن العاقل، و منذ وجوده عرف تقلبات و أعاصير عصفت بعلاقاته المتدحرجة، على منحدر الروابط و المعاملات المتعددة تعدد ألوان ريش الطاووس المتأنق.

و عليه و بناء على ما تقدم، نطرح السؤال التالي: ما هي العلاقة؟ و ما هي أنواعها؟ و ما دورها في بناء و تماسك المجتمعات؟

العلاقة هي اتفاق يقوم بوصل فرديْن على الأقل، قصد حصول التبادل على سبيل تحقيق الصيغة البارزة، أو لهدف تجسيد المبيّت، و هذا تحت مظلة الحاجة، مزيّنة بالتضامن و التكافل الاجتماعي.

و بذلك و ككل أواصر المودة و المحبة، فللعلاقات أنواع كثيرة، تجتمع على هيئة حزم، مشكلة بهذه العملية اللطيفة حزمتيْن رئيسيتيْن.

أولاهما العلاقات الأفقية أو العلاقات الخطية، و هي تلك العقود المضمرة أو الظاهرة و الدائرة بين الأفراد و الجماعات في المجتمع الواحد، بتدخل أو عدمه من طرف عناصر أو وحدات اجتماعية أخرى أجنبية، وفق تمايز المسطر له من قبل النوايا، بحيث يتحكم فيها الجنس و الدين، و التقاليد، و الأعراف، و الإيديولوجيات، و القوميات، و المصالح، و الأهداف المشتركة، أو الغير مشتركة، في الاتجاهيْن المتوازيين أو المتعاكسيْن، و خلال فترة محددة مهما كانت طويلة.

و منه يتبيّن لنا كل النتائج، الحاصلة أو التي وقعت كخلاصة لأحداث تميّز بها مجتمعنا، و مدى تأثيرها على الجانب الإنساني أو الحياة العادية للأمّة.

ناهيك عن ما قد يتضح أيضا من أسباب للتكتلات القومية، و التي بدأت بالأقوام و العشائر، وصولا إلى القبائل و العروش، و ما لحق ذلك من انعكاسات، على الخرائط السوسيوتاريخية بواسطة المد السياسي الجارف.

و من ما سبق يمكننا أن نستنتج مدى وقع تأثير هذه العلاقات على المستقبل خاصة إن أديرت بمناهج، و عقليات خاصة، غرضها المحاباة، و الابتزاز، و صنع المجد مهما كانت الوسائل.

فإنّ تركيب العلاقات الأفقية و تمازجها خاضع للقالب العام، و المدى الأقصى المحدد للتوجه، و الانسياق العملي ناحية نقطة تبدوا عظيمة، و هذه التراكيب قد تجعل من مستوى التناقض الممكن، و لو في درجاته الدنيا، سببا لإحباط و تقهقر عوالم الأمة بأكملها، فتزيغ عن طريقها و تتبنى طرقا أخرى، أسهلها هو طريق الفناء المعنوي، و الذي يعتبر لقيطا بالنسبة لأحلام البشر.

مما توجب على كل مجتمع الحرص كل الحرص، من إفرازات العلاقات و الروابط، وذلك لا يتم حسب كثيرين إلا بتجنب التصادم، خاصة في البديهيات، أو المسلمات، أو المبادئ، تحت غطاء التنوع الثقافي و العقائدي، و إلى ذلك من أقسام الاختلاف على أنّه اختلاف و تميّز، بوجوب مراعاة التعايش معه هو الخطوة الأولى نحو بناء علاقات سليمة بين الأفراد، قائمة على إرسال الودّ و استقباله، و منه فإنّ الذي يخالف الفرد في دينه و لغته و أحاسيسه و أهدافه، لا يمكن أن يصنف في خانة الأعداء، لا لشيء إلاّ أنّ طبيعته تختلف عنّا، و يجب التأقلم معها للحفاظ على حيّز مشترك، يمكن اعتماده ملاذا آمنا، يوفر للمختلفين سببا للعيش بتناغم، وهذا التناسق، لا نجد له طريقا إلاّ إذا قبلنا بعدم فرض فكرنا، أو أفكارنا على من هم لا يرغبون بها، أو الذين يحملون من يناقضها بدون جرح أو تجريح.

فصلابة العلاقات الخطية من صلابة قبولنا، و استسلامنا أمام ثبات ضرورة الإمساك بأوجه التشابه، لا الاختلاف الذي يجب علينا تناسيه في أسوء الحالات. و إنّ تحقق هذا الانصهار الثقافي لا يتمّ إلاّ إذا لجأنا إلى التخلي عن بعض الثوابت، أو أطرافا من هذه الأخيرة، حتى و لو كانت حساسة في نظر المجتمع، كالدين و اللغة التي يعتبرها الكثيرين من قوام الهوية الغير قابلة للنقاش، أو غير ذلك من استعمالات، تغطى بتزمت الأقليات و تشددهم، مما يولد الاضطهاد الذي يفضي إلى الإقصاء. بالنسبة لفئة على حساب فئة أخرى في نفس الجماعة أو التجمع، و كخلاصة آية تؤدي إلى القتال أو الاقتتال، و بالتالي الانفصال، و إلغاء الكليات الاجتماعية، بإثارة النعرة و الحساسيات المهلكة لأصحابها قبل الآخرين، و في الأخير يحدث التشتت و الابتعاد عن صور المجتمع الأساسية.

هذا من ناحية النوع الأوّل من العلاقات، أمّا بالنسبة للنوع الثاني من هذه الروابط فإنه خاص بالفرد كآحاد، و التي يصطلح عليها بالعلاقات العمودية، أو المنتصبة، و هي الخاصة بالإنسان الواحد كمخلوق، مع الله كخالق، و هذه العلاقة و في نظر جمهور الفقهاء يتم تناسقها بالتطعيم الدوري لصفائها. و المتمثل في العبادة الخالصة، وفق نظام عملي يقوم به العبد أو المتعبد، و على جدول زمني معين يبيّن طريقة القيام بالعبادة، و توقيتها و مدّتها الزمنية المستغرقة، و الذي يتم إعداده من قبل الإرادة الإلهية، و يستقبله الإنسان من الوسائط التي تتمثل في الملائكة و الرسل، و الأنبياء.

فهذا النوع من العلاقات لا يهمّ المجتمع بالدرجة الأولى رغم ضرورتها، و إنما يهمّ الفرد كذات و عنصر من الجماعة، باعتبار ارتياح هذا الفرد في جماعته ينعكس على زملائه في ذات الوحدة إيجابا، و يزيد من التماسك و الإسهام فيه.

و عموما يجب أن لا ننسى أننا من بني الإنسان قبل كلّ خطوة نقوم بها، و قدرنا الاستمتاع بحياتنا جنبا إلى جنب في إطار المجتمع المدني الضامن للحقوق و الكافل للواجبات، فكما قال أحدهم في نبذ التعصب و التشدد و الغلو المضر بالمجتمع: "لكي تقولب نمط الحياة عبر الأجيال، فإن الثقافة التقليدية تجرّد الأفراد من طاقاتهم، و تدمجهم في منظومة من التبعية الاجتماعية، و تعمل على إضعاف كل مؤسسة مؤهلة لجعلهم مستقلين، و ينتج عن هذا: أنّ الأفراد يجدون صعوبة ليصبحوا مواطنين و خاضعين للدولة..."[1]

****

المُقَاتِل

وتطلع الشمس على غياهب الأرض الحزينة، أين ترسل أشعتها عبر منافذ القلعة الكبيرة، ليصل ذلك النور إلى قلوب عطشى. قلوب لشدة قسوة الزمن عليها أضحت أقسى من سيف ولاس الأسطوري، و قلبي من ضمنها.

فكثير ما راودني في نفسي سؤاليْن، شغلا بالي، و عصرا أغشية مخي، و ذاكرتي. لعلي أجد إجابة لهما، تكون بمثابة بلسم شاف، لكن هيهات فليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

هل سيتذكر الناس كم قاتلنا بشجاعة؟ و هل سيتذكرون كم أحببنا من دون خوف؟

[1] MEDHAR Slimane - l'échec des systèmes politique en Algérie – ED chihab – Alger – 1999 – P 183.

عندما أحاول فك شفرة هذين الأطروحتين، لطالما أجد نفسي في حيرة، تقودني إلى حيرة أشد تعقيدا. و لبيان حيرتي، دعونا نستعرض بعض المحاولات، لإدراك المقنع من الإجابات. لهذين الصخرتين الجاثمتين على صدري.

أنا اليوم، وبعودتي إلى الماضي، أجد نفسي و منذ ولادتي مقاتلا شرسا. يصارع هذا الزمن، و متنقلا من معركة إلى أخرى، في ساحة الحياة. فقد رأيت النور في بلد ينخره التشوه يوما بعد يوم، حتى أصبح ذكرى بلد جميل.

ولادتي كانت عسيرة جدا، حتى استدعت نقل والدتي الشريفة، و التي لا تسعني الدنيا لرد فضلها علي، أو إظهار محبتي لها، إلى مستشفا ثان. أين دخلت هذا العالم، و أين أسمعت صرختي الأولى مسامع أمي النقية. تلك الصرخة هي التي كانت بمثابة إعلان، عن ولادة مقاتل جديد، يضاف إلى الجيش العتيد. لأن تلك الصرخة حملت معها عدة أحجيات غريبة، مازالت تلاحقني حتى حاضري هذا. كان أهمها إعلان سعادة أشرف مخلوقيْن، على وجه هذه البسيطة على الإطلاق في نظري، ألا وهما الوالدين الكريمين. لكن بالنسبة لي عنت تلك الصرخة أني دخلت أم المعارك، ألا وهي الدنيا.

و كأي إنسان ولد، و يولد، فقد ولدت على الفطرة، و حاولت قدر جهدي أن أكون فردا متفردا، لا منفردا. و قد ضحيت في سبيل هذا الاختيار تضحيات، لو رميت على الجبال لذابت، و لو سكبت على البحار لجفت، و لو ألقيت في الفضاء لأحرقت الشمس، والكواكب، و النجوم.

تضحيات جعلتني أكون شخصا عربي الدم، أوربي الانتماء، أمريكي الحلم، آسيوي العمل، فارسي التشدد. بالإضافة إلى اكتسابي صفات أخرى، كرومانية المصلحة، و مصرية الحديث. فكل هذا هو أنا، و كم أحب هذه الكلمة، كلمة أنا، تجعلني أحس أني موجود، ملاحظ، متأمل، باحثا عن حقيقة الحقائق، محاربا من أجل المبادئ. وهنا ليكن واضحا أني إنسان و كفى، و ما أريده هو أن أكون إنسانا، وذلك لأنني ولدت إنسان كأي بشري على وجه المعمورة.

فقد تربيت في عائلة محافظة على الدين، و تعيش الدنيا بعقل و تفهم. غرس والدي في فؤادي حب الله الواحد، و تقديمه على أي اعتبار. و لطالما ردد أن الابن الذي لا يحافظ على دينه، لا مكان له في العائلة. مما جعل مني مسلما بالوراثة، مؤديا للفرائض بالإجبار، و الذي تحول عندي إلى عادة، قبل أن يأخذ شكل القناعة. و هنا أشير بحزم أن الدين في اعتقادي مسألة شخصية، فالمسلم لا يشبه أخاه المسلم و لو استنسخ كالورق.

بعد هذا عرفني أبي، و الأصح أنه علمني حب الجزائر الصادق. بقوله أن الجزائر بلادنا، ضحى من أجلها أجدادنا، و لا توجد في الدنيا بلاد تقبل بنا سوى الجزائر. و اسمحوا لي في هذه النقطة أن أعبر عن عدم قناعتي بهذا المبدأ، لأني لا أؤمن بالأيديولوجيات و الأوطان. من منطلق أننا بشر و البشرية موطنها الأرض. فلما المعابر، و الحواجز، و التأشيرات بين بني البشر؟

و في هذه المرحلة أيضا، لم تتوان أمي أنصفها الله على رعايتي، فأعطتني من حنانها ما لم تجري به أنهار العالم من ماء، و التي لن تجري به في المستقبل. حتى جعل مني مدلل أمِه، و التي تعتبرني عزوتها، و قوتها، وسيفها الذي تهاجم به، إلى جانب درعها الذي تحتمي به من ضربات أعدائها.

هذه الرعاية تمثلت أساسا في النصح، و الإرشاد. كانت عبارة عن عِبَر تحكيها لي و أنا صغير، هذه العبر استخرجتها من تجاربها البسيطة بساطة حياتها، و بعضا منها استلهمتها من جدي رحمه الله، الذي كان و مازال بالنسبة لأمي، رمز المجد و الشرف و العفاف.

مما جعلني أنهم من عطفها، و الذي انعكس علي بتلك ألحنية المكتنزة في قلبي، و التي أحاول إخفاءها دون جدوى. من مبدأ أني مقاتل لا يرحم، هذه ألحنية على المظلوم، أو العاجز، أو الصبي،... و غيرهم.... كثيرا ما تجعلني أبكي عند تعرضي لمواقف، لا يجدر فيها بالمقاتل البكاء عند مواجهتها.
فيا أماه طبتي، و طاب الثرى من تحت قدميك الطاهرتين، لغرس هذه الصفة في أعماقي. و أني لشاهد أنك أديت الواجب، و جعلتني إنسانا رحيما بالضعفاء ما حييت. لكن أحيانا أتساءل، هل حناني من حنان أمي الحنون؟ و هل هذا هو سبب دموعي في كل صدمة عاطفية أتعرض إليها؟
أسئلة تضاف إلى عدة أسئلة أخرى أعجز عن فهمها، و تفسيرها. آه لو أنتزع قلبي لأخلصه من هذا العطف الزائد عن حده، و الذي أرغمني على الصفح عن الكثيرين ممن أجرموا في حقي، و الذين في نظري لا يستحقون الحياة، فما بال مسامحتهم و قبولهم كشركاء، في محيطي الذي يضيق بهم.
أعرف أن هذا الحل مستحيل، لكن طبيعتي كمقاتل تجعلني أبحث عن أساليب، و طرق أخرى، لانتزاع هذه الزيادة العاطفية. و أنا على يقين أني سأنجح، لأن هذا هو قدري.
أذكر هذه الصفة بالذات، كصفة اكتسبتها عن طريق أمي. لأعترف بجميلها أولا، و لأنها الحقيقة ثانيا، و هي أفضل و أجل و أسمى ما قدمته إلي.
بعد ذلك بدأت أكبر، و تكبر معي أحلامي، و التي تحولت مع مرور الزمن إلى طموحات. لكنها اصطدمت بجدار الواقع الصلب، و الذي شتتها كتشتت زبد الموج، عند ارتطام الموجة بحافة الميناء. فأمضيت مرحلة المراهقة و أنا كثير العبث، مستهترا بالظروف، مضيعا للفرص، مبتهجا للإخفاقات التي توانت علي من كل حد و صوب. فرحت أرفض النصائح، و أنسلخ من المبادئ، و أنازل الشرفاء، و أصاحب الأشقياء، لكن كل هذا لم يدم طويلا. فها أنا من جديد أثبت أني من عائلة عريقة، حيث أستيقظ استيقاظ المقاتل من نومه. و عدت أصارع وغى الحياة، و كأن أيام الهدنة قد ولت، و عادت طبول الحرب للزمجرة المعهودة.
حرب تطول، لكن أملي في إنهائها مازال قويا. فأنا من طينت الذين لا يستسلمون، فإما يموتون، أو ينتصرون. من سلالة أحفاد الأمير عبد القادر، و باربروس. فكيف لحفيد العمالقة أن يرمي منشفة الهزيمة؟ و هو في عز شبابه، و عنفوانه. و كما قيل قديما، لكل جواد كبوة. لكني أقول أن لكل مقاتل جرح، و جراح المقاتلين دواؤها الزمان، فدعوا الزمان يحدثكم عني. و بعد ذلك أحكموا علي، و أنـا راض بحكمكم.
فكما قال هكتور أمير طروادة، و هو يحمس جيشه:" ...طوال حياتي أحترم القانون و أتبع العادات و أعبد الآلهة، أحبوا زوجاتكم، و دافعوا عن وطنكم، طروادة هي موطننا، قاتلوا لأجلها...".
فإن أسقطنا ملامح شخصيتي على كلام هكتور، فإنني طوال حياتي أحترم دستور الدولة الجزائرية الديمقراطية الشعبية المستقلة. و أتبع عادات المجتمع الجزائري الحميدة منها، و الدنيئة. على سبيل الترغيب تارة، و الترهيب تارة أخرى. و ما أكثر العادات و الطقوس التي أمارسها، و أنا رافض لها في أعماقي. فأقوم بها كي لا أبدوا إنسانا معتوها، في نظر المقربين مني. و حياتي كلها لله الواحد الأحد، و كم أرتعد من عذابه، كلما مررت بمقبرة. أو شاهدت موكب جنازة أحد عباد الله، و هو متجه إلى منزله الأبدي. بالإضافة إلى حبي الشديد، و عشقي الذي لا حصر له بمفاتن بنات البلد. و خاصة حينما يلتزمن بالصدق، و الصراحة، و يظهرن أكبر قدر من النعومة، و اللطف. كما أني لم أنسى أقدس الأعمال، و هو الدفاع عن موطني بناجدي، و مخلبي، إما بالكلمات، و المناظرات. و إما بالكد، و العمل في بعض المرات. و لو اقتضى الأمر بالسلاح و القتال و المهمات. فلقد لبيت النداءات التي

وصلتني، و سألبي أي نداء آخر من منبتي، و جذوري، ما دمت أمشي فوق رمال شاطئ مرسى بن مهيدي كل صيف.
في الأخير، اليوم سأفصح لكم عن سر خطير، خبأته في قلبي الكبير، منذ دخولي الدنيا كأسير. هذا السر يكمن في هدفي من هذه الحياة، قد يضحك بعضكم منه، و يسخر آخر. و لكن أنا متأكد أن الأيام، ستبدد ضباب الأوهام، و تجعلني أرسوا على جزيرة المجد، و الشرف، و الخلود. فكما قال أخيل بطل ملحمة طروادة، و هو يحمس كتيبته لقتال الطرواديين:"...يا رجال، يا رفاق السلاح، سأقاتل إلى جانبكم عن ألف رجل، يجب أن لا ينسى أي أحد من نكون، نحن الأسود، أتعرفون ماذا ينتظركم؛ خلف ذلك الشاطئ يوجد الخلود و الشرف و هو لكم...".
شباب جيلي يطلبون مناصب عمل، و منزلا، وسيارة، و زوجة، و أولاد، و عيشة رفاهية. لكني أطلب الخلود، و إضافة اسمي في سجل الخالدين، و لكم هو هدف شاق المنال، لكنه ليس بمستحيل على مقاتل عنيد مثلي لم ينهكه الدهر بعد، ذلك الدهر الشاهد على سقوط الرجال، كأوراق الخريف بينما يحتفظ بأسمائهم، ليرتلها على مسامع الأجيال.

****

بيلاريس التفلسف

إنّ التفلسف حقيقة واقعة رغم انكارنا لها، و هروبنا منها، أو مجافاتنا لها، و معارضتها. وهذه العملية الطبيعية القابعة في أعماق البشر، و مازالت تحرك الأفراد و الشعوب، على سبيل الرغبة حينا، أو قصد بلوغ الأهداف أحيانا أخرى.
إنّ التفلسف يأخذ معناه من جمع أجزاء مختلفة تتراس لتعطي قالبا ضخما تصهر فيه من كل ايديولوجيا مبدأ متميزا عن الآخر، و منه للتبسيط فالتفلسف هو عملية سد فراغ التفكير، و رأب صدع العمليات الذهنية، لبلورة نتائج تبدوا صالحة إلى حد ما، فيصدقها القلب، و يقبلها الضمير الإنساني.
و هنا و بناء على ما تقدم نجد السؤال التالي:
ما أهمية التفلسف بالنسبة لنا نحن أبناء آدم؟
تكمن أهمية التفلسف في تعدد الحقائق، و اختلافها باختلاف مستقبليها، و استقبالهم لها، كما تدخل في مجالها أيضا مدى الرغبة و الحاجة اليها، مستعينين بالمناهج و الطرائق المتنوعة.
إننا نسلك طريقا مدججا بألغام سيكلوجية متعددة الاحجام و شدة الانفجار، فمنها المتعلق بالدين، و منها المتعلق بالسلطة، إضافة إلى الاجتماعي و الاخلاقي و فنون العيش الكثيرة.
فالإنسان المضطرب و العجيب من حيث التراكيب، بحاجة إلى التفلسف رغم أنه بمثابة ابن عاق له، فقد نجد فريقا من الباحثين ينكرون هذه العملية، و لكنهم يقومون بها على سبيل الحاجة لا الندية.
و هذه الحاجة جعلتهم يستبدلون اسم التفلسف بأسماء أخرى للعملية الواحدة في المنهج و الهدف و الطريقة المتبعة للوصول إلى النتائج المرغوب فيها. و من أشهر هذه الاسماء نجد تلك المتداولة بين سطور كتابات المواد العلمية، كالذكاء و البداهة، و طرق الخلاص. ناسين أو متناسين بذلك أن الفرق

في العمليات الذهنية يكمن في الطرق و الهدف و المبدأ، لا في الاسماء التي قد تعبر عن الجوهر من جهة، أو عن الاشكال من جهات معينة و مستنسخة في الآن معا.

إن تمايز الحقائق جعل الكائن المقدس يسعى للاهتمام ببعضها على حساب البعض الآخر، من جهة مبدأ عيش الواجب أن يكون بينما هناك قائلين بشد الانتباه إلى كل جوانب الحقيقة، كمصدر للتعدد و التثاقل و نبذ المسؤولية التي حملوها ما لا تطيق، بالمشاركة في تركتها الثقيلة على أكتاف الرجال قبل غيرهم.

إن التبريرات الاخلاقية و عدم الاعتراف بأسوأ الأخطاء المرتكبة في حق النفوس قبل كل شيء جريمة الجرائم، فهي موت معنوي يغتال الاحلام, و ثقافة الحياة. و لهذا ما على البشر إلا مصارحة هذه الذات المسكينة، الفقيرة معرفيا و إحساسيا و شعوريا.

و هنا نقف عند مصارحة النفس قبل مصالحتها، فالنفس تعطي من يعطيها، و تحمي من يحميها، و تصادق من يصدّق لغتها، و يفهم معانيها، إن البشري الذي يُصنف في خانة عديمي الضمير هو الإنسان الذي يعيش أوهام ذاته الغارقة في توازن الاقصاء بالترويح على ما فات بما لا يفيد، و هذا التوازن في أصله قائم على اللاتوازن، فهو يرتكز على أركان متحركة قابلة لدخول دائرة فقدان السيطرة على أنواع التوجس و النبض العادي للأفكار، المستوحاة من الوجود الموجد للوحدات المعروفة في أوساط زوايا أرواح العباد.

كما أننا نجد من يقاوم هذه العملية بما لا تستجديه المقاومة، أي أننا نجد أناسا يحاولون الهروب إلى الأمام من قيود حاضر لا يمكن تخطيها في أفضل الأحوال. و لهذا كان التفلسف ضروريا لحل عقد الأزمات و التي قد تجعل من مواقعها بدايات تحوّل لا مناص منه، بل أبعد من هذا. فالتفلسف يربي في كنفه فهما دقيقا بمجريات أسوأ الامور لتفادي وقوعها في مستقبل ليس بالقريب و لا بالبعيد، إنه مستقبل آت لا محال.

فلو تخيلنا هذا العالم بدون تفلسف فحتما سنرسم في مخيتنا، تلك الصورة لإنسان يحاكي الحيوان في طبيعة قاسية، لا ترحم مرتاديها في أبسط البسيط، بل و أبعد من هذا، فإن حتى نقد أو بالأحرى انتقاد التفلسف و الهجوم على الفلاسفة هو تفلسف في حد ذاته.

فالتفلسف لا يحل الأزمة فقط، فهو الذي يؤسس لها و يديرها، ثم به نحلها في مظهر نحن راضين عنه قبل حدوثه.

و عليه نجد التفلسف فلسفة كبيرة تقع على ساحل البحر المعرفي الأصيل، و حولها بساتين العلوم الكثيرة و مزارع التجارب متصلة.

و نتائجها فائضة و فيها جميع أنواع الحقائق. و هي أعرق الفلسفات الموجودة على ساحل البحر المعرفي، و أطيبها نتائجا و أحسنها قوانينا و قواعدا.

فيها العلم الذي يتميز بشدة حلاوته و نكهاته المختلفة، و فيها الفن الذي لا مثيل له. و تمتاز هذه العملية في وسطها بنقاشاتها العجيبة ذات الواجهات اللامعة الخلابة، و الاشكاليات الفاخرة التي توفر للفلاسفة كل أسباب الراحة، و النقد ذا الهندسة العجيبة.

و في خلاصتها يوجد معناها الكبير الذي يعج بحركة الأفكار القادمة و الذاهبة. و غير بعيد عنها ترسوا قوارب الحكايات التي تأتي بالخيرات الكثيرة من البحر الشعبي.

أما في الجانب الغربي منها توجد أقوال الحكماء الكثيرة، و لكل حكمة سوق، فهناك سوق المثاليين، و سوق الطبيعيين، و سوق اللاهوتيين و غيرها من الأسواق التي توفر للزائرين تحفا رائعة.

و قد كانت هذه العملية العقلية منذ الزمن القديم عملية يقين، و اشتهر كثير من أهلها بالصواب و السمو. فهي عملية تتطور كل يوم إلى الأحسن.
فكما ورد في مجلة لوغوس: "ليس لزماننا من شوق أعظم من رؤية الأصول الحقيقية تعبر عن نفسها أخيرا...".[1]

****

فردوس العرب و المسلمين المفقود

لو نظرنا إلى الأندلس لوجدناها بلاد خير أوّلا و أخيرا، بلاد تأخذ من كل النسمات عبقا، تخلطه و تزيد عليه نكهتها الخاصة، فتنتج نموذجا متميّزا لزائريها لا يقل عن النماذج العجيبة في أيّ شيء، و الزائر لهذه البقعة الطيبة حتما سيتعرف على ظلال أناس مروا على تلك الأرجاء، سيلمس ذكاءهم، و سيسمع نغمات آلاتهم، سيتذكر شعرهم و فنهم، إضافة إلى علمهم و نصيبهم من العظمة.
كل هذا يسمى الأندلس العزيزة على القلوب، و هذا كله يسمى اسبانيا المدمعة للعيون، فأين عرب اليوم من كلّ هذا، و هذا كله؟
و لو عبثنا بتأريخ التاريخ لوجدناه مزيجا من بطولات يُعتقد أنها ولّت، و نكبات ترسخت على مرّ العصور قدرا محتوما على أمة لم يبقى منها إلاّ آثار و ذكريات. و إنّ هذا هو المصاب الجلل، فكيف نتذكر القدس و بغداد، و نطالب بهما و ننسى قرطبة و غرناطة؟
إننا في القرن الواحد و العشرين، عرب مقصرون في هذه الناحية من التسجيلات الخالدة، فالأندلس بنتها أياد عربية، و رسمت مستقبلها عقول عربية، و هُجِّرَت منها أجساد عربية، فلا يمكن إلاّ أن تظل عربية، عربية... عربية.
علينا أن نطالب بها كحق ضائع، و علينا أن نسعى لاستردادها، هي ملكنا نحن العرب و الأوروبيون أخذوها منا عنوة، و كما أننا نعتبر إسرائيل آخر قلاع الاستعمار التقليدي في آسيا، و الصحراء الغربية آخر مواطئ الاحتلال في أفريقيا، فإنّ اسبانيا هي آخر مواقع اغتصاب التاريخ في أوربا و العالم.
فكيف نرضى بهذا يا سادة؟؟؟
ننسى المطالبة بحق أناس قالوا يوما: "لا غالب إلا الله"، و ننصرف إلى غير ذلك و دونه، ننسى أو نتناسى لفظ الأندلس، و نعلقه على شماعة ذكرياتنا الحزينة، نحذف جزءا ليس باليسير من دفتر تاريخنا، و نتنكر له، سبحان الله !؟!
نرى الكثير من الإسلاميين يطالبون بالأقصى، و يتبركون استشرافا بعودته، حتى و لو في المستقبل البعيد، و نرى القوميون الآخرون من العلمانيين يدعمون الثورات الحقيقية منها، و الوهمية المنسوبة إلينا، و لا أحد يوجه كلماته للأندلس على أنها حق ضائع، أهازيج شرف يُتغنى به في عرس جماعيّ لعاهرات بزناة، هذا ما يسعنا وصف قلة حيلتنا، و قبولنا بشبه قدَرٍ فرض علينا فرضا. فيا لها من سخرية للضمائر، و لعب بالهويات و الأنساب، طردوا أجدادنا منها بالنساء، و حرّموا علينا دخولها بالتأشيرات، و الآن يسقطونها من الحسابات؟

[1]: مجلة لوغوس، العدد التجريبي أفريل2011، كنوز للنشر و التوزيع- تلمسان، صفحة البيان التأسيسي.

إنها من المضحكات المبكيات، إنها لعبة شياطين استخفوا بعروبة العرب و استهزؤوا بالجيل العربيّ الجديد، و هنا ليكن واضحا وضوح ما عانيناه و نعانيه، إنّ القدس عربية و إنّ بغداد كذلك، و إنّ البلقان مسلم و إنّ الحبشة كذلك، و إنّ الأندلس عربية مسلمة و يجب أن تُعاد لذلك إنشاء الله.

و هذا لا يكون إلاّ بمشروع متكامل و متوازن، قصد الإلمام بجميع الثغور التي تفشل المساعي و الجهود المبذولة لأجل بلوغ النتائج المرجوة.

كما أننا نتشرف بإعطاء مثال عن أحد المشاريع، التي قد تأخذ بأيدي الساعين، و العاملين على عودة الأفراح و الليالي الملاح للأندلس الجميلة من جديد، و عليه يمكن أن يأخذ العمل المنحى التالي:

- **الإيمان بأنّ الأندلس أرض الأجداد، و استعادتها فرض عين وجب تأديته.**
- **العمل على تحقيق هذا الهدف من كل الأفراد، و بكل الطرق، و لو بالتمنّي.**
- **تطوير الانجازات، و إحياء التراث العربي الأندلسي.**
- **ولوج هذا المسعى متفادين التضحية في سبيله عند البداية.**
- **الوقوف بإجلال أمام انجازات العلماء الأندلسيين، و محاولة إكمال عملهم على سبيل التقدم.**
- **التدرب و التعود على العمل التدرجي، و التصاعدي، و إن لم يكن ممكنا فالثبات و عدم التراجع هو المهم.**
- **مراجعة الانجازات الجديدة، و مدى تقدم الأشغال قصد التقييم و تدارك النقائص.**
- **بناء جيل يؤمن بأنّ الأندلس كانت للمسلمين، و ستعود إليهم، و هذه هي مهمتهم المقدّسة.**
- **التزام الصدق و المصداقية في كل انجاز يساهم به أيّ فرد، كلّ على حسب تخصصه و براعته.**
- **إنّ الجانب النفسي السليم في الاستعداد، لهو مفتاح الانطلاقة الجيّدة لأيّ خطوة نحو الأندلس، و إنّ الشعور بالواجب لهو تاج النجاح الفعلـــي.**

فعندما يسقط النظام، و يضيع الهدف، تنام الأقدار، و تصاب العقول بالتلف، هناك على ضفاف الأنهار الجارية، التي يتدفق من ينابيعها الألم، هناك حيث توجد المصبات، و يتشكل كلّ شيء من لا شيء، هناك تبرز خيوط الحقيقة واضحة، تملي على مسامع المؤمنين بها بيان تحرير النفوس من قيود الماضي البائس، ذلك الرجل المستلقي في تابوته المغطى برمز شرف الخيانة، أين تنتصب هامة الدنيا، و أين تضيع الكلمات بين صفوف انتظار القنديل، فتترنم الشفاه، و تعجز الحناجر عن الصياح، فتعود البداية حكاية، و تتحول القصة إلى سراب، في زمن الضياع، نبحث عن ضياع الزمن و تلاشيه، فنسأل: كيف و متى و أين؟ و تخوننا الإجابات، و تسحرنا الكلمات، في ظل دخول المعنى الذي توكل إليه الشتائم، و الأسئلة من جدوى المفاهيم و العبارات، غرفة العناية القصوى، فتنزل بردا و استجماما على ملك الأرواح الهادئة. و هنا في مكان انعدام النور، و جلجلة الليل الساكنة، يأتي صوت من بعيد، صوت نابع من عمق الأعماق، فينساب بين الملتقطات بموكبه المعهود، عهدة الملوك و الجبارين، لكنه يخفي بين ضلوعه قدر الزمان، و كيل الأيام بمكياليْن، ذلك الزمن الذي أسر العصافير، و شرّد مساكينا في مدينة العلوم، و بين أروقة قصر السلطان، فيدخل في ارتعاشة مزمنة، بدأت للتو، ارتعاش مذنب في حضرة قاضيه، و أمام مرأى أحبائه، و لوم ضحاياه، إنها ناتجة عن كيد النساء، و غلبت الظروف.

فتلتفت إلى اليمين لتجد النبيذ و السبات، و تلتفت إلى اليسار فتجد الإيمان و العبادات، و كلّ هذا لا يكفيك، و لا يشفي غليلك في شيء، فترفع رأسك الكبير ناحية السماء لتعد نجوما، أصل جمالها بعدها عنا، و إن كانت في متناولنا لزال الرونق، و لصارت ذكريات، و مع كل هذا مازالت النار متقدة بين الأمعاء، تحاول الخروج إلى المجهول لالتهامه أيام التهام، لكنها تضيع في متاهة اليقين، الذي هزمها في ساحة الإدراك، إدراك أنّ أجزاء منّا نسيناها في الشمال، حين قرر أعداؤنا اقتسام ذواتنا مناصفة، و حين فاز الغربيون بالنصيب الوفير، حين عادت كل التفاصيل تحكي أساطير الاشتياق، تسرد لزمن قصة ألم الأوشام المضجرة، و عادت القصص المملة لتزين هوامش كتب الحضارات، هذه ليست البداية، و لا هي النهاية، هذه اسم مختلف لكيان هزم داخليا، فما بالك بالخارج، ذلك الواقع المر، الذي يسكن أفئدة موحشة، و لكن الرجل الميّت مازال يسير، مازال يرفض صدور شهادة وفاته القذرة، إنه يمشي في طريق ذا جوانب شائكة، و من خلفه حواجز حديدية صدئة، لكن أمامه حقول من الألغام، تلك التي نادته من بعيد، و وعدته بالطاعة و الولاء، تحت ضمانة القسم الزائف، إنه الوحيد الذي يمشي إلى حذفه الأكيد، و لكنه يمشي، و هو متيقن من عدم فائدة المشي، فيدفع بنفسه للاقتناع بعكس ذلك، مستعينا بحجج تتخذ من شعيرات مخه الدموية، موردا للعيش، في أيام بخلت عليه حتى بالهواء النقي المنعش، لكن ذلك الإنسان مازال مصرا على المضي قدما، و هو يحمل بجانب جيبه الأيمن تلك الجعبة، واضعا فيها آخر مسامير النعش الأبدي، رافضا كل الأوهام، و عاكفا على تخطي الصعاب، تلك التي أنهكته من شدة قوتها، و مقاومتها المستعصية عن الرضوخ لقوة الإيمان، فهاهو يتوقف من حين لآخر في مكان مهجور، و يحاول الصراخ، إنه يعلم أنّ لا مجيب لصراخه، و مع ذلك إنه يصرخ حتى تكاد أحباله الصوتية تتمزق، فيداويها بعسل النحل المعروف، و بعض الأعشاب الفكرية المنسوبة لعرب أتعبوا الوقت قبل أن يُتعبهم. موضوعة في إناء فضي، وجده هذا الرجل في إحدى القرى التي زارها مكره، تلك التي جذبته أضرحتها والتي تتوسط ساحاتها العامة، و المزينة بالأحجار الكريمة، و رسومات سكانها الرقود، لعلها تستطيع امتلاك إحدى زوايا قلبه القاسي، لكن هذا الأخير يرفضه رفضا لطيفا، و يوحي للعقل بإكمال المسير، يبدوا أنّ الرجل لم يمت بعد، لأنّه يموت كلّ يوم، في كل لحظة، و الذي لا جدال فيه أنّه ميّت. ميّت يقوم بما عجز عنه الأحياء، ميّت رفض نكران الذكرى و سرقة التاريخ، إنه ميّت يعلم البشرية كيف أنّ الدنيا تعاش بلحظاتها التي لا تحبّ العودة إلى الوراء، و مع ذلك تعشق الأصالة المتجذرة في نداء المستقبل، فجهل العنوان لا يعني أنّ هناك جهلا بالطرق و الممرات، لا يعني أنّ الموت سبب للتشاؤم، بل على النقيض من ذلك، فقبل ولادة الرجل الميّت كانت الأرض بخير، و ستبقى بخير بعد نومه بسلام، لكن الحكمة في كلّ هذا أنّ الرجل بغض النظر عن موته إنه موجود، و يمكن لمس بشرته المرشوشة بشعر خفيف، و يمكننا إضافة إلى كل هذا مرافقته إلى مثواه الأخير، على هيئة مواكب الزعماء و القادة. إنها دنيا تكرّه إلينا المفيد، و تحبب لنا المُهلك، فيا لها من عذراء قاتلة، إنها تقتل عاشقيها بسمّ حلو المذاق، تقتلهم بعدما تعبث معهم في إحدى الليالي الظلماء، تقتلهم لكنها تبكي على فراقهم بكاء يزعج الأحياء، فيقومون لإسكاتها بإرضائها، مما يوفر لها الفرصة للقيام بجرائمها الناعمة، فالعيب ليس في الجرم بقدر ما هو في النعومة، و هنا يتيه الرجل الميّت من جديد، و تخطر بباله أفكارا هوجاء، تذكره ببراءة الطفولة، و قسوة الأسياد. تملي عليه عادات مثقوبة بإبر السفهاء، لكنه يتذكرها في زحمة الأفكار، و تشوش عليه عملية التفكير برمتها، و تسبب له الصداع الذي يجلسه في زاوية المدينة الشاسعة، و القريبة من عصب الشارع الرئيسي بها، و بعد جلوسه تبتسم له العذراء من جديد، فيقوم إليها و هو متأكد من أنها أتت لقتله، يتذكر هذا لكنه

يتناساه بقوله: "إنّ الأمر يستحق العناء" إنها قاهرة القلوب. فيدفعه جوعه الجنسي إليها، و هي ما تزال تلاحق خطواته بعينيْها الممتلئتيْن لؤما، و التي تحكي الكثير، إنها لغة الموت الدافئة، و يقترب الرجل الميّت من العذراء شيئا فشيئا، في حين أنها تستعدّ للدغه. و في لحظة شرود عقرب الساعة الكبير عن الدوران، تتمكن من تجريعه السمّ الحلو، و تأخذه بيدها إلى بيتها الأرجوانيّ، أين يحدث ما حدث، و بعدما يسترسل الليل بظلامه، يتحوّل الرجل إلى جثة تعبث بجسد العذراء المضيء، لكنّ الرجل لا يحس بشهوته، و لا العذراء تتمكن من ترويض وحشها الداخليّ، و في لحظة غفلة عقرب الساعة التوأم يتحرك كل واحد منهما في اتجاه مختلف، فيظهر أنّ السمّ يفقد مفعوله حقا، و أنّ الشهوة ثبطت إلى غير رجعة، لكنّ الابتسامة موجودة و باقية، فتستدير العذراء ناحية هذا الغريب الذي لم يكن كما تمنّته. أرادته إنسانا يُفرغ شهوته الهائلة فيها، و يفقد الحياة بعد ذلك، لكن تبيّن لها أنّه فاقد للشهوة، فاقد للحياة. و مع ذلك إنّه يحبّ أن يحيى، و يعشق البسمة حين تُرسم على وجوه الآخرين. و في تلك الثانية تتبخر رغبات العذراء، بينما يستيقظ أمل الرجل الميّت من جديد، فيغادر البيت الأرجوانيّ بلا وداع، تاركا وراءه ذكرى ليلة عرجاء، وينسى أخذ ثيابه المعلقة على مشجب الباب القرمزي، و مع ذلك لم ينسى أخذ جعبته التي بها آخر مسمار من النعش الأبديّ، و هو يفكر في جمال و أناقة العذراء.
إنه تفكير عميق يحاول به الرجل الميّت حلّ لغز قاهرة القلوب، فيرتب الأجزاء، و يجمع الأطراف، و هو على علم أنه لا جدوى من تشكيل الأنماط، و إحياء الماضي، و هنا يفتح الضمير عينيه لاستقبال صباح جديد، بألوان أندلسية جديدة، و أماني الاستبشار بالأفضل.
فإن كنت قد استوعبت كل هذا يا زميلي و رفيق دربي ياسين، فإنك بذلك قد حللت معادلتك السحرية، و إني لمتأكد أنّ المجهول يمسك بالأشياء التي نجهلها، بينما الحقيقة تكمن في أهدافنا، و سعينا إليها.
فالحسم بين المستقبل و الماضي لا بد منه، فشتان بين الجسد و ظله، و مكمن الدافع في قوّة إيماننا بجدوى عملنا، لا في توقف النبض فينا، و عليه فحسب رأيي المستقبل ضرورية عيشته بثوانيه و لحظاته، بينما الماضي لا حرج من تذكره، لكن كل الحرج هو ولوج شوارعه و معابره بغير إذنه مسبقا.

وهكذا إن دأبنا على نشر الفكرة على الأقل، أي التذكير بعروبة الأندلس، و وجوب عودتها إلى أحضان العرب و المسلمين، فإننا سنقود سفينة استرجاع الأراضي المغتصبة، و لو بعد حين، فنحن سنوقد المشعل، و ما على الأجيال اللاحقة إلاّ تسلمه، و السير على هدى نور وميضه، و إن انقطع باستمرار إلاّ أنّه يومض دائما.

****

هدهدية القتال

فكما قال أحد الجزائريين: "...مُولْ لَهْرَاوَة و دَاقْ فِيهَا مُسْمَارْ...؟!!!".

تتعدد الجبهات، الأهداف و الطريقة المتبعة للقيام ذلك، لكنها تصب في المعنى الوحيد، ألاّ و هو القتال. فهناك من يقاتل بالسيف، و هناك من يستعمل السلاح النفسي، فتتنوع الوسائل لكنه في الأخير يبقى قتالا. حتى الأسباب تختلف من طرف إلى آخر، فالذرائع كثيرة و مقنعة إن لم نقل مرضية، لكنه يسمى قتال.

فالقتال هو صراع ناتج عن صدام يأخذ صورا سلبية موجبة، و يدور بين طرفين في جبهة واحدة، أو عدّة أطراف في جبهات كثيرة، مباشرة بين الأقران أو مصاغة بالتعميم و الدوران، بين أصحاب المصالح العليا، و راسمي الاستراتيجيات الممسكة بدفة المصير.

في الكتب السماوية نجد التحريم من جهة، و الترغيب من جهة أخرى أو القصاص في أجزاء مبعثرة و أساسية فتصبح و تمسي، و تبقي على القتال.

أيضا في الدساتير و القوانين، نلمس تلك الصفحات الخشنات بين دفتي القداسة و التعظيم للذين قاموا أو يقومون به، على سبيل الشرعية أو الوجوب أحيانا، فنصل إلى الكلمة الواحدة، ألا و هي القتال.

في المدرسة نلاحظ سير الدروس، و قيمة الامتحانات، اجتهاد التلاميذ، التنافس من أجل العلامات و تحصيل المراتب الأولى، فيسمونه تنافسا شريفا أو غير شريف لكن أصله حبّ التفوق و جوهره قتال.

في العمل نسلك مسلكا مشابها للدراسة، فحبّ التفوق تحوّل إلى هيام للسيطرة، و الشموخ على حساب الآخرين، من أجل المنصب، المال و القيمة المعنوية لشخصية يراد لها أن تكون لامعة، و مؤثرة في الآن معا، و يجاز في سبيل ذلك كلّ المحرمات، لأنّ الغاية هي القمة، و الوسيلة إلى بلوغ هذا إنما هي القتال.

حتى بعد بلوغ هذه القمة، فإنّ الصمود فيها لأطول مدّة ممكنة يتحقق بالقتال.

بين جدران البيت الواحد، لابد للذكر من تسلم مقاليد السلطة، و إدارة الأمور كما يراها، و إقصاء الأنثى بكلّ القوى و السياسات، بينما الأنثى تحاول كسب المكاسب ذاتها عبر المراوغة، و المناورة بالإضافة إلى استعمال ورقة الإيحاء بالضعف، و البراءة الزائفة، فتسمى صراعا، أو مصارعة، لكنها عبارة عن قتال.

في الرياضة، تدور المنافسة بين طرفيْن، أو أطراف كثيرة تحت شعار: "أنت منافسي و ليس عدوّي ..." لكننا نشهد فرحة المنتصر أو بالأحرى الفائز، و دموع المهزوم أو بالأحرى الخاسر، و لو أخذنا النماذج الرياضية كلها كمقارنة بمعركة حقيقية، لوجدناها نسخة متكررة بتحضر الإنسان، و أبسط معايير النتائج فيها يحددها القتال.

في السياسة، نتبنى الديمقراطية خير أنظمة السياسيين على الإطلاق عبر مرور الأيام، لشفافيتها، و الانتقال السلس للسلطة الحاكمة فيها بالتداول، فكانت الانتخابات هي أصل الديمقراطية، و مسارها الذي يكفل الحريات للمواطن البسيط، كما قال و يقول السياسيون سرا و علانية، فترسم البرامج الحزبية و الطائفية، أو العشائرية و الجماهيرية، و يوم إعلان النتائج نشهد عميق سرور المنتخَب الجديد، و عميق حزن المنتخَب السابق، و الذي لم يعيدوا انتخابه، و بين هذا و ذاك فما النتيجة، إلاّ نتيجة معركة تأسست على صراع نفسي بالدرجة الأولى، بين الفئات الاجتماعية قبل الطبقات منها، فهي في الأصل قتال.

و لو نظرنا خلف الأبواب الموصدة لقاعات النقاشات من يسمون أنفسهم علماء أو باحثين، أو حتى فلاسفة، فالعملية عملية قائمة على المدّ و الجزر بين الأفكار و الرؤى، فالمناظرات و الشحن بالإضافة إلى الاستيعاب للمتناقضات، قصد هضم فكرة بعينها صنفت في خانة الفساد، هو في ذلك يرتدي عباءة

القتال. فأرسطو قال في يوم من الأيام: "...أحب الحقيقة و أحب أفلاطون، و لكني أفضل الحقيقة على أفلاطون." فبتعمقنا في الدافع الذي جعل التلميذ يتمرد على أستاذه، فحتما سندرك أهمية الصراع الفكري، و تأثيراته العميقة، لأنه أقوى المؤثرات للتغيير، و لا شيء غير القتال.

دعونا نزور البادية، نتجول بين الحقول، نعاين عمل الفلاحين، و ندوّن الملاحظات المختلفة، إننا بهذا نقف على حقيقة أنّ الجودة و الكثرة في الإنتاج الزراعي يتمحور على قضم حقول لأخرى، لإثبات أحسن و أفضل المنتجات و بالتالي هو قتال.

و نترك أهل البادية البرابرة، و نقصد المدن الكبرى، و التي تأوي أناسا متحضرين، هؤلاء الأفراد يتصارعون حول الفنّ و العلم و الصناعة و التجارة و الكثير من الأشياء، و حتى البسيطة منها كقصة الشعر أو رفاهية السيارة، وهذه العملية لا يمكن إلاّ أن تسمى قتال.

و لكي لا ننسى، فلنعرج على الاستراتيجيات، الوجه الجميل للإيديولوجيات المخيفة. فإن تعمقنا في محتوياتها نجدها حزمة أفكار تخدم اتجاها بعينه، و لكن مكمن القبح حسب المتتبعين في هذا، أنّ المستمسكين باستراتيجية معينة، يهدفون إلى اقامتها على أسس سميكة تضمن لها الثبات و السيادة، و بطريقة طردية اقصاء جميع الاستراتيجيات الأخرى، و سحقها الذي لا يدرك إلا بالقتال.

و لكي لا تفوتنا صبغة هذه العملية المعروفة، فإنّ خلاصتها هي خسارة النفس و الروح قبل ضياع الحياة، ألا و هي دخول الوغى من جميع جوانبه قصد اجتثاث فرد أو جماعة، اتجاه أو معتقد، خصم أو أحد العراقيل من طريق المكتسب للنجاح و مالكه، و هذه احدى صور التصادم المشرعن و الغير ذلك، لكنه حتميّ في أحسن الأحوال، إنها عملية قائمة بذاتها، لاثبات الأقوى أو الأجدر، لبيان الأسمى من التصنيفات و الأصناف للهادفين إليها، و الساعين للحصول عليها، و كلّ هذا يستوجب علينا، الوقوع في نفس الخندق، و إن تجاهلناه و أنكرناه، إلاّ أننا مقاتلين بطبعنا، مقاتلين بعاداتنا، مقاتلين رغما عنا، و هذا ما دفع بي بتسمية نفسي بالمقاتل، أحيانا أكون شرسا، و أحيانا أكون ناعما لطيفا، لكنني في الحالتيْن مقاتل ... مقاتل... مقاتل.

****

تَظُنّ أنّك تَعْرِفُنِـي

"هل سبق أن اشتكينا من كوننا أسيء فهمنا، أو لم يتعرّف علينا، أو لم نُميّز من الآخرين، أو أفتري علينا ...."[1].

ليس من اليسر أبدا أن يتحول الإنسان العادي إلى فيلسوف، و مع هذا يمكن ذلك. و هذه المعادلة يستمتع بحلها الجاهل قبل العارف بالأمور، لكن تصبح المعادلة محل ريبة و سخط حين يتحوّل الفيلسوف إلى عاميّ، و يتخلى عن كل القيم و المبادئ السامية، وهذا ما يظلّ عصيا عن الفهم، لأنّ

[1] نيتشه – الشذرة 373

العقل يمقت هذه الفكرة مقتا شديدا، حتى أنّه لا يستطيع تخصيص خانة تخزين بسيطة من خلاياه لحفظ هاته الأخيرة، فهي ملفوظة بالنسبة إليه.
و عليه نجد الفرد في غاية العجب و هو يشاهد فيلسوفا ما يتحطم على صخرة المفاهيم الجاهزة، و المتداولة بين العامة بشكل غير مسبوق، فيتبناها هذا الفيلسوف معتبرا عمله هذا شرعيا و جب القيام به. نعم! يسقط في خطئه الجسيم من قِبَلِ أخذه بمبررات تقنع عامّة الناس!. يا الله ألطف بالفلاسفة من هذا الوضع فهم لا يستحقون هذه النهاية.
و من هنا، و اعتمادا على ما تقدم في الموضوع نطرح التالي:
ما هي الأسباب التي تجعل الفيلسوف يتخلى عن فلسفته؟ أو على الأحرى متى يتحوّل الفيلسوف إلى عاميّ؟ أو بطريقة أخرى متى نشهد نزول الفيلسوف إلى درك العوام من البشر؟

سؤال يتغلغل إلى عمق القلوب فيتسبب في الأسف رغم براءة سامعه، إنها كارثة تلمّ بأهل العلم، لأنّ الفرد المصنف في خانة الفلاسفة هو شخص مُحِبٌ للحكمة عند اليونانيين، عظيم عند الرومان، قديس عند المسيحيين، وليّ صالح عند المسلمين، خارق عند اليهود، و ذا مكانة رفيعة عند أجناس أخرى من الإنسانية. و لكنهم رغم اختلافهم فهم يتفقون على أنّه شخص محترم، يُؤخذ بقوله و نصحه. فيا لها من علامة مسجلة جديرة بثقة الشعوب و الطوائف عبر العصور.
لـكِنْ
عندما نجد الفيلسوف ينساق وراء غريزته بشكل شهواني غريب يُعمي البصيرة قبل البصر فهناك خطأ ما.
عندما نرى الفيلسوف يلفق أكاذيب لا مبرر لها إلاّ رفع مقامه فقط فهناك استفهام كبير.
عندما يُلقي بأشياء ليست من الحكمة إلقاؤها، لا الزمن مناسب و لا المكان مناسب فهناك ما يستحق المراجعة.
عندما يتخلى عن أصحابه ابتغاء فتات خلايا أنثوية فالمصاب جلل.
عندما يتباهى هذا المسمى فيلسوفا بأفكار بالية يعلم بتصدعها، و لا يأخذها بالدراسة مسبقا، فهناك جنازة لأحدهم معنويا قبل الجسد رحمه الله.
عندما يفرض هذا الفيلسوف رأيه غصبا على من حوله، و يسخر من أفكارهم التي تعارض معتقداته العجوز فالله أكبر كبيرا.
و عندما، و عندما، ووو ...
انتبه يا فيلسوفنا، فإنّ إرجاعك للفلسفة قد يصبح عارا إن تحولت بأفعالك إلى درك الناس العاديين، انتبه فعرشك يتعرض لزلزال قد يُطيح بقصرك الجميل أو بشُرفات منه على أقل تقدير، احذر إذن.
إنّ الفيلسوف يأخذ الأمور بمسبباتها لا بأسبابها، يأخذها بالاتزان، يدقق فيها ثمّ يحكم عليها بعدما يكون قد حللها و هضمها هضما جيّدا. و هنا مبلغ الحكمة، لأنّ هذه العملية لا يقوم بها إلاّ هو، إنّه الوحيد الذي يجيد صياغة هذه الخلطة السحرية و الفنية بمقدارها المناسب. إنّ أزمة الأمّة هي أزمة رجال، و على الفلاسفة من أطراف هذا الشعب أن يحتملوا الأذى الصادر عن بني جلدتهم، فمتى كانت أمّة متخلفة إلاّ و كان عظماؤها محتقرون بين أفرادها، و سفهاؤها مبجلون. و هنا مكمن الخطر لأنّ فيلسوفنا سئم التهميش، و قرر إلقاء استقالته على طاولة مكتب الرائدين، فيا ويلتاه....

إنّ خسارتنا لجيل كامل من النساء لأوهن من أن نخسر فيلسوفا قد يغيّر الكثير، لأنّ مقاربتنا هذه تشبه كثيرا موقف الرجل الميّت حين خُيِّر ما بين العذراء و جعبته التي تحتوي على آخر المسامير من النعش الأبدي، فإذا به في الأخير، و بعد المدة الطويلة من التفكير، اختار جعبته المرقعة بخيوط رخيصة الثمن، باهظة القيمة في عينيه، لأنّه أدرك يقينا أنّ الاحترام يُكتسب و لا يُشترى، أمّا العذراء فإنّ مثيلاتها كثيرات، و سيأتي يوم يصادف فيه هذا الرجل الميّت عذراءه، و ستكون أحلى و أجمل من التي استبدلها بجعبته الرثة الثمينة.

إنها حكمة الفيلسوف الميّت، تجعل من عقله أداة كشف للأوهام، و آلة لتمحيص الأفكار قبل تجسيدها على أرضية الواقع. و هنا يظهر جليا مدى اختلاف الاختلافات المختلفة بين الشخص المدعو بالعاميّ و الشخص المُحصن بالفلسفة. و عليه فالفرق واضح وضوح الماء المتدفق بين البلّور الصافي، فما يزيده إلاّ بهاء و جاذبية.

و من يعرف مسرحية يوليوس قيصر لكاتبها ويليام شكسبير، فإننا نستطيع أن نقول أنّ القيصر الداهية في ذلك السيناريو الرهيب هو الذي يستطيع أن ينعت بلقب "فيلسوف"، بينما تمثل الشخصيات الأخرى العامة من الناس في نفس القصة.

أنا هنا لا ألوم أحدا على حياته الشخصية، فهو حرّ في ذلك، و إنّما كلّ اللوم يقع على كيفية معالجة الأمور، لأنّ الحُكم يكون على الفعل، لا على النية لارتكاب ذلك، أو على نحو ذلك، و إنّ انجراف أصحاب العقول بمياه المعتقدات و الأفكار الشعبية لعار ما بعده عار. لذا على الفلاسفة أخذ الأفعال بقيمها الحقيقية، و تسمية الأشياء بمسمياتها، و هذا بعد ولوج معترك النقد بعد الفحص الدقيق لأيّ كان، و مهما كان، و مع أنه صعب لكنه ليس بمُعجز للفيلسوف الملتزم كلّ الالتزام بحدود حكمته.

و هنا يمكننا أن نعود إلى شيخ الفلاسفة اليونانيين أفلاطون إذ قال في حق الفلاسفة: "..... و يلزم أن نقول عن ألائك بأنهم، منذ صباهم، لا يعرفون الطريق التي تؤدي إلى الساحة العمومية و لا أين توجد المحكمة و قاعة مجالس المدينة أو أية قاعة للاجتماعات العمومية. فهم لا يهتمون بالاطلاع على القوانين و التشريعات التي تسن أو يعلن عنها. أما عن النوادي التي تناقش فيها المهام و عن الاجتماعات و الحفلات و أعياد (باخوس) و ما يصاحبها من عزف على الناي، فإن هذه الأمور، لا تخطر ببالهم حتى فكرة المشاركة فيها. و إذا ما لحق المدينة خير أو شر أو ورث أحد المواطنين، رجلا كان أو امرأة، بعض العيوب عن أجداده، فإن الفيلسوف لا يعلم عن ذلك أكثر مما يعلمه عن عدد قطرات البحر. و هو لا يعرف أنه يجهل كل هذه الأمور، فهو يمتنع عن معرفتها، لا رفعة منه بل لأن جسمه، في واقع الأمر، هو وحده الحاضر المقيم في المدينة أما فكره الذي ينظر إلى هذه الأمور بعين الاحتقار على أنها أشياء تافهة لا قيمة لها، فإنه يحلق في فسيح الأجواء (...) باحثا في أعماق الأرض يقيس مساحتها، متتبعا حركات الأفلاك فيما وراء السماء، مدققا في الطبيعة بأكملها، و في كل كائن بكليته، دون أن يلتفت إلى ما هو على مقربة منه(...)...."[1]

****

[1] أفلاطون. محاورة تيتيت- الترجمة الفرنسية شامبري، غارني . بـــاريس، ص 377

الحافلة البرتقالية

هناك بين شوارع المدينة المألوفة، تسير حافلتنا الجميلة، إنها ككل الحافلات، لها سائق و ركاب، لكنها تختلف عن المركبات الأخرى رغم شبهها الكبير بهم، و هذا ما يعكس تلك النظرة الرهيبة إليها من المارة بينما حافلتنا تمرّ عليهم، فإضافة إلى كلّ ما تقدم فتلك الآلة يقودها سائق موظف يُدفع له من جيوب أمتنا الغالية، بينما خط سيرها يمتدّ من أكبر مؤسسة تعليمية بالبلاد باتجاه مؤسسات أخرى لا تقل أهمية عن المُنطلق منها، و بين هيكلها تعيش الآمال و الأحلام و بعضا من المرح و البؤس. مركبة ليست كاللواتي نركبهن من وقت لآخر، فروادها مميّزين جدا، يُنتظر منهم الكثير، فمنهم العلماء و السفهاء، و منهم المهمون و التافهون. منهم الرجال و غيرهم من الذكور، و النساء و غيرهن من الإناث. يشبهون البشر لكنهم ليسوا منهم، ففئة منهم تقترب من الملائكة، و الأخرى تقترب من الحيوانات المتوحشة. لتقلهم تلك الحافلة شتاء و صيفا، ربيعا و خريفا، سواء كان الجوّ باردا أو حارا، لكنها تقلهم، و تحمل أحلامهم و أمانيهم. و تمدهم بتلك الشحنة العاطفية التي تزيدهم اعتزازا و فخرا، فالحافلة لها سحرها، لها ما لها من الغرائب التي تتفرق على من هم يرونها و لا تراهم، على من يعرفونها و لا تعرفهم، لتبدوا للكثيرين مجرّد حافلة، لكنها في نظر آخرين أكثر من ذلك، فقد تجدها منتجعا للتعارف، أو مقرا للمناظرات، و قد تكون مكتبة أو صحنا يدور في فلكه الفكر و الثقافة، و هذا عائد إلى تركيبة من يصعدون إليها أو ينزلون منها، فهم ينقسمون إلى مجموعات، أو مجموعتيْن في أقل الاحتمالات ترجيحا، مجموعة محبوبة و الأخرى مكروهة، فأين ترون أنفسكم يا ركاب الحافلة البرتقالية؟

اختاروا ما بين اليمين و اليسار، ما بين العلوّ و الانحدار، ما بين الاشمئزاز و الوقار، ما بين الشموخ و الانكسار، مابين الجري وراء الأهداف و الانتظار.

فالخيار لكـم و أنتم وحدكم المسئولون عن نتائج اختياركم و انتم وحدكم المسئولون عن نتائج تفكيركم و مصيركم، إن كان لكم تفكير أصلا في هذا المحور، لأنكم تمثلون أرقى فئات الأمة، و بصلاحكم يصلح مستقبلها، فأحسنوا الاختيار، و لا تتركوه لغيركم، فقد ساء ما تكونوا ساعين إليه إن لم يَكن في سبيل هناءة الموجود في الوجود.

****

خبرة السنين و ثقافة الأيام

إنّ التقييم كمقوم للقيم يبدوا للوهلة الأولى عنوان فخر، يجذب لكل فلسفة أطرافها، فتختل الموازين، و تختلف الآراء حول الواحد الذي ينتج العديد من الأشكال، و التي تأخذ صورا كثيرة يوما ما، إنها حال البشر، يختلفون على الاتفاق، و غير ذلك من التطويرات التي تبعث على التصورات المتنوعة، قصد ولوج العام، و التستر بظله الفاضل، و إلا بدا الأمر نشوزا وجب تخطيه، إنها منمقات العالم الذي يجمّل

الرسوب بمساحيق الجهل بالاختلاف، فمن خبايا العالم أن وجد الإنسان، و وجدت الصدامات، و هذا ما يدعوا إلى التساؤل: ماذا عن لغة الحرب؟

إنّ العيش في تراكيب مندمجة تحت لواء واحد يُفرض فرضا، من الصعب في مكان تحقيقه، و إن محاولة بعث الروح في جسد ولد مريضا لمن السذاجة إدخاله دائرة البحث و التفتيش، لكن تبقى المحاولة مشروعة ما دامت تبقى في إطار المحاولة لا غير، فإنّ عدّة الصراع لجوهرية في تحرّك الأفكار بسيارة الهجوم، و مقود الدفاع بين الفينة و الأخرى في مدينة شاسعة تسمى الحياة، فالحي ليس حيّ الحركة أو التنفس بقدر ما هو حيّ برؤيته القابلة للتبني، فالأمّة التي لا تصبر على أهل الفكر أمّة بلغت من الانحطاط الاجتماعي مبلغ عدم العودة للمنهج الصحيح و الناجح، و سبيل ذلك هو البديل الغير مجدي في كثير من الأوقات، بل و تتطور إلى هدف حتميّ الانجاز، فسبب إقرار الصدام و محاورة الظلم من باب الاستغناء عن حقائق مبرهن عليها، لهو قمة الذاتية الراجية للسيادة و السيطرة، و إنّ الإقصاء لأجل الإقصاء لهو عصب التمرد الفكري، و دليل ذلك وجهة الأخطار التي تعنّت التوجه، حتى و لو كان هذا الاتجاه مرفوض منطقيا، فما دام يخدم مصالح معيّنة بطريقة ما، فهو عميق صادق حسب المتوجه لإبراز فعالياته على الأرض، رغم رفضه من هذا الواقع أصلا. هذا الذي جعل الصواب بين مطرقة التبجح و الغلو، و سندان التفتح اللانهائي و الذي قد يأخذ المنعطف الخطير في مجالات الغير عدمية التفكير، و على ما يجدّ في مسار العرس العلمي، و منطق الشعوب المختلف باختلاف الثقافات المتشعبة، فإنّ الحرب الفكرية مازالت تحتدم على أكثر من صعيد، و هذا قد يرضي إلى حد ما الجزء المهم من الأطراف المسيطرة، لكنه يظل بعيدا كلّ البعد عن تحقيق نجاح يحتمل أن يسود في يوم من الأيام، ذلك لأنّ أدوات الصراع الجديدة وجدت من يرعاها، و الأدهى من هذا و ذاك، أنّها وجدت أرضية تحرك خيوطها بسلاسة باتجاه مرغوب فيه، دون تلقي خسائر مهما بلغت حدتها، حتى أنّ المتغيرات أصبحت تأخذ وقتا طويلا للفهم، فما بال الاستيعاب و الهضم، و من بين الأساليب القيّمة و الجدية، أسلوب الغموض المُتحكم فيه. إنها طرائق أكّدت سيطرتها في التحكم من الخلف، تقيم الأهازيج، و تدير المعارك، بالإضافة إلى حصد النتائج الصافية من جهة و تتفادى الضربات أو الإزعاج على أكثر الاحتمالات تشاؤما من جهة أخرى، إنها لغة العالم الجديدة، و التي فرضت نفسها تعسفا على من بدو ضعفاء في هذا المجال الواسع، فقد تحوّل القويّ هنا من مفهوم الفاعل القادر، إلى التدليل على مدلول المدير الشاطر، بينما احتفظ لنفسه بالأهداف التي أعلنت في غابر الأزمان، فأزمات العالم المتنامية هي ذات أصول علمية محضة، بل إننا لن نذهب بعيدا إن نحن وصفناها بالأزمة الحتمية العميقة، إنّ الانزلاقات الفكرية المتعصبة، و التي اتخذت من القوى المهيمنة سبيلا للترسيخ، لهو مكمن الخطر الذي يهدد الإنسانية، فقد نجد الفكر الهامشي يبني لنفسه موقعا، و لو بالكلمات التعجبية الاستفزازية، أو المراوغة القائمة على كسب الوقت، و الاستعداد للانقضاض على البقايا الذهنية، فأسلوب التحطيم لبلوغ الهيمنة السريعة و السهلة، على عقول بعينها لهي طريقة رخيصة و خسيسة تنمّ على حجم خبث صاحبها فتجاوزها الزمن، لكننا نشهد تجديد نهجها تحت طائلة مسميات عصرية، و بوجوه مجملة تخفي وراءها ظلمات الآبار العميقة.

إنّ الفكر حرّ، و حرية هذا الأخير فكرة تبنى كما تبنى الأمم، و على المفكرين من العرب الجدد أن يدافعوا عنها، و يقفوا في وجوه القوى الجديدة، قصد إدراك الحفاظ على الركائز المتبقية.

فكما جاء على لسان نيتشه: "لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصا في قصده، بل عليه أن يترصد إخلاصه و يقف موقف المشكك فيه، لأنّ عاشق الحقيقة إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه بل يهيم بها لذاتها....".[1]

****

محرك آخر الأحرار

في لحظة يضيع الإدراك، و تجول الأذهان بأسقام الزمان، تلك الثانية التي تعود للاشيء من الترهات، أين تتجلى المأساة، و يتساوى البشر تحت عصى الجلاّد، إنها الحائرة بين النهاية و البداية، و إن اختلف حولها مدركوها، إلاّ أنها ما تزال باقية، قابعة تحت المجهول، الذي ينفض عن ريشه غبار الإقصاء، لقصرها تمرّ غير آبه بها، و لثقلها تأخذ من النفس القدر العظيم، توسم بالمعوّذات، و تـُعطر بالمجاملات، لكنها تبقى كما هي، لا ضجر الوقت ينال منها، و لا هي تنفع ذاك الشاهد على مرورها، سواء كانت قيّمة أم تافهة، فلا أحد يجد فيها مبتغاه بقدر ما تجد فيهم مبتغاها، فيا لعيب الضمير، و رداءة الحواس، التي تنساب وراء دعاية الزيف و هشاشة المناهج، لتتوصل إلى الحقيقة في الحد الأعلى و نتيجة في الحد الأدنى. إنّ العودة إلى نقطة إدعاء الأكبر مما هو ملموس، لهي لحظة حيرة بين الإنسان ككيان، و الفناء الفكري كإشكال، حين يصرخ العقم، و يولد الإنتاج، فيظهر السكون و تتعالى المادّة على أنـها الخلاص، و يظهر الفرق بين الكم و الكيف. فينساق الفكر ناحية الجدل، و تأخذ اللغة عباءة الأغاليط و أخطاء شفرات المعنى الثمانية، بينما يتميّز الرمز على أنّه ملك الصدق و المصداقية، فتكره الصورة الهياكل، و تصبح لقيطة في عالم المعرفة، بينما حقيقتها أخلاقية، تدلّ على عراقة التنظيم، و حق الأخذ بما هو سليم، أيـن ينعكس الفكر على ذاته الجوفاء، و يصوّر الثقافة الشعبية على أنها حفرة من حفر الاعتزاز الكاذب، فالأم أضاعت أطفالها بين مفاهيم المفاخرة، و الاتصال إلى جانب الانفصال، فكلّ هذا يدور في بيولوجية الحس الهارب من حقيقة المواجهة المتكافئة، هو مولود من رحم القوانين، فيصبح الجزء عنوانا للكل، كالماء الذي هو على اختلاف مصدره مكوناته واحدة، و عليه نعتمد القوام المعتدل في التجربة لضبط الأمور، و يُبجل العلم رغبة في الدقة و الإصابة السديدة، إنها التائهات بين المراجع و الأمانات، صراع يوقد المحسوس و يلعن المثالية، فينطبع الواقع في الذهن، أين يبدوا المفهوم كالذي ليس له موطئا في الطبيعة، و التذكر يلعب دور المُدرب في هذه المواجهة، فتـُقام الأخلاق من الاكتساب، و يتدخل الاعتداء أين ينتج النفع و الضرر، و تـُجعل النسبية مرصدا لما هو معروف، و المُطلق يصبح مجالا للبحث تحت راية العقل، فتعود المعطيات إلى نصابها، و تختل المقاييس في طريق انهيار التقدم. فالتغيير وجهه النفس و شواربه دماء، إضافة إلى التضحية للوصول إلى المنشود. فلا محال من مراقبة الفكر، و هو يدخل إلى دورته العادية الخلاّقة، و هنا يأتي دور النقد المُؤسس على ما بدا أساسا وجب اعتماده مُنطلقا، فالفحص

[1] هكذا تكلم زرادشت، فريدريك نيتشه، ترجمة فليكس فارس، الإسكندرية – مطبعة جريدة البصير 1938 ص: 11.

النقدي للمبادئ يذهب بعيدا في شكه حتى يوصل المبدأ بالمنهج، و يساوي بينهما في الدراسة والتحليل، و هذا يعطي برمّته للمتأمّل مجالا مضبوطا لصورة تأخذ جانبين، الأوّل أكثر خصوصية، و الثاني أكثر علمية، بالإضافة إلى وصلهما هما أيضا بالخلطات المبنية على الفلسفة الخالصة، و المصاغة في قوالب الأخطاء المُصَحَحَة، على المنحى المتخذ من السعي إلى الصحيح موردا للبقاء ضمن بساط المنظور إليه. إنّ عامل الوقت يجد متعته في التغيير الذي يبعث على التساؤل و طرح السؤال، بحيث يجعل من هذا الأخير ضرورة حتمية لبلوغ فهم الواقع انطلاقا من الفكر، بل أن يردّ هذه العملية إلى عكسها في حالة عدم ولوج الاستعذاب، فإن كان يتوجب على الضرورة ادعاء الصحيح، فإنّ ذلك يؤثر على الثوابت و التي قد تجد الفرصة في التحرّك قصد ضمان مكان لها في بيت المنظومة الفكرية الأساسية، و هذا ما جعل الفكر يجدد حيرته فيما يعلم و فيما يجهل على حدّ سواء، خاصة فيما يتعلق بالوقائع و الحقائق الحادثة. إنّ تجنس الفكر عائد إلى عدم تركه يأخذ قيمته الحقيقية، و تقديره حق قدره، و هذا ما جعل الأفكار تتدرج على هيئات مختلفة، بنسب معينة من أجل بلوغ ملموس مجهول و غير دقيق، وهذا ما يعكس الانحياز إلى النقيض أو هجره إن لزم ذلك، على سبيل اتخاذ الصيغ من المعاني حججا للوصول إلى المبتغى المرفوض مبدئيا. إنّ ما يصاغ من مقاطع يشغل الفكر دون أن يشغّل التفكير، و هذا ما يجمد العقل، و يتخذ من الصرامة المشوّهة طريقا لقضم الأساس الذي أطلق العملية كلّها، هذا ما هو معروف أين أكّد نجاحه على المستوى الحقيقي لجمود العقول العربية الجديدة. إنّ من الهيّن إدراك أنّ الأفكار العربية في الزمن الجديد، تأخذ مسلك الانقياد، كون هذا العقل وجد نفسه أمام مخلفات الماهيات الحقيقية، فانشغل في تدبر الظل عوضا من الجسم الموجود، و عليه فإنّ معظم النتائج المتوصل إليها من قبل العرب الجدد، هي عناوين قتلت بإعمال للتبصر، لدرجة أنها أصبحت رثة غير قابلة للتجديد أو الترميم، أي أننا هنا و في هذه الحالة الخاصة، نقف أمام وضع فكريّ لم يزاول جميع مراحل التفكير، و إنما انطلق من البداية ليصل إلى النهاية دون أن يتخلص من نهاية البداية و لا بداية النهاية. فكر مضطرب لا يمكنه القبول بالإصلاح المفاجئ، أو التغيير الذاتي، و الذي يُفرض عليه تعسفا، كونه مغيّب إلى حد ما، مما يتطلب إعادة النظر في نقاط انطلاق العملية التفكيرية الأساسية عند المفكرين الجدد من العرب" ... فالمعرفة عملية تاريخية تمضي في تطوّرها عبر درجات من اللامعرفة إلى المعرفة..."[1]

****

عرب الألفية الجديدة

لقد أحببتهم، أحببت عاداتهم، و طريقتهم في العيش، إنهم يقتربون مني كلما عرفتهم أكثر، إنهم بالنسبة إلي إنسانيين ملتزمين بإنسانيتهم إلى أبعد الحدود، قوميون يحبون بلادهم، و التي تمتد من مشارق الأرض إلى مغاربها، و رغم هذا إنها صغيرة بالنسبة لأحلامهم الكبيرة، فيا لهم من بشر يدرسون الإنسانية دروس الحياة، و يا لهم من قوم فهموا العيش حق الفهم، فمضوا في طريق البشرية السمحة، و لم يبخلوا على أي كان في أي وقت بأيّ شيء.
من هؤلاء؟ و لماذا لسنا منهم نحن عرب الألفية الجديدة؟

[1] ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر.إبراهيم فتحي و نديم علاء الدين، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ص8.

إنهم يستيقظون باكرا، يستحمون، يأخذون فطورا صباحيا خفيفا، ثمّ ينصرفون إلى مجالاتهم اليومية المتنوعة. و هم حريصون كل الحرص على رفع راية الإتقان و التميّز في كلّ أعمالهم، و إن لم يستطيعوا ذلك فإنهم أتقنوا جلها على الإطلاق، بل تعدوا هذا و ذاك حين أطلقوا العنان لأقوام أخرى كي تتمكن من مشاركتهم آلامهم و دموعهم قبل أمانيهم و ابتساماتهم، إنهم يقتربون كثيرا من الملائكة، يحسون و يصدرون أحاسيسهم، و كأنهم خلقوا لنشر الفضائل في عالم المساوئ و الشرور.

يرفعون شعار "الحرية، العدالة و السعي وراء السعادة"، و يؤمنون بانجازها، متبعين الانجاز بآخر أحسن منه، حتى وصلوا في فترات ليست بالقليلة إلى الإعجاز، وحيّروا شعوبا بأكملها، فراح جزءا من الأمم يحاول خطو خطواتهم، و جزء آخر يحاول تقليدهم على الأقل، دون أن ننسى من حسدهم و كرههم بسبب نجاحاتهم. فقد دخلوا ساحة المجد من أوسع أبوابها، و هم الآن يسطّرون نصوص الفخر و الاعتزاز كما أرادوا، و هنا نتذكر العرب، أي عرب الألفية الجديدة.

فلو تأملنا في شجيات هذه الشريحة لوجدناها شرذمة فقراء رغم غناهم، أناس لا يحبون العمل، يسعون للرفاهية على حساب الآخرين، مجرّدين من الأحاسيس، حتى أصبح التعبير عنها جرم مشهود له بالعقاب، يحاولون إمساك الزمن بشعرة معاوية، قادمون من مخلفات حضارة، و سائرون نحو مستقبل متحرك، لا يعلمون و لا يريدون أن يتعلموا و لا يفكرون في جدوى التعلم و العلم، يحفظون الشعارات و الحِكم، و لا يلتزمون بها أو يطبقونها. نومهم كسيرهم، نهارهم كليلهم و حياتهم كموتهم، بل الموت في كثير من الأحيان أرحم لهم. هناك من يصنفهم من الدرجة الثانية، و هناك من يضعهم في الدرك الأخير، لكنني أصنفهم في خانة المخلوقات المجهولة، و هذا الوصف قد يفسر و يلخص الكثير في الوقت ذاته.

و لكم يحيّرني عندما أجد من يسمّون أنفسهم بالنخبة، يتحدثون عن بهاء المستقبل العربيّ، و يتركون الحاضر يمرّ مرور الكرام، هذا الحاضر الذي كان في الماضي القريب مستقبلا مزدهرا، في نظر السابقين من هؤلاء النخبة.

فيا لها من عجائب الدنيا، و ضحك على الذقون، وهنا يستيقظ الرجل الميّت، يلبس ثيابه و يخرج إلى الشارع مّرة أخرى. و بينما هو يمرّ على جحافل الناس، سمع صوتا صادرا عن الجمع الغفير، صوت ليس بالغريب، فهذه الرنة كان قد سمعها حين مرّ بالقرية العربية، فهي نغمة حزينة تترجم مدى ألم مُصدرها، فتوقظ في فكر هذا الرجل ذكريات تلك القرية الكئيبة، إنها بقعة توقف بها الوقت، و هناك من يقول أنّ وقتها حائر بين التقدم إلى الأمام، أو الرجوع إلى الخلف، فهو يمضي حينا، و يعود أدراجه أحيانا أخرى.

كما أنّ الرجل الميّت تذكر بيوت ذلك المكان الموحش، و المزخرفة برسوم غريبة، و روائح المسك الخالي من الكحول. دون أن تغفل ذاكرته عن سكانها، الذين يبدون للوهلة الأولى أنهم أحياء.

فنساؤها يرتدين غطاء على الرأس، بينما عوراتهنّ ظاهرة للعيان، يتحدثن حول أشياء لا مكان لها في معتقداتهم، و لا عملهم، و لكنهن يحفظنها قصد التظاهر بصفات ليست بصفاتهنّ، أمّا رجالها فهم غير موجودين على الرغم من وجودهم، إنهم أشباح بالليل، و أعمدة أكلها السوس بالنهار.

و لكنّ الرجل الميّت أحبهم عكس إقامته القصيرة بينهم، أحبهم لأنه علم بأنّهم ضحايا أنفسهم، أحبهم لأنّ الحبّ أقلّ ما يمكن أن يتصدّق به عليهم. و للأمانة فإنّ الرجل الميّت قد أحبّ العرب الجدد حبّ مشفق، حبّ إنسان غلبته إنسانيته، و هو يرى ما آل إليه أمر عرب الألفية الجديدة.

حتى أنّ الرجل الميّت اشتاق إليهم بمجرد أن شبه الصوت الحزين بصوت القرية العربية الكئيبة، و هنا يتوقف الرجل الميّت على السير في وجهته، و يجلس متأملا على كرسيّ الساحة العامة، و هو يراقب

الأشجار من حوله، و لكنه يأخذ في تأمله وقتا طويلا، و كعادته هاهو عرقه ينساب على جبينه من شدّة شعوره بالرأفة و الذنب، فيتأسف على مأساة لا دخل له فيها، و يشكوا إلى أشجار الحديقة عدم قدرته مساعدة عرب القرية العربية، ثمّ ينهض و يكمل مسيره متحديا صداعه الذي عاوده من شدّة التفكير الغير مجدي.

إنها حالهم الشقية، إنّ هؤلاء العرب مازالوا هكذا إلى اليوم، و لا يبدوا أنهم سيتغيرون يوما، فهم يتركون السيئ ليتعلقوا بالأسوأ، يملون الانتظار ليحبوا طريقة الانتظار، فالحيوان لا يلد إلاّ حيوانا من جنسه، كذلك هذه المخلوقات المجهولة الهوية و المستقبل.

****

مِعْوَلُ الإِنْسَانِيَةِ

إننا نؤمن بأنّ الإنسانية خُلقت على السواء، و قد جُعلت لها حقوقا فوق كلّ اعتبار كالعدالة، الحرية و استقلالية الانتماء لأي كان، و تحت أي ظرف، و إنما تقوم هذه الأنظمة بين الناس لضمان هذه الحقوق، و تستمدّ سلطتها من الشعب ككتلة سياسية، و المجتمع ككتلة جماعية أو اجتماعية، و الدين كعامل ثابت، إضافة إلى الثقافة المتضمنة للهوية و الرؤى المستقبلية المحتوية لكلّ الطموحات، فنحن لا نقبل باضمحلال هذه الركائز التي ميّزتنا عن سائر المخلوقات إلى يومنا هذا، و التي ورثناها عن أجدادنا، و نحن نطلب من أحفادنا ضمان كلّ ما من شأنه أن يحفظ المكاسب النفعية منها و الشرفية لمقوماتنا كأمم تعيش على هذا الكوكب الجميل.

الهدف من كلّ المؤسسات في كل العقود الاجتماعية، المحلية منها و الدولية هو الحفاظ على حق الإنسان في العيش بكرامة طبيعية، التي لا يمكن التنازل عنها، فيكون مبدأ سيادة الفردانية أساسا في الأمم، و لا يجوز لأيّ جماعة، أو أي شخص أن يمارس سلطة لا تستمد من الأمة الإنسانية فعلا.

الحرية هي القيام بأي عمل لا يلحق الضرر بالآخرين، و ممارسة أي إنسان لحقوقه لا تتوقف إلاّ عند الحدود التي تضمن للآخرين حقوقهم، و النظم هي الكفيل الوحيد لضبط تلك الحدود.

فرغم هزيمة الذات البشرية في الحروب إلاّ أنها استفادت منها حضاريا، من خلال احتكاكها بالعقول المفكرة، و التي غيّرت من نظرتها إلى الكثير من المفاهيم.

لقد أسهم العقل المشار إليه سابقا في النهضات عبر الزمن في النواحي الثقافية بأساليب مباشرة أو غير مباشرة، و مهما كانت العلاقة بين الشعور و العقل من نواحيها الايجابية و السلبية، فقد زاد اطلاع العقل على التراث، الذي حفظته المكتبات، كما أنّ الضغط النفسي المتواصل على العقل المبدع ساعد على إحياء القديم من الأفكار الكلاسيكية في جهات عدّة من العالم نتيجة لتناغم الإنسانية، و لعل من أبرز الأمثلة ذلك التكاثف للمخلوقات المقدسة أين أقامت منازل الأدب و الحوار مكونين بذلك جلالة الإنسان الكاملة و النادرة.

فالعلم و الجهل لا يستويان على كفتيْ ميزان، و العقل العامل عالم مهما طال أمد عمله، بينما العقل الذي لا يعمل جاهل مهما أظهر عكس هذا القول، أو تظاهر بما لا يحتويه، فشتان بين البصر و البصيرة، فالإنسان الذي يشغل دماغه إلى حده الأقصى المتواضع ملك و لو بعد حين، بينما الذليل من لا يعطي لدماغه حقه من الشغل، فقد سار من سار، و طار من طار، فاختلفت الجنة و النار.

من الحقائق التي لا يحسن أن تغيب عنا و نحن نقدّر العقل من سادة العصور الغابرة، أنّه يتأقلم مع كلّ زمن، كلّ على حسب خصائصه و معطياته، فالعقل القديم ليس هو العقل الحديث و هذا الأخير لا يشبه العقل المعاصر، فلكل منهم زمنه و آليات عمله كنتيجة للمحيط الموجود فيه و الضاغط عليه، لا لشيء إلاّ أنّ العامل يسود على المعمول به لبلوغ العمالة المسددة ناحية العمل على وجه الإعمال لا غير و لا ضرر.

و يحسن بنا أن نذكر مع هذا أنّ أشكال تقاذف المتغيّرات بمرتبة دون مرتبة الأسس التي ترتكز عليها، و أنّ النظام العقلي بمرتبة دون مرتبة الروح الإنسانية التي ينبغي أن يعمها و يتخللها، على سبيل المبدأ في غالب الأحايين. فالتفكير و التذكر شكلان من أشكال حركة الآلة العقلية قد يقومان على مبدأ التحفيز و الدفع باتجاه الإنتاج أو الاستحضار، لأنّ فقدان المبدأ و الشكل لا يضيرنا إذا وجدنا النتائج. أمّا هذان الأخيران فهما اللذان يضير و لو توافرت العمليتان المعروفتان (التفكير، التذكر).

****

سلامة فكر السلام

إنسان يهيم بين الذي هو جاد، يأخذ من كلّ المعاني ضميرا، لائقا لمقامه الأنيق، يعفوا على من ظلموه و يظلمونه كل حين، يشدّ الحبال، يرفع عينيه ناحية الأفق من بعيد، إنّه يسير، و يعبر الطرق غير مستأنس لأحد، طرفه الأوّل متشبث بالأمل، و الثاني حبيب العمل، لا يساوي شيئا في عيون الناظرين إليه، و هم كلّ شيء بالنسبة له،عيناه تروي أخبارا ليست سيئة بالقدر التي هي على بيانها ينقسم المفكرون، إنه بشريّ عظيم لمّا يحدث نفسه، و تافه لا يساوي غبار حذائه، عندما يحدث الآخرين، لكنه ليس كغيره، فهو الوحيد الذي أحبّ الناس، و لم ينتظر حبّهم، و هو الفرد الأوحد الذي أهدى الهدايا القيّمة لمن أساؤوا إليه، فيا له من كائن خبير، قادر على الإحسان في أسوء الظروف، إنّه للغز يحيّر الألباب، و يعصف بالمفاهيم المتغيّرة، إنّه لعجب لمن يحاول الولوج إلى المعنى، بالنسبة لفعل هذا الإنسان من جهة الاجتماع كعلم، صعب جدا أن تدرك ما يريد، و متى يريد، و كيف هو ساع في إرادته، و التي تأخذ صورا، أقله تعقيدا معقد كثيرا عند وعي البشر البسيط. لعبة يدخلها عند مشيئته، و يربحها حين يتمنى غيره له الخسارة، يعيش بين النقيض و ضده، و يحلّ العقد ليغلق باب الاعتراف. سمّى نفسه بألقاب كثيرة، و مع ذلك دلّت على موجود واحد، لعلّ من لا يعرفه يحسبه شبح هذا الزمان، و لعلّ من عرفه خاله من ملائكة الشيطان، إنّه نار فوق علم، نور في كهف يكسر صمت الظلام، و إن لم يستطع أعاد كلّ شيء للانهاية الظروف، لا يعرف البياض المخبول، و هو على يقين ممّا في عقله يجول، و لكلّ من سبحوا في عواطفه فإنّه يقول:" أنا الذي ليس بأنا، أنا النور في القصور، و الفرح و السرور، أنا من لم تعجبه العطور، و سار رغم الجروح و الكسور.".

يقول طوماس هوبز: "إنّ شعبا يرضى بالخضوع للحكم الاستبدادي، هو شعب مجنون و أحمق". فلو تناولنا كلمة "شعب" بعيدا عن التأويل السياسي، فإننا نقصد به أنّ الفرد المنبثق عن شعب مجنون و أحمق يبدوا بعملية آلية، و في قالب الاستنتاج الصوري الأرسطي فردا مجنونا بدوره، فما هو المقصود بالجنون؟

إذا عدنا على ناحية المنطلق من الجانب اللغوي للكلمة، فهي من الفعل جنّ، يجنّ و بالتالي مجنونا و جنونا، أمّا من جهة الاصطلاح: فإنّ هذا المصطلح ينمّ عن الشذوذ و الخصوصية في نظر أحدهم أو الجماعة إلى حدّ ليس ببعيد عن العجب و الدهشة. و عليه فإنّ وصف العديد من الأفراد بالجنون، لهو أمر جيّد، عند تحفيزه للعقل وحثه على الاشتغال، قصد الوصول إلى الأخذ بأسباب و نقاط التقاء التفسير بالتبرير. إنّها لوجه واضح يشترك فيه الأشخاص بعينهم، إذا ما تشاركوا في قبولهم بحكم يبدوا لكثيرين على أنّه مستبد، ظالم، يأخذ الحرّيات إلى سجن الطمع و الكره الجليّ، سواء على عامة البشر أو الخاصة في اتجاه اللزوم الآلي، و الذي هو خاضع للجنون بسبب القبول الحرّ بإرادة الفرض و الإجبار. لكـن قد ينسى السيّد: هوبز أنّ الجنون يفقد مفهومه إذا ما ألصق بالجمع، فهذا المعنى قد يهضم في طريق بلوغ حرية الاعتقاد الكاملة بالأفكار التي تترجم إلى أفعال، و إيديولوجيات في أقرب الهيئات. و التي تبرز على أنها تقود الجماهير إلى برّ الأمان. كذلك اللفظ المعبّر عن الحماقة، فهي تُقرن في هذا القول بالجنون على نهج تبني نفس المصير، إنها تعابير تُعطي للمتلقي أكثر من تصوّر، إذا ما نُعت بها مفردا، لكنها تحتاج إلى نوعية أكبر من فعّالة لفهم الهدف منها، إذا ما نُعتت بها الكتلة الجماعية، كما جاء بها السيّد: هوبز. فلا يمكن إلاّ أن تكون ميزة الفلاسفة التي تُؤوّل المادة الخام إلى درجة الاستحالة العميقة، و هذا لا يقف عليه إلاّ من هو مِن طينة العظماء الخالدين.

فالحركة الفكرية التي جرت منذ خلق الإنسان، على مستوى كلّ المناطق و الحضارات، و الحملات الاستكشافية التي سبقتها أو تزامنت معها، شكلت مشهدا رائعا هو الوحيد التي يضيء دروب البشرية، فجعلنا نتفاءل خيرا بأنّ الإنسانية قد تكون نقطة انطلاقة كممارسة حياتية عادلة، تنسينا ذلك المشهد المؤلم لحدود جغرافية أو عقائدية و كبارا يسلبون الشعوب صفاتها السامية دون حساب. على من يديرون العالم اليوم، أخذ العبرة مما حدث في غابر الأزمان، و ليتعلموا أبجديات الصفاء، و ليكفوا عن التصرف في ذاكرة الكائنات المميّزة و الواعية بعيدا عن إرادتها، و على الصغار من المميّزين التوقف عن إعطاء الشرعية الشكلية للقرارات و البرامج الارتجالية الشاملة و الجانية في حق التفكير السليم.

سيسجل التاريخ أسماء كل المشاركين في المسرحية الرديئة للهناء الكامل في هذا العالم، هؤلاء الذين سمحوا لأنفسهم باللعب بمستقبل الغافلين لا لشيء إلاّ ليحافظوا على سلامة محسوساتهم، بينما نجد الشرفاء من المفكرين شرقا و غربا يقطعون خطوات شجاعة على صعيد نشر ما يظهر أنّه يرتقي بالبشر باتجاه الكمال.

إنّ الانطلاق من أنّنا ملمّون بمعاني التقارب سبب قديم يدفع الإنسان على اختلاف أجناسه باتجاه السلطة، منصب يُعَجِّلُ بنفاذ المسؤولية من أيدي الإنسان نفسه في حالات اتخاذ القرارات و العزم على تنفيذها، لكنّها و رغم كلّ هذا فهي باقية ما بقي هذا المخلوق في هذا الكون، و لو بأجزاء دقيقة، خاصة و أنّ هناك الكثير من علامات الظلم الفكري ممّا ولّد زيادة في حياة إمكانية تشبث البعض بأمل العبودية و الارتقاء، إنّ الاستعمار المعاصر ما يزال يبسط نفوذه في كلّ وجهة يظنّ أنّها تخدم مقامه أو تُطيل أمده، فيحارب الدين و يهجوا الأصالة، بينما يدفع بالمعاصرة الحقيقية إلى حبل المشنقة، لا لشيء إلاّ أنّها تمسكت بالحرية ذات الجوانب كافّة.

فكثرت في أيامنا الأفكار النارية و القصف بالثقيل في اتجاه نقيض المصلحة التي تخدم الأنانية، و كثر اتهامها بفرملة تدفق الصريح من المعاني الهادفة لتعميم الخير الذي يقترب من المطلق، خاصة تلك الإيديولوجيات المعبّرة عن الدين الخالص المُنزل و المُنزه عن التحريف حتى لو كان جزئيا.

الخصوم يتهمون النفوس الشريفة بوضع الإنسانية في دائرة "الخطر" و تفويت فرصة تاريخية على البشر لإصلاح ما أفسدته قوى الضباب و من حكم باسمها طيلة الماضي. لكن هل تلين قوى العداء الفكري أم تتحول مع ربيبها إلى آفة التاريخ الصحيح و التفكير الهادف على الإنسانيين و ما يدور في عقولهم؟

****

الناس يلمسون ما يسمعونه

أهلا بكم في مدينتنا، إنها ليست ككل المدن، لها مباني معرفية، أناسها علماء، وقتهم موزع بين المطالعة و المناظرة، و غيرها من صفات الإنسان الساعي وراء العلم، ضحكاتهم لا تُسمع بل تُرى، سمعهم شديد، و ذكاؤهم لا حصر له، أثاث هذه المدينة و تجهيزاتها رثة، قديمة، لكنّ مواطنيها تبدوا عليهم علامات الجلالة، سفيههم شاعر، و كبيرهم موسوعيٌّ، طفلهم روائي، و عجوزهم ينبش في تراب الحكمة، بينما مجنونهم فيلسوف بامتياز. يستيقظون باكرا ليطالعوا الجديد، و ينامون متأخرين لأنهم لا يتركون يوما يمرّ إلاّ و يأتون بالجديد، و في يوم من الأيام، و بينما هم يعيشون بسلام، دخل جاهل هذه المدينة، فراح يفتخر بجهله، راح يصيح و يصرخ قائلا: "أنا لا أعرف، و لا أريد أن أعرف، و أكره العارفين". و ظلّ هكذا لأيّام، يمشي في تلك الشوارع و يردد نفس الموّال، حتى تعب، و أنهكه المرض، فدخل مستشفا يعرض مرضه على أطباء تلك المدينة. فإذا به يندهش من الطبيب الذي قابله.

الطبيب: مرحبا بك يا إنسان.

الجاهل: دعنا من سخافتك، أريد الدواء.

الطبيب: ما علتك؟

الجاهل: مرضي أنتم، و ألمي أنـــا.

الطبيب: فهمت "أنتم" و لم أفهم "أنـــا".

الجاهل: أعني أني لا أعرف، و لا أريد أن أعرف، و أكره العارفين.

الطبيب بابتسامة تخفي نظرة ثاقبة: إذن! دواؤك عندي لقد أصبت المكان.

الجاهل: هاته قبل نفاذ صبري.

الطبيب: انعدام المعرفة داء، و إدراك الجهل إشكال وليس بمشكلة، و كره العارفين تبرير للرغبة و العجز في إدراك المعرفة.

فانفجر الجاهل باكيا، و احتضنه الطبيب قائلا: أنت لست بجاهل ما دمت تدرك أنّك جاهل.

****

إذا تكلم السيّد: ابن رشد سكت العالم و أصغى الحجر

أيها التافهون، أتركوا ابن رشد و شأنه، أتركوه يرتاح في قبره، دعوا الرجل الذي أنار الأندلس بنور علمه يهنئ بذنبه، ذلك الإثم الذي ارتكبه في حق نفسه، إنها الخطيئة التي تأكد وقوعها منذ أن حاول مساعدة المسلمين و تقويمهم بفكره، أتركوه، كفى حقدا عليه، إنه اليوم مازال يسمى بالضال و الزنديق!!!، فكان بحق مذنب حُكم عليه بالشتم الأبدي، و اللعنة القذرة عبر العصور، لا لشيء إلاّ أنّه أقدم على جريمة العِلم مع سبق الإصرار و الترصد.

نعم، ارتكب الجريمة على مرأى المجتمع الإسلامي و بحقه، عار ما بعده عار، أيّها السفهاء لا خير فيكم و أنتم تبصقون على قبور علمائكم، لا فرج يبدوا قريبا و أنتم تُفقدون المبدأ قيمته. كدتم المكائد للرجال، و سلبتم الفكر حريته السمحة، و الآن تتطاولون على الدين؟

أرجوكم توقفوا عن إهانة الأمّة، كفى يا ذباب الفكر، لا نحتاجكم، لا نريدكم في مجتمعاتنا، أنتم مقززون، أنتم تثيرون الاشمئزاز كلما تلفظتم بسوء لعمالقة الفكر العربي و الإسلامي، آه منكم يا صغار الشعوب و أرذلها، فلا عجب من أنّ الغرب سمّى ابن رشد بـ"AVEROES" لأنكم لا تستحقونه، و لا هو يحتاجكم على الرغم من شفقته عليكم، و التي ظهرت في إفناء حياته في سبيل عزّة الشريعة و الإسلام بوجه عام، فكان جزاؤه نكبته الشهيرة على يد بني جلدته، وصمت عار يبعث على الخجل في جبين كلّ مسلم، سبحان الله، و لا إله إلاّ الله، و الله أكبر.

و ما ينطبق على ابن رشد ينطبق على الكثيرين غيره، إنه الزمن الذي أمقته مقتا شديدا، و أنا أشهد على هؤلاء المتطاولون على عمالقة الفكر الإسلامي.

أيها الشرفاء سواء كنت ابن رشد أم الغزالي أو الكندي أو ابن سينا أو ابن طفيل، ابن باجة و القائمة تطول، أيها الإنسانيين الكبار الذين علّموا الإنسان طرق الإنسانية الخالصة، رحمكم الله و تقبلكم في جنانه مع الصديقين و الشهداء و الصالحين،و تقبلوا مني جميل الاعتذار على ما بدر من صغار القوم فهم بكم جاهلين، فعفوا يا سيّد الأندلس، و شكرا على ما قدّمت، فإن كنت من السابقين، فإني أنا من اللاحقين.

****

الحق في الحقيقة الحقيقية

" يستطيع قضاة هذه الدولة أن يدينونا من أجل ما فعلنا، و لكن التاريخ الذي يجسد حقيقة أسمى سيمزق ذات يوم هذا الحكم، و يحلّنا جميعا من خطيئة لم نرتكبها." [1]

نعم، هي الحقيقة التي تتكرر في كل مناسبة، في كل لحظة حاسمة، في كلّ عنوان مميّز، في كل عقيدة ذات مصداقية، و الأدهى في كلّ هذا أنها رغم تكررها المستمر فهي ما تزال مجهولة، غائبة عن الإدراك و التعريف، و هنا يمكن أن نطرح التالي الذي يبدوا غريبا بعد كل ما تمّ من التنظير و البحث فيه، ما هي الحقيقة؟

[1] أدولف هتلر، كفاحي، ترجمة لويس الحاج، بيسان، ص376.

الحقيقة لم و لن تكون الحرباء التي تبدل لونها بحسب المنتمي إليه، إنها شفافة لدرجة أنها لا تخفي شيئا وراءها، و قاسية لدرجة أنها لا تترك منفذا لغيرها، و عذبة لتروي كل عطشى التفكير و البحث، لأنها الطرح و الحجة، و هي البلاغة و البرهان، إنها الصدق الكاذب، و العلم المجهول، بالإضافة إلى كلّ المنمقات الممزوجة بالصراحة و الصرامة و الاحترام المكنون لكل ما هو جدّيٌ و مرح، لدى فالحقيقة مطلوبة في كل الاتجاهات، و عند كلّ الشخصيات و الأشخاص كما المؤسسات و الأنظمة. إنها الحق و الصحيح الذي يكرهه الظالمون. فالرجل الميّت ما يزال يبحث عن حقيقة الحقائق، و التي تمثل بالنسبة إليه ذلك السنجاب الذهبي، و التائه معظم الوقت بين الأزمنة و الأماكن.

قال إمبراطور العالم عندما دخل السنجاب الذهبي إلى المكتب الإمبراطوري: "دعنا نرتاح". تحرّك الإمبراطور الظالم باتجاه المقعد المفضل لديه، قرب الموقد الموضوع بين واحدة من المجموعتيْن من الأريكات و الكراسي في المكتب ذا الأبعاد المعروفة.

جلس الإمبراطور الظالم على الكرسي المواجه للساعة حيث يجلس الزعماء و القادة عادة، و جلس السنجاب الذهبي في النهاية القريبة للأريكة الصغيرة المجاورة ذات اللون المزركش حيث يجلس الحق عندما يكون، مجرد زائر منفرد. لقد سبق و أن كان هناك عدّة مرات و عرف قواعد الجلوس المعقدة، و بعدما اجتاز كل هذا عاد تفكيره بسرعة إلى حديث له مع الإمبراطور قبل لحظات من المؤتمر الصحفي في منتصف الماضي حيث أعلن الإمبراطور تنصيبه....

نعم ربما كانت هناك كلمة "الرجل الميّت" بين التي نادت عدّة مرات "السنجاب الذهبي". و لكن السنجاب الذهبي لم يفكر شيئا حول ذلك. لم يكن يعرف في ذلك الوقت تحمّس الإمبراطور الغريب للألقاب التحببية.

لقد عرف الآن. و جلس على الأريكة... و هويته كانت: رجل عجوز في العقد الأخير من العمر يدعى الرجل الميّت. قال بصوت ينبح مهتما بالعمل فقط: " إذًا ماذا لديك؟".

كان بعد ظهر يوم المصير، الثامن و الخمسون من شهر الموت، اليوم الثامن لسلطة الإمبراطور الذي يقوم بالدعوة للاجتماعات. إنه بروتوكول تقليدي.

قد يقترح السنجاب الذهبي الحاجة للدعوة إلى اجتماع على شخص مثل الرجل الميّت أو العذراء القاتلة و الذي سيقوم بتمرير الدعوة بعد ذلك، و لكنّ الإمبراطور هو الذي يصدر الاستدعاء.

حصل الإمبراطور على مذكرة السنجاب الذهبي، و قد تصوّر هذا الأخير أنهما سيناقشانها، ثمّ سيطرحان كل ما عرض على بساط البحث. قال له العرّاب في وقت سابق إنّه ربما يكون مفيدا للإمبراطور الظالم أن يقوم بمثل هذه الاجتماعات في بداية عهدته، لكي يكون على دراية بما يجري. اختير السنجاب الذهبي كونه وزيرا ليكون الموجّه الأوّل للإمبراطور فيما يتعلق بالرهانات الزهرية، فقدّم بحثا مطوّلا استغرق ثمانية عشرة دقيقة كما اعتبره الرأي المتشكل. و قال إنهم في المراحل الأولى لركود معنويّ معتدل ظاهريا أو لهبوط واضح في النشاط الفلسفي للوقائع. كان المبدأ الأساسي هو البقاء هادئين، و مراقبة الأفكار. قال إننا إذا بدونا قلقين و تكلمنا كثيرا عن هذا الركود فذلك سيضعف العزائم، و يشجع انكماشا في النشاط الذهنيّ. فسّر السنجاب الذهبي أنّ المشكلة الكبرى لم تكن "ضياع التصريح بالحقيقة" – فهناك الكثير منها، و التي لا تستطيع أن تجد مكانا مريحا لنفسها. تكمن المشكلة في جهة الاستقبال. و أكّد للإمبراطور أنّ الحقيقة تؤيّد الكآبة لدى بعض "الباحثين المثاليين" أشار السنجاب الذهبي إلى بعض مفردات مذكرته. يجب أن تكون الأولوية لتخفيضات الأوهام الهامشية إن أمكن تحمّل نتائجها. قال إنّ خطة تخفيض التشاؤم، و مع أيّ تعديل قد تمّ اقتراحه

حتى الآن، لن تؤمن حافزا يقاس في الأمد القريب، و الأمر الذي سيحدث آثارا شعورية ايجابية هو "الشعور بأنّه تمت المحافظة على الكرامة" – شيء يدعم مناطق الإحساس العادية و يبقي نسب كراهية صفات الحق الطويلة الأمد تحت المراقبة. كلّ ذلك ليستجيب لخفض الأكاذيب من المستقبل الذي يبدوا مشوّها. كانت هناك الكثير من الأسئلة التي توقع السنجاب الذهبي أن يسأله إياها الإمبراطور الظالم. و كان مستعدا للإجابة. كم كان حجم الراحة من وجهة نظر السنجاب الذهبي، و كم كان قريبا من الواقع؟ كيف يمكن تنظيم الاقتطاع الإيماني؟ ماذا عن إصلاح الحب و الرعاية العاطفية الذيْن يكسران القلوب؟ كيف سنعلم ما إذا تبدل الإحساس؟ ... لم يسأل الإمبراطور الظالم شيئا، و نظر إلى السنجاب الذهبي دون أن يغيّر تعابير وجهه. و دون أن يُظهر أي ردات فعل، ايجابية كانت أو سلبية. لهذا قرر السنجاب الذهبي الانتقال إلى موضوع ذي صلة. "التصريح بالحقائق" ، كانت هذه قضية مثيرة للجلبة – فقد تأذت الصراحة في بلاد العرب الجدد و طالبت بالحماية. قال السنجاب الذهبي: "لقد كنت واضحا خلال حملتك الانتخابية حول موقفك الداعم للنقاش الحر بشكل مثير للإعجاب – إنه الموقف الوحيد الذي يمكننا اتخاذه، و ليست هناك إمكانية لجعله خاضعا للقيود". اقترح كونه وزيرا جمع كلّ المبادئ و إنشاء نظام من العقليات و التنازلات المشتركة سيجنبنا خوض حرب القيود. لقد سبق و حاول القيام بالبعض من هذا ليحصل على نتائج جيّدة في إدراك الهناء. لم يقل الإمبراطور الظالم شيئا. لم يطرأ أيّ تغيير عن تعابيره. الموضوع التـالي... يختلف أسلوب كل إمبراطور عن الآخر بالتأكيد. و لكن كان السنجاب الذهبي يستند إلى المقارنة بشكل أساسي. الإمبراطور الكئيب، و الحالم، و المتوحش و الحاقد الذي التقى به أربع أو خمس مرات خلال فترة حكمه في جلسات طويلة لمناقشة قضايا التفكير. و في كلّ مرة كان يصل و هو على أهبة الاستعداد للنزاع و الاشتباك. سوف تحل الأمر. كان مشهورا بذلك الشيء. كان ذلك سبب استدعائك إلى المكتب الإمبراطوري. لقد التقيت بالإمبراطور الظالم لتجيب عن الأسئلة. تذكر السنجاب الذهبي: "تساءلتُ منذ البداية عما إذا كان الإمبراطور الظالم يعرف الأسئلة التي عليه أن يسألها، أم هل عرف و لم يرغب بمعرفة الإجابة؟ أو هل تتضمن إستراتيجيته عدم إظهار رأيه؟ لكن يمكنك أن تسأل أسئلة و تجمع معلومات و لا تكشف عن نياتك بالضرورة. كان ذلك غريبا". بقيت مسألة الإفصاح عن الحقيقة معلقة، و هزّ السنجاب الذهبي رأسه – فإذا كانت هذه مناجاة للنفس فمن الأفضل أن يحوّلها إلى أغنية. لقد كانا في مؤتمر الأخلاق منذ ثمانين سنة، لذا فقد بدأ: "لا يجب أن نتخلى عن أي كذبة، يعجبني هذا، و لكن الفكرة التي تجعلنا نتقدم إلى الأمام حقا – خطة يقين فعليّ – هي كذبة واحدة كل مرّة". كانت هذه فكرة اختبرها لسنين مع مملكة الأخلاق حيث نحتاج إلى تفويض مخصص يقيّم فيه المعتقد باستمرار، "كل كذبة على حدة" للمساعدة في إنشاء إستراتيجية تعلّم ذهنية ملء الفجوات و تطوير الإمكانيات العقلية. "إنها إعادة التفكير بما هو غير ممكن يا سيدي الإمبراطور. فلا شيء يفوق أهمية تعزيز إمكانياتنا البشرية كأمّة – إنّ مستقبلنا يعتمد على ذلك". غيّر الإمبراطور وضعيته في الكرسي المفضل لديه و قال: "طبعا، هذا هو مبدأ التفكيك" – و هو مصطلح يستخدمه العارفون بالأمور ليحللوا علامات التدقيق – "أنـا ملمّ بذلك". تساءل السنجاب الذهبي عما إذا كان عليه أن يشير للإمبراطور أنه يمكن قد أخطأ في استعمال المصطلح و لكنه غيّر رأيه. بدل ذلك تكلّم عن الحاجة إلى أن نقيّم بدقة كيف يتم الإفصاح عن ما هو دفين في مناطق رئيسية، و كيف نستفيد من كلّ ابتسامة و نستعملها في المساعدة عبر السنوات... ماذا كانت الأهداف من هذه التضحيات، و ما كانت النتائج. ما إن نحصل على تلك العلامة سيكون من المناسب أن نفحص ما إذا كانت مؤسسات مثل القلب و العقل تحتاج إلى إعادة تنظيم. بدا أنّ

الإمبراطور أومأ بإيجاب، و لكن السنجاب الذهبي لم يكن متأكدا تماما من ذلك. عرض السنجاب الذهبي مستخدما المثال ذاته بنيةً لتقدير دور الحقيقة في الأزمات الروحية. لم يعد السنجاب الذهبي ينتظر أيّ إجابة. ناقش السبل لتطبيق "تحليل القيم" على إصلاح العواطف الداخلية للرعاية المعنوية، و هذا مجال اعتبر فيه من قبل الكثيرين واحدا من أفضل المفكرين المبدعين في النفس. ثمّ قدّم بنية تحليلية مماثلة ليقدم اقتراحا لحلّ كوارث الهيجان، و وضع دور مناسب للعقل. أخذ السنجاب الذهبي نفسا عميقا. في المكتب الإمبراطوري كانت ساعة الحائط العائدة للقرن الثامن عشر بطول ثمان أمتار و عرض متر تقريبا و المصنوعة من الخشب مواجهة لظهره. نظر بسرعة إلى الساعة، إنه يتكلم منذ مدّة تزيد عن الثمانين دقيقة. كان الموعد محددا لثماني ساعات. "حسنا سيدي الإمبراطور، لننه حديثنا بالتكلم عن تغيّر المزاج البشريّ". أرسل السنجاب الذهبي، مع مذكرته عن إستراتيجية الاقتطاع الإيماني، كتيبا أصدرته شركة الإحساس في العام الثامن و الثمانين مع نص لخطاب شامل ألقاه – تحليل كامل للقضية، ما تمّ التوصل إلى معرفته و ما يزال مجهولا، و مبادئ لتوجيه العمليات العقلية. بدا الإمبراطور أنّه يشير بإيماءة من رأسه إلى أنه قرأ ذلك. و لكن السنجاب الذهبي لم يكن واثقا مرّة أخرى. تابع السنجاب الذهبي كلامه، مضيفا آراءه الحالية عما قد يمكن أن يفعله الإمبراطور في تلك القضية – نقطة وميض للشعور الايجابي. حدد الأخطاء في اتفاقية الحقيقة المطلقة و قدم أفكارا عن طريقة تصحيحها. كلا منهما دقيقان، و انتهت المدّة. وقفا في نفس اللحظة ليتصافحا. "أحضر لي خطة عن الإقرار بالحقيقة" أومأ السنجاب الذهبي مندهشا قليلا. قال الإمبراطور ذلك مرّة ثانية: "أحضر لي الخطة" قال السنجاب الذهبي: "نعم، جيّد، سأضع الخطة.". ثمّ انسل من المكتب الإمبراطوري متسائلا عما إذا كان ذلك يعني أنّ عليه الاتصال بمديرة وكالة حماية الأخلاق، و هي الشخص المختص للتعامل مع ذلك المجال – أم ألا يتصل بها. إذا كانت الأكاذيب قد فرضت على عامة الشعب، فقد بقي لهم الخيط الرفيع الذي يقود إلى الحقيقة، ينسخ ظلامهم بمدد سخيّ من الوعي. فعلى هدي ذلك النور، سرى الشعب في ليله المظلم، محققا وجوده الحر، و من ذلك المنبع الصافي، نهل الشعب مبدأه، و هو يستجمع قواه ليرفض الظلام و يرجم الرداءة. و في مدرسة الحياة، تلقي الشعب الشحنة العاطفية، في هدي ما وعى من الحقيقة النقية، يتلوها الإنسان مصبحا و ممسي، تعلمه الحكمة، و تفرض عليه سلوك طريق الحق، أن يهبّ رافضا العبودية، و يسعى إلى سعادة البشرية الحقيقية. "...فالقانون لا يتضمن معيارا للحقيقة، و إنما يتضمن أمرا بما يجب أن تعدّ به الحقيقة". [1]

تنظر في أعماق النفس، فلا تجد للنفس من أغوار، لها مباني شاهقة، لها ثقوب كثيرة، و لها معاني تقترب من المستحيل، تجتمع حينا، و تأخذ من الأشلاء صيغة واضحة، في كثير من الأوقات. لعبة هي، يكاد الإنسان يخسرها، و لكنها في ذاتها ملكا له، يلعبها عند ضجره من مخلفاتها، و يتركها عندما يصرّ على ذلك، لعبة الخاسر فيها يربح نفسه، ذاته و مصيره، و الرابح فيها يُخبئها في صناديق الخزانة السوداء، لعبة أدخلت الفرح إلى قلوب البشر، لكنها أدمعت عيونهم في الوقت نفسه، فقد تبدأ بمعاني الشيطان، و تنتهي بهمسات الصالحين، بالقدر تُنعت، و بالمجهول تُسمى، لكنها طريق لا يعلم أحد اتجاهه، أو طوله، و على الرغم من كل ما يُحكى و يُعرف عنه إلاّ أنّ الجميع يسير فيه. سلام على بيان، أين يضيع اليقين، سلام أخذ من البرهان وهما حقيقيا، وُصف بالجلالة و عمّه الصدق في كلّ الأطراف بينما الاستعلاء لقنه دروس الممسك بخيوط الخلاص. عيناه تترجمان اللغة الجاهزة، بينما قلبه يحفظ الأشعار القوية الدلالة. لعنة الماضي تلاحقه، لكنها لا تعرف أثرا له، و لماذا هي في أثره

[1] عبد الرحمان بدوي، نتشه، الطبعة الخامسة، وكالة المطبوعات 67 شارع فهد سالم – الكويت ص205.

تكدح. سموّ فوق سمو، تغرد كوحش أليف، يحبّ الشراسة على من هم يبجلون اللطف، إنها لم تُعرف بعد، و لكنها باقية ما بقي حيّ على هذه الصخرة الزرقاء الصغيرة. لأنّ الإنسانية هي التي تفوز دائما و أبدا.

إذا كانت الحقيقة في المجتمعات المتقدمة كيانا انفعاليا، يجد مراجعه في جدلية المصالح النفسية، نتيجة لصيرورة عاطفية و بناء معنوي، أدّت إلى إحداث القطيعة مع الماضي و اتخاذ النهج العقلاني سبيلا لإدراك المتغيرات، فإنها عندنا هي وليدة مسار عنيف من التصادم و الانشطار. الشيء الذي يُظهر الدين و العادات و التقاليد، و كأنها الإطار العام الثقافي و المجتمعي لانبعاث الأمّة، مما جعل سلطة التقليد تتدخل بصفة جذرية لصياغة الطريق العربي، إن لم نقل خلقه من جديد. في سياق إخضاع أمل الفرد العربي و إعادة صياغته ليتماشى مع الإيديولوجية العالمية في بلورة تبعية الأمم، أضفت السياسة المتبعة من النخب العربية إلى بناء سلطة جاذبة و غير قوية، بمعزل عن مؤسسات القيم و المبادئ، التي أضحت هياكل بدون مضامين. إنّ الجمود الحضاري المصاحب للممارسة عند العقلية المتخلفة، راجع إلى ملابسات تاريخية حالت دون انتقال الوعي العربي إلى الممارسة الفعلية، المبنية على الإنسانية و مؤسسة المبادئ المتغيّرة نحو الأفضل. إنّ إخفاق المشروع الحياتي العصري في مناطق العرب، يرجع إلى غياب شروط تجسيد الإنسانية الحقيقية، إنّ الأيام بيّنت بأنّ الشعوب العربية لم تعمل على بعث روح الهناءة و الحب، بالإضافة إلى القبول بالآخر على أنّه مختلف عنّا، أمّا العرب الجدد فقد استغلوا هذا الشعار للاستفادة من مشروعية منطقية قديمة. إنّ استمرار منطق المشروعية الأخلاقية المزيّفة، من شأنه أن يُبقي العيش تحت ظلال الإنسانية الحقيقية للوطن العربي في حكم المؤجل، لأنه يؤدي إلى نهاية كل صيغ الحل الحقيقي لأزمة النفسية العربية المتأزمة جوهريا.

إنّ المبادئ السامية كالحقيقة، العدالة و الحرية هي ركائز يُسعى إليها، فهي لا تظهر من تلقاء نفسها، و هذا السعي يجب أن يكون شريفا، صادقا يقترب من النزاهة كثيرا و إلاّ خاب الساعي، و هنا مصبّ الآليات العملية للحصول على المراد الأسمى. إنّ الذي يعيش عصر الانفتاح بقلب الانغلاق فاشل منذ البداية، و عليه ينكفت فشله، فالحياة لا تنتظر الخاملين، و لا تقدّر أو تعترف بالعدم، أيّ أنّ على الساعين إلى الوجودية بمعناها الجاف أن يراجعوا حسابهم القديم، خاصة عندما نجد في الألفية الجديدة الفيلسوف العربي يؤمن بهذه التي تُسمى "الوجودية" قولا و يئدها فعلا، إنها عدّة هزات ارتدادية للذهن بعد خروجه من الهزّة الرئيسية كما يراها جيولوجيو التفكير العربي الجديد، فليكن واضحا أنّ الصدق هو أوّل الانطلاقات، و على كل فرد إصلاح أناه، و إلاّ ما فائدة تجميع الفساد في بيدق واحد؟

إنّ لمن السهل نقد الآخرين، أو على الأحرى انتقادهم، و إظهار عيوبهم، لكن من الصعب جدا انتقاد النفس القريبة منك، لدى علينا أكل أنفسنا قبل أن يأتي من يأكلنا، و كم هي عسيرة بعد استبداد ذواتنا و استمرار سلطتها علينا نحن العرب الجدد. إنّ إيجاد منهج حياة ملائم في الطبيعة و العلم لمن الأمور التي تنال اهتماما رئيسيا في أيامنا هذه لأننا نعيش أكبر ثورة علمية منذ القرن السابع عشر، فالمفاهيم و المناهج المتضمنة في الطرق الفعلية لسير الدنيا قد تغيرت تغيّرا أساسيا، و معرفتنا الفلسفية بأنماط سير الوقائع و وظيفتها هي شاملة لحدّ أنّها ذات مفاهيم العقل و الإيمان، التي بنيت عليها طريقة حياتنا الراهنة بكاملها لم تعد قادرة على الصمود. فالفلسفات الوجودية بصيغها الميّتة تبدوا منقسمة على قضايا هامشية، و في النهاية على السؤال عن المنطق العربي الجديد الذي يُعتمد عليه لتقييم المناهج و المقولات. الحياة التي ترتبط بالنظام المنظم لمسارها تعتبر التركيب المنطقي للمسؤوليات هو الشيء الأساسي. فهذا هو المبدأ الذي اتخذه الناجحون من الشعوب الرائدة أساسا

تُقاس عليه كلّ الأحداث، خاصة تلك المرتبطة بشكل حاسم بنتائج الإفرازات اليومية، خلال ما تكوّن من أساسات تأخذ من الثقافة الدافع و الحافز للاستمرار بالتحرك نحو الأمام إنهم "العظماء الشجعان المتواضعين الذين يعيشون بيننا أمثلة حية على أن القيادة خيار و ليست منصبا"[1] إنهم القادة الحقيقيون للأمّة، و الذين دفعهم الظلم إلى العمل من وراء الستار، هم على عكس العادة شباب في مقتبل العمر، يدفعون بأيام قوتهم ثمنا لإنقاذ هذه الأمّة، إنقاذها من نفسها إن صح التعبير. فلم يتوقف حماسهم عن النبض، و عجلاتهم تقدم التفكير العلمي السليم سوى عقيدة "العامية" السقيمة التي سادت في عهود تكميم العقول قبل الأفواه، و التي لا تزال في نظر كثيرين عقيدة أساسية في الحياة. استمعوا أيضا إلى الفلاسفة يتكلمون عن الحياة فيما بينهم، و سيتكوّن لديكم انطباع سريع عن كون أرنست ماخ (Mach) لا تعزوه الحيلة، و هو يرد على قول وليم جيمس (James): "لكل عالم فلسفته" أي و بعد التعمّق قليلا : "لكلّ فيلسوف طريقته و نظرته إلى الحياة" بشكل أوسع، فلا مناص لتحليل عام لحالنا اليوم من النظر الدقيق في كلّ التفاصيل. و بهذا الشرط نتوصل إلى نظرية خاصة بنا سليمة فعلا و دينامكية حقا، مشبّعة بالإنسانية الفعلية.

****

من اليُسر أن تكون سعيدا

طبعا !! السعادة هي الهدف عند جمهور عريض من اللاعبين في هذه الحياة، و كل واحد من هذه الفئة الشريفة أو المقرفة، يجدّ و يجتهد، و يضيّع الوقت و المال و كل ما تشتهي نفسه من أجل بلوغ السعادة، ربما اعتقادا منهم أن البشر قصير الفكر، و ربما توهمهم بأمور عديدة تدغدغ مشاعرهم على اختلاف أنواعها، و لكن في الأخير، و كما يقول إخوتنا في الجزائر: "الصَّحْ يَنْبَتْ".

فترى الأطفال يمرحون و يسرحون، يلعبون و يتشاجرون، أمام أعين أحبائهم، فتكثر التعليقات حولهم، و تشدّ الأنظار إليهم على درجات، فهناك من يعتبر منهم، و هناك من يقزّم أحلامهم، و هناك من يحثهم على البذل و العطاء، و هناك من يحسدهم على براءتهم، و هناك من يتمنى لهم الفناء حتى لا يعيشوا أحزانا كالتي عاشها هو، و لكنني أجدهم ورودا بعثت من الجنان لتزيّن حياتنا الجرداء، فهل هم حقا سعداء؟

أما بالنسبة للشباب، فإنك تجدهم يلهون على هواهم، فمنهم الطموح، و منهم الجاد، و منهم العابث، و منهم المتهور، و منهم الغير مبالي، و منهم من يسير مع التيار، و منهم من يسير ضده، فتسمع من حين لآخر ضحكاتهم، و أحيانا صراخهم، و كأنهم يضربون للدنيا ألف حساب في فترات، و لا يدركون أنهم حقا في هذه التي تسمى بالدنيا في أوقات أخرى، و لكنني أجد في هذه الفئة طاقة هائلة، إن هي وجهت بالشكل السليم جعلت الحياة نعمة، و إن هي جمحت عن الصراط المستقيم حوّلت الحياة إلى نقمة، و أسأل: هل الشباب مرحلة نلمس فيها السعادة؟

[1] ستيفن كوفي، العادة الثامنة من الفعالية إلى المنظمة، ترجمة ياسر العيني، دار الفكر بدمشق ص: 21.

و لعلنا لا ندرك تلك التي يصطلح عليها بالسعادة إلاّ عند اقترابنا من النهاية، أي في مرحلة الشيخوخة، مرحلة التجاعيد، و الضعف و الانكسار، هي مهلة يقضيها الفرد متخلصا من أعباء الزمان، و مشاكل الدهر، فيأخذ على عاتقه إعداد نفسه للعبور إلى مرحلة الخلود، أين تشهد هذه الحقبة من تاريخ الوحدة الإنسانية عملية مراجعة شاملة لما حققته النفس من أعمال، بصالحها و طالحها، فهل مع اقتراب فناء الإنسان يجد سعادته؟

لا أظن ذلك !! فالسعادة عندي هي خيار نختاره، قد يكون إراديا، و قد يكون عفويا، فالأمران سيّان في اعتقادي، و يؤديان إلى نقطة واحدة هي: فلاح الإنسان.

فإن أردت أن أعرّف السعادة، بإمكاني أن أقول أنها عبارة عن راحة، تمتد من الخارج إلى داخل النفسية البشرية، و تمرّ عبر حواجز سيكولوجية و انفعالية في الوقت نفسه، و لكنها تحدث عند اجتماع عامليْن:

1. **المؤثر الخارجي (ترتيب الظروف المادية و المكانية)**
2. **المؤثر الداخلي (الاستعدادات العقلية و الذهنية و الشعورية)**

و عنهما تنتج حالة من الصخب المطرب داخل الإنسان، فتحفز مظاهر الفرح على الظهور من ابتسامات أو ضحكات، و حتى بعضا من الدموع.
فهي حالة طبيعية في الفرد، و ما على الإنسان إلاّ أن يبحث في أعماق نفسه، و من حوله حتى يتمكن من تجسيدها، و بالتالي يكون سعيدا من ولادته، و حتى مماته، فهي لا سنّ لها، و لكنها معدية لمن نحبهم و يحبوننـــا بصدق.

****

هو ثابت عندي

الظلم هو ما يقود الإنسان إلى فقدان صوابه، ما يقوده إلى الركض وراء الأهوال، و يجعله يموت من أجل لاشيء، هكذا نفسّر الكثير مما يحدث اليوم في البلاد العربية، و هذا ما جعل الأفراد تسأل أكثر من مرة عن السبيل إلى بناء مجتمع متوازن، يخدم الإنسانية، و يتعامل مع الظروف الصعبة، و هذا ما يجعل الرجال المخلصون يأملون في غد أفضل.
لربما كانت الشعارات أكبر من أن تساق في مقام العنوان الأبرز، ذاك العنوان الذي نجده في أفكارنـــا المميتة، قبل أن نجده في عقولنا التي ماتت، أو بالأصح قتلت، و القاتل هي أنفسنا الظالمة، لكن الواضح تماما هو ذلك اليأس الذي تسبب بحالة الضياع العربية، و التي لا تزول بسهولة كما يبدوا، تلك العشوائية التي نتخبط فيها منذ زمن بعيد، ذلك الذي يسمى عندنا بانعدام الثقة بين الأصدقاء و الأقرباء و الحكام و المحكومين و الناس جميعا، إنها لغة العدم التي تمركزت في قيادة العالم الجديد.

سأكون صريحا إن أنا هاجمت نفسي و اعتبرتها عاملا مساعدا في هذه الحالة المتفاقمة، و لكنني أزيد على أنّ الجميع يتحمل المسؤولية و بشكل غير متساو على هذه الحال، إننا نتشارك المسؤولية كما نتشارك المصير.

و لنا جميعا يد في كل ما يجري، و هذا لسبب مباشر، و آخر غير مباشر، تتفرع عنه الكثير من الأسباب الفرعية، و هناك الكثير من اللاعبين في هذا المجال، و خلف ستائر المسرح العربي يقع الكثير من العقد و التعجيز.... نعم! إنها لعبة عالمية بعقول غربية و أدوات عربية خائنة.
و رغم هذا أنا أسأل: بأيّ شريعة تريد أن تقودني في ركبك؟ أو لأكون أدق: بأيّ شرع تريدني أن أكون معك؟
و هنا أقف لأقول: ليست مصيبة أن أكون عربيـــا، لأنني جزائريّ، و لن أدخر جهدا في السير في الطريق التي أنا أراها مناسبة، فلا اللغة عار، و لا العرق الإنساني حجة علينا، و لا ضعفنا أبديّ.
أيها العرب الجدد فكّروا ! لن يكون الاستنتاج السليم مستحيلا إن أنتم فكرتم قليلا، و اعلموا أنني أقوم بكل أعمالي طواعية، فأنا مسلم، عربيّ جزائريّ، ليس لأنني ورثت كل هذا، و لكن لأنني أنا الذي اخترت هذا.

****

غزل الموت

الأحياء هم أولى الناس و أعرفهم بالخوف من الموت و الفنـــاء، و مع أنّهم متيقنون من أنه آت مهما طال الزمن، إلا أنهم يؤكدون على خوفهم الفوبي هذا كلما توفي أحدهم، و سارت الجنازة إلى المقبرة.
إنها لغة الصمت المخيف التي تتربص بالأحياء كلما تذكروا أو تدبروا في المصير.
إنني كلما تمعنت في كل ما يدور من حولي، فإنّ العالم يسير في فلك هذا الخوف، "الخوف من عواقب الموت" و لكل فرد ميزاته التي تميّز تصوراته و سلوكياته، خاصة عندما نذكر الجنّة أو النـــار، أو نذكر الجزاء أو العقاب، و كل هذه الأفراد تحاول الانفراد بالفوز بالنعيم، و الابتعاد عن الشقاء الأبديّ.
إنها معضلة واقعية للإنسان منذ نسي أنه إنسان، و كل ما يهواه هذا المخلوق، هو الفوز، لأنه يمنحه شعورا مقتضبا، عابرا، و غير دائم، سوى ثواني قصيرة جدا، لا لأمر سوى أنّ المستقبل الجميل ينتظر الزاهدين أو العاملين، و للبقية أن يتبعوا خطوات أسيادهم دون نقاش، و أن يعبدوا الأهداف في ظل هذا الشعور السيئ على درجات.
و من هنا وجب علينـــا أن نشير إلى دور الأديان، تلك المناهج و التعاليم التي حركت خوف الإنسان، و استثمرته في خدمة البشر على حساب الأجناس و الأعراق، و الأمثلة موجودة أمامنا، لا لأمر سوى أنّ البعض منا يدعي أنه وكيل للسماء، فراح يستبيح و لا يستبيح، يضيف و يلغي، آخذا الشرعية من قراءة ذهنيته للمقدس، و مشروعيته من صورة مدهشة في أعين الناس، مما جعل الزهد و العمل يتزاوجان على رأس الجيفة الطاهرة، هكذا خرج الفضل من رحم المأساة، و استرسل في قهر العقول و ظلم المخالف لأصدقاء السماوات، أو على الأقل هكذا يبدوا لي.

الموت سيأتي! فلما الخوف من المصير؟ من أخبرنـــا بقدومه من غير السماء؟ من جعله مسلمة نخضع لها من غير الأنبياء؟
أيها الموت مرحبا، أنا أنتظرك منذ زمن، لأحييك على ما فعلته بحياة الإنسان، فالمخلوق المقدس اليوم مرتبك، و أمم بأكملها تخشاك، حتى أنها تطيع من يعد أبناءها بالنجاة من ضفة الحياة الأخرى، كما أنني أحيي هؤلاء الدهاة الذي يعبثون بشعوب كثيرة، و بكل الشرائح الاجتماعية، فلا فرق في دوامة آلتهم بين مثقف أو جاهل، و لا بين فيلسوف أو عاميّ بسيط، و لا بين قويّ أو الضعيف، كلهم عبيد لوكلاء السماء، و كلهم مغرر بهم بشرعية زائفة، خائفة و متقنة الصنع بأنامل عقول مثل عقولنا، و لكنها عرفت الضعيف فينا فحركته بكل ذكاء، ليبقى مصيرنا يخدم مشاريعهم مقدما لهم الولاء، فيا أهل الخوف استيقظوا، و لا تخافوا من السماء.

****

اللـــغة الشبه-ميتة

عندما نحدق جيدا في لغتنا العربية فإننـــا نجدها جميلة جدا، و جذابة للغاية، و حروفها التي تصنع كلماتها من أروع ما تراه العين الآدمية من رسم للمواقع الرمزية، و لكننا في كل هذا نكاد نجعلها قريبة إلى الفن منه إلى الاستعمال، و مع ذلك فهي تستحق القراءة و المشاهدة بشكل لافت جدا.
أما من ناحية المعاني و البناء اللغوي فيطيب لنا أن نتحدث عنها خلال كل لحظات حياتنا و لا نوفيها حقها كاملا، لأنها أكبر من تقول لا للجمال و الفصاحة، و أقوى من أن تغيب عنها الدقة و التبليغ، لدى كانت أحسن اللغات السامية على الإطلاق، و سيّدتها على مرّ السنين.
و لكن !! و مع أنّ هذه الكلمات أقل من أن توصف به العربية كلغة، إلاّ أنني أرى أنها أصبحت عاجزة، و غير قادرة على إتمام المشوار الذي بدأته منذ آلاف الأزمان إلى اليوم، فأراها تقف أمامي بكامل رونق الحسناوات من حيث المعاني و إيصال الرسائل الروحية، بيد أنّ الحسناء الجميلة خُلِقًا بدأت تتداعى على أنغام الدهر، حتى درجة العجز خلقِيا، أيّ أنّ المعنى الذي تحتويه، لم يعد يجد لنفسه المبنى العالمي و الحديث الذي يعطيه كامل حقوقه البلاغية، و هذه هي مشكلة اللغة العربية في الألفية الثالثة!.
و على ضوء هذا الرأي فإنني أجد نفسي ملزما على التخلي عنها، لا لأنني أكرهها، و لكن طموحاتي هي أكبر من أن تدار بلغة الستينات من القرن العشرين، لغة خالدة بالقرآن، و لولاه لكانت نسيا منسيّا، و هي بهذا الفستان الجميل تخفي الكثير من العجز و الإهمال لها من أصحابها، أي عرب الألفية الثالثة.

فهؤلاء فشلوا في رفعها إلى مصاف العالمية، و فشلوا في الحفاظ على مكانتها الحضارية، و فشلوا في وضعها على طريق التجديد الذاتي، و من هذا كله أصبحت الحسناء عجوزا لا تجيد إلا البكاء و النواح على ماض يبدوا لها أنه كان جميلا، فراح أهلها يتخلون عنها، و راحت هي تنسحب من مسرح الحياة، فلا عرب الألفية الثالثة أنصفوا أنفسهم، و لسانهم، و لا هي أنصفت عمرها بنقطة عودة زمن شبابها

المضيّع، فـ: آه منكم يا عرب الألفية الثالثة، و كل حزني الكبير على أحفاد هؤلاء العرب، الذين لا ذنب لهم سوى أنهم أحفاد قوم أهملوا كل مقومات الإنسانية.

****

لا تترك يدك خلف ظهرك

إن تركت أداة حمايتك خلف حائطك الجسدي من سيحميك؟ و بماذا ستحمي نفسك و آلتك الوظيفية؟ فالعالم ليس مكانـــا آمنا دائما، و الحياة بها أكثر من الكثير صعابا و أعداء، فليس تشاؤما مني أن أقول هكذا كلام، و ليس كذبا مني أن أروي بعض عورات البشر، و لكن على مسامع الإنسان.
السوء لا يعبّر عن الفرد السيئ، و إنما هو ترجمة لخلفية كامنة في نواة التكوين البشري، خاصة عندما يوضع الفرد في مواقف المواجهة التي لا بد من عدم تأجيلها، و إنما في تلك اللحظات، علينا أن نتذكر أنّ الطبيعة الإنسانية هي حيوانية قبل أن تكون من عوارض العقل أو جوهره، فهي ليست صافية ملائكية كما يدعي البعض، فالإنسان هو جمع بين ملاك و حيوان، لكننـــا حلمنا بالملائكة و نسينا الحيوان، أو هكذا يبدوا لي.
فغطرسة البشر هي التي جعلت منهم آلهة أمام الكائنات الأخرى، بينما هم تمردوا على الآلهة، فهم يحبون أن يحكموا و يتسلطوا و يمرحوا، و لا يحبون أن يحكموهم أو يتسلطوا عليهم أو يمرحوا على حسابهم، و من هذه النافذة نتمكن من تفسير النأي بالنفس حين تكون ضعيفة، و إقحامها لحظة تكون في كامل قواها و بأسها العقلي الظالم.
لقد سئمت من أن أرى هذا العالم يصوَّر لي على أنه الجنّة، و أنّ عملي هو الذي سيدخلني جنّة أخرى بعد مماتي، هذا زيف في حقي، لأنّ ما هو حولي من الكآبة يقتات، و من الدماء يشرب، و النّار هي مآله إن هو بقي جاهلا بذاته و العالم، كما يدور فعلا و ليس قولا، فلم أعد أثق في أحد، و لم أعد أثق في نفسي كما لم أعد أضع ثقتي في التاريخ و العيش و الأمور التي تبدوا لي مصنوعة من العقل دون غيره، لقد اكتفيت، و أقول لكم كفى!
فالإنسان لم يخلق ليكون عبدا، و لا ليكون سيّدا، و إنما خلق ليكون كما هو يسعى و يريد، فلما كل هذا العبث بحياة الفرد البشريّ؟

هذا المنطق الذي ولد من أجل تنظيم آلات الحياة لقد أفسدها، و لم ترتقي الأمم الراقية حاليا إلاّ بالتخلص منه بصناعة منطقيات أخرى متعددة بتعدد ألوان الجنس البشريّ، و إن ألقينا نظرة دقيقة على وجه البشرية، فإننا سنجد أنّ الواحد في الاتجاه، أو الانتماء، أو التفكير و غيرها من الحسم الفكـــري هو أهم عراقيل النهضة الفردية، و هذه الأخيرة هي أهم أسباب عدم تجسيد الإقلاع الحضاري، و لهذا مساهمته في مظاهر الحيوانية التي تشهدها المنطقة العربية في الألفية الثالثة بأشكال عنيفة وعدوانية جدا، لم تسبقها إليها أمّة من الأمم الأخرى.
"الآخرون ليسوا أعداء، فهم أحباء لنا بالغريزة الإنسانية السامية، و لكنهم أشقياء إن هم لم يحسنوا إلينا، أو أساؤوا التصرف معنا"، يا لها من عبارة تدخل إلى أعماق الروح لتخدرها، و تجعل من الإنسان خروفا في حفلة شواء كبيرة.

" الخير في الناس مصنوعٌ إذا جُبروا

و الشرُّ في الناس لا يفنى و إِن قبروا

و أكثر الناس آلاتٌ تحركها أصابع الدهر يوماً ثم تنكسرُ

فلا تقولنَّ هذا عالم علمٌ و لا تقولنَّ ذاك السيد الوَقُرُ

فأفضل الناس قطعانٌ يسير بها صوت الرعاة و من لم يمشِ يندثر...."

جبران خليل جبران[1]

فأفضل الرجـــال كذاب، و أجمل النساء منافقة، و أحسن العلماء خبيث، و أقدر الفقهاء عميل، و أسمى الحاكمين قصّاب، و أعفّ الإناث زانية .... وووووووووووو

كلهم يخطئون، و كلنا نخطئ، فلما نحاسب بعضنا البعض عن أخطاء ظهرت للشهود، و لا نحاسب أنفسنا على جرائم أخفيناها بإحكام بين الدموع و الخدود؟

الإنسان لطيف، و هذه الصفة تسكن فؤاده بجوار العدوان، كلنا نحب اللطف، و ننبذ الاعتداء، لكن هذا ليس مبررا للخوض في تضاد الصفات، و لكنه سبب للإقرار بوجود النقص في الإنسان، فالحرق و الظلم و المعاناة هي أجزاء من الحياة، و لكن علينا ألا نهمش الأجزاء الباقيات، حتى يستقيم العيش، و نرتاح بعد الممات.

".... ثم تنادي الأرض قائلة للأرض أنا رحم وأنا القبر وسأبقى رحما وقبرا حتى تضمحل الكواكب وتتحول الشمس إلى رماد...."

جبران خليل جبران[2]

[1] http://www.adabeh.com/jubran3.htm

[2] http://www.adabeh.com/jubran1.htm

فأنـــا كأيّ إنسان، عليّ أخطائي، و لي فضائلي و حسناتي، و على النفس البشرية ما لي، و لها ما عليّ، و على هذا الأساس فأنـــا لا أملك الحق في أن أحاسب الناس، و لا محاسبة نفسي، كما أنّ الآخرين لا يملكون الحق في محاسبتي أنـــا، فهذه الشرعية الغير مبرهن عليها في إقامة المحاكم الاجتماعية و القانونية منها، هي أهم سبب لظهور الهمجية بشكل يفوق الحدود، و الاتجاه الفكري الذي يتبنى الإيمان الديني هو أخطر عوائق التعايش السلمي، بينما التعصب لأيّ إيديولوجية و إن على الورق و حلبات الفكر، فهي من ضروريات الأفراد، و لكنها من سهام الفرقة و الاقتتال، هكذا فهم الناس عقليات الأقليات فاضطهدوهم، و هكذا عمل البشر على سرقة المجد من أحجار الزمن، فحكموا على الحياة بالموت، و حكموا على الموت بالحيـــاة.

****

من فضلكم! لماذا؟

القلوب التي لا تفهم وجودها ظاهرا كما في الباطن هي شذرات من علوم تولد مع الفرد المقدّس، و تنتهي إلى العودة لأصلها كلما تصاعد الاستحقاق في عيون المحاربين، هؤلاء الذين يحاولون حفظ ما بقي من الإنسانية، و يدفعون في لقاء هذا ما جرح أنبوب العمق بين الكثير من الأسباب و الغايات و طرقها الضعيفة منها أو الجائرة و المزمجرة.

فالحيرة ليست هباء كما نفهمها لأوّل وهلة نصادفها فيها، و إنما هي العبث القائم منذ اختار البشر أن يكون بشرا، و من هذا تظهر لنا على أنها مولود جديد في كل لحظة من أعمارنا الطويلة، فهي لا تقيم معنـــا، و لكنها تلازمنا كلما اقتربنا من حذفنا، لأنها القدر و لكن بالثوب الأبيض، بحيث أنها تلوّن الأحلام بكل الألوان، و تحدث صاحبها بلغات العالم من دون كلام.

فمن الممكن أن يكون بالمكان إمكان على سبيل الممكن و الممكَّن، و هذا ما جعل الإمكان بحد ذاته نوعا من إقامة المكان المادي أو المعنوي على حسب رغبات الممكِّن، و عليه تقودنا هذه العملية الذهنية البسيطة إلى إرجاع أكبر قدر من الأعذار إلى حجج ساسها الممكِّنون، حتى تظهر الإمكانية من الاستحالة بمكان أمام الطامحين في التمكين.

"…. يسبقني غدٌ ماضٍ. أَنا مَلِكُ الصدى.
لا عَرْشَ لي إلاَّ الهوامش. و الطريقُ
هو الطريقةُ. رُبَّما نَسِيَ الأوائلُ وَصْفَ
شيء ما ' أُحرِّكُ فيه ذاكرةً وحسّا…."
محمود درويش[1]

[1] http://www.darwish.ps/dpoem-188.htm

فالجديد في كل هذا أنّ الإنسان يحاول جاهدا أن يقرب الماضي مما يريده في المستقبل، إلاّ أنّ القيام بهذه الخطوة ينتج جورا للحكم من بداية التفكير فيها، و خاصة أنّ المقصود بها هي اكتشاف ما يحبّ العالم أن يمرّ على الإنسان مرّ الأعمى على ساقية الذهب.
حتى أنّ القياس في مجارات الأمور هو بدون نفع و لو وضع في سراديب الأحقاد، و مع هذا لا يمكن الأخذ به على أنه قياس من أجل القياس فقط، و إنما له حدودا أخرى لا يفهمها الجهلة الذين لا يدركون بأنهم جهلة.
فتطابق الصورة لمقصودها هو من الرجاحة الصعبة، و لكن من يقدر عليها يكون قد وعى عاهته، و احتفظ بها كزاد في مخزن الظلام الفرديّ.

فوجاهة الواجهة هي من عبقريات العلماء ذو اللون الشفاف، و لكن عبر سلوكيات زئبقية، و هذا ما جعل من الفهم الجديد ضرورة، لمن أدركـ معنى الحاجة إلى ذلك، فالطريقة لا تهمّ المُريد، و لكن المهمّ في خلفيات اعتقاداته، كمـــا هو في اعتقادي هو: القدرة على الوقوف على النقص و تداركه، كلّ على حسب ما هو موفّر لديه.
قد تحوّلنا مصالحنا إلى مجرمين، تأخذ منـا أعزّ ما يحبه الإنسان، ألا و هي: الرحـــمة، لتصنع منه سفاحا لبقا ، و دون تعسّف الإطناب يتحوّل إلى قاتل فاتن، فأية نجوى تريد منا أن نـقود البشر إلى الهلاك، و إن كان هذا هو مصيره، فليكن !! و لكن لنقوده إليه بفـرح.

"…. شيء مدهش أن يصل الإنسان بخيبته وفجائعه حد الرقص! إنه تميز في الهزائم أيضا، فليست كل الهزائم في متناول الجميع….."
أحلام مستغانمي[1]

ليس مهمّا أن نسرع، و لكن المهم أن نسير، و على هذا الأساس نكوّن ما نريد، و وقتما نشاء، و عليه يكون العامل الذي يدفع بنفسه إلى بذل الجهد عاملا لا يندم عن كل ما يقدم و لو بلا نفع شخصيّ، فالدنيـــا لا تشدّ على أيادي الخاملين، و لا تدوم للعاملين الظالمين، و بين هذا و ذاك، تظهر المبادئ بوضوح، فمن لا مبدأ له، لا حياة له، و من يتخلى عن معركة البقاء، فهو حتما يتخلى عن نفسه بشكل مباشر، فعالم المشاعر هو أوّل المحطمين لعالم القوّة، و هما ضدان لا يلتقيان على مسرح الواقـع، لكننـــا لا نعيش إلاّ ما هو حاصل، لدى دعونا من التفكير في الذي هو بعيد عن الحصول.
لكل فرد من البشر عمق يصله إن هو احتاج إلى مكان يشعر فيه بالأمان، و لكل زاوية نحددها نحن الإنسانيين لها معناها و مقصودها إضافة إلى طريقها الرائع و الجميل، فالكثير من الأمور تضيع بين حديث القلم و الورقة، و مع هذا تبقى كلمات قشرة المحارة حاضرة دائما، و تستعيد بريقها كلما زاد أنين البشر.

"…. البعض جثَّة راقدة ….. فمن منكم يريد أن يكون قبراً لها؟…."
جبران خليل جبران[2]

---

[1] http://www.eqtibas.com
[2] dai3tna.com

هذا هو المنطق الذي يسود الآن في منطقة الشرق الأوسط و شمال إفريقيـــا منذ سقوط دولة الموحدين، و كأنّ أمير نيويورك تفطن لها منذ زمن بعيد، إنه الواقع الذي يصطدم به أوّل و آخر طفل يولد في هذه المناطق دون إرادته، و لو خيّر ما أظن أحدا سيختار أن يولد بين شعوب لا تعي أنها شعوبا حقا، و بين أفراد استقالوا بشكل غريب من الحياة كلها، فعلى الهوامش يسير الطريق التاريخي لمن وجد ذاته بين ذئاب العيش، و هشاشة العبقرية مهما بلغت، و زبالة الفكر، و سمّ التفكير. و على الزاوية أن تحمي الطيور التي هربت إلى المجهول، لا لأنها أضاعت سبيلها، و لكن لأنها تيقنت أنّ المجهول الصافي أفضل بكثير من واقع متعفن، أن تحمي براءة هذه المخلوقات الضعيفة و الجميلة.

لا يمكن أن تسوي التاريخ بالتراب، و لا يمكن أن نغلق الباب في وجوه البشر و الأحباب، فمهما فعلنا فالأيام لها حكاياتها و ظروفها، و للبشر القرار الحاسم في مواضيع الوجود، هذا ما أثبتته الأمة الأميركية للعالم، وهذا ما علينـــا أن نثبته لأنفسنا نحن أيضا.

ليس عيبا أن نقيم تصوراتنا الخاصة عبر مراحل، لنحولها بتطور البحث إلى مواقع فكرية لنا، فتميّزنا على ما هو موجود و قائم في الساحة الفلسفية و العلمية، و لكن علينا أن نجتهد أكثر، لأنّ إقامة أيّ موقع فكريّ له أصوله، و أدواته، كما أنّه يتحدث لغة سليمة التركيب و الأداء.

و عليه بإمكاني أن أشير إلى نقطة هامة، تتخذها النخبة الجزائرية، و مع الأسف في القرن الواحد و العشرين مرجعية لتفكيرها، ألا و هي "الاحتكار"، و هنا أغتنم الفرصة لأوجه كلامي إلى المحسوبين على الثقافة في جزائر الألفية الثالثة من التأريخ الميلادي: يا قوم الفلسفة و الثقافة و الحكمة كما تدعون، قد تحتكرون الأفكار ربما في اعتقادكم، لكن إن وجد مستحيل، فمستحيل أن تحتكروا آليات التفكير، حالكم اليوم كما جاء في الكتاب المقدّس: "....قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس احد يأتي إلى الأب إلا بي. "[1] لدى أنا أنصحكم بأن تعيدوا التفكير في آليات تفكيركم، لأنّ كلّ أوراقكم أصبحت مكشوفة اليوم قبل الغد. و ما ينطبق على الجزائريين الجدد، ينطبق أيضا على العرب الجدد، فكرة بفكرة. فالألم يزول، و النساء سيختلين عنكم، لكن المجد يدوم إلى الأبد.

يا أيّها الروميّ خذني معك، لا تتركني مع بني جلدتي، لقد أقبروني في حياتي، و لقد نكلوا بفكري و أنا موجود أمامهم و بين أظهرهم، لقد كان لي معهم تعاملا، و لقد كان لي معهم شايا و ملحا، و على الرغم من هذا كله، لقد غدروا بي، و طعنوني بخنجر ذا ثمانية رؤوس، ليصيبني في صميم فكرتي، فلـن يبقى عقلي معهم، و لو بقي الجسد سجين حكاياتهم التي تقتل الشرف و الرجولة و الكرامة و الإنسانية في الإنسان، لـــن يبقى عقلي سجينهم.

لا تقلقوا عليّ! فأنـا أعلم أنّ الحياة قاسية، و مع هذا أنا أملك المفتاح في قلبي، و وجدت الراحة في أعماقي، لأنني ولدتُ لأكافح، ففقدان جزء من الأمل لا يعني نهاية الحياة، لأنها أكبـــر بكثير. لدى أرجوكم! ابتسموا من أجلـي.

****

[1] http://www.enjeel.com

إرجيين هايت

Why has every man a conscience then?
Henry David Thoreau

لا يعلم الإنسان ما يعلمه الغد، و لا يهمس الفرد في الفراغ، و لا يقصد المجهول سوى جاهل به، و لا يدفع الأذى دون تكلف عن أحدهم سوى رجل يعرف رجولته و يدافع عنها، هكذا انتظم الكون، و سار من القدم إلى غير القدم.
فمن الأفكار التي يسلّم بها البشر أنّ لكلّ منهم خصائص ذاتية، و هي التي تطلع عليه كل صباح جديد، و تمسك بيده نحو المستقبل، مما يولّد في نفسية كلّ منّا احساس غريب، يدعوا إلى المفاخرة بالرجال، و التماس الجمال من النسوة، و بين المبينات يتصلب معنى الإنسانية، و ينطق العمق في صمت.
فلكل منـا حقيقة تقبع في عمق أعماقه، و هنا يتكوّن المحرّك الفردي، الذي يدفع نحو التألق، و إن اختلفت المحركات جميعها، في مكوناتها، و أجزائها، و وظائفها، إلاّ أنها تشترك في أنها من أجزاء البشر.
لكن، فمن المعروف لدى العامة أننا أيضا نشترك في المعاملات نفسها التي تفرضها علينا ظروف بعينها، فبالتنبيهات التي تسلط على النفوس، تجعل من الاستجابات نمطا مختلفا، و منه ينتج السلوك، و الانفعال، كما نلمس القوّة المتكافئة لكل ما من شأنه صناعة العجب، و هنا أذكر بالذات رجالا مروا على الأرض في زمن المجد، و أيقنوا أنّ الأرض و ما حوت، لا تملك ما يقهر البشر، فرفعوا شعار "لا غالب إلاّ الله" رحمة الله عليهم أجمعين.
و من منطق الاختلاف بين أفراد الجنس الواحد، يمكن تكوين مفاهيم كثيرة، و معان أكثر للمفهوم الواحد، و عليه يضيع الفهم بين كثرة الكثرة، و يسود الارتباك لدى الفرد الواحد أثناء تحديد المقصد الواحد، فيكون على الباحث عن حقيقة ما، ايجاد أرضية مشتركة للقيام بعملية تفاهم، أو على الأقل احترام فكرة التفاهم، من أجل جعل النقاش مفتوحا على كل المؤثرات التي تدفعه إلى التطوّر.
و من هنا فالذي يؤكد على أنّ هناك أفرادا تتفاهم هي تلك الايديولوجيات المشكلة من طرف أعلام تقودها. لأنّ ابداع أنماط فكرية منسجمة تدل على اتفاق فكريّ شديد الوضوح، و عليه فإنّ الوصول إلى هذا التفاهم لا يكون إلاّ بصدق التوجه، و خالص العمل في المساهمة على تحقيقه، و منه إنّ القدرة الهائلة على قذف التوجهات نحو التأقلم هي نوع من الولاء للإيمان المترسب في نفوس المجتمعين على خدمة مبدأ معيّن.
و هذه الخطوة تدعوا إلى الاخلاص التام على تنفيذ المخطط المتفق عليه سلفا، و لهذه المرحلة أهمية قصوى في ادارة التحقق على تحقيق المقترحات، إنه الحد الفاصل بين الناجحين و الفاشلين.
سواء كنت طفلا ام شابا أم شيخا فأنت إنسان، و لك كامل الحق في التعبير عما يولد في داخلك، و تفجير كامل طاقتك و بارادتك، كما لك واجب اضافة ما تستطيع إلى الحضارة الإنسانية التي ولدت قبلك، و لن تموت أو تسير إلى العدم إلاّ بعد نزول جثتك إلى أحضان الثرى، هذه هي قصة العنوان، و هذه هي كلمات الحال التي فهمها الدهاة، و تجاهلها الأغبياء، و نسي تأثيرها الغلاة.
لا يأخذ بالقَسَمِ جزء من الإنسان، ذلك الذي هو خارج المكان، و داخل الزمان، فهو يلغي ابداء الأحكام، و يدعوا للتقدم مهما كان بالإمكان، قصد الوصول إلى الإيمان، و منه يكتشف الباحث صورة الإنسان،

فيوضع الميزان، و يوزن البيان، فإما كسب أو خسران، فإنّ الأوّل دليل على صدق العنوان، و الثاني دليل على صدق الضدان، و بينهما يعيش عرش الجنان أو الشيطان.
و على من لا يفهم التباين فإنّ له الحق في الاستفهام، و على البشريّ فهم قابلية تقبل أنواع الأسئلة كلها، و لا يستخدم عقله للنكران بقدر استخدامه في البحث عن البرهان، عملية تداولها بني آدم من رفع السماوات، و ترقيع الهفوات، لأنها عالم من التناقضات.
ففي أسفل وادي العذاب يسكن سقف الأسباب، و هو نوع من الأبواب، التي تقود إلى رب الأرباب، و بين السبب و الألقاب، يولد علياً أو تولد رباب.
لدى نجد أنّ الصدق هو من يدفع إلى العمل، و المصداقية هي التي تزيّن العمل، و الصادق هو الذي ينجز العمل، و أيادي المصدقين هي التي تتقن العمل.
و منه المعادلة واضحة، و منها نزن اشتقاق تنظيم العيش في خندق واحد، و له امكانية جعل الإنسان في مرتبة توحي بالقداسة..... إنها القداسة، قداسة السعي و العمل المولود من الأمل.

****

أصحيح ما يُقال عنّــا؟

يبدوا أنّ الأيديولوجيات في زماننا بلغت ذروة الصراع. فعندما نتجه إلى الأمام في التفكيـر على نحو منطقي فإننا نرى بوضوح أنّ المجتمعات القاطنة في مركز الأرض، تجد نفسها مضطرة بعد جهد ساحق إلى بلوغ سقف الصدام، و لو على حساب الأسس التي تقوم عليها، و ما ذلك الصدام إلاّ نتيجة لاختلاف يرفض الاعتراف، ممزقا كل صكوك المغفرة، ساعيا إلى العراك قصد التهام الفرق الذي يصنع الالتئام، على سبيل إظهار العضلات و الرهبة، و هنا نجد لزاما علينا بلوغ الآتي: ما طبيعة الأيديولوجية في شمال القارة السوداء؟
لو تأملنا في هذه المنطقة تاريخيا فحتما سنجد العديد من الحقائق، بحيث تجتمع هذه الأخيرة في ثلاث قوالب، تختلف باختلاف المبادئ و المناهج، إضافة إلى طرق العيش و مميزات الإنسانية، و التي تعطي هذه الصفة للكائن المقدس المتحَدث عنه.
إنها ثلاث عوالم لا تشبه إحداها الأخرى إلاّ في نقطة واحدة، و هي حبّ السيطرة مع قليل من الهيمنة على هذه البقعة من العالم، و لأجل هذا الهدف سال الحبر كما الدم بغزارة، و استخدمت كل الطرق المشروعة و الغير مشروعة لتأييد فئة على حساب الأخرى، و هذه الوضعية ما تزال مستمرة حتى الآن.
الإنسان بطبيعته الجسدية حيوان، بينما هو ملاك بعقله، لكن بين هذا و ذاك نجد الإنسان، بـل و حتى صفة الإنسانية صفة تلتصق بالحيوان إذا ميّزته الثقافة، أي أنّ الإنسان حيوان مثقف، و هذا المخلوق المميّز يولد كما تولد المخلوقات الأخرى، و بعد ذلك ينموا في ظلّ الكثير من الرعاية، أين يتعلم و يكتسب صفات البشر من حركات و إشارات، و ألسن و طبائع، دون أن ننسى استخدامه لعقله من إدراك و تمييز إضافة إلى التذكر و الاستيعاب قصد التعرّف و التعريف بما يحيط به، كما هو الحال

بالنسبة لنفسه و ذاته. و من هذه النقطة نستنتج أنّ الثقافة هي العامل الفاصل في التصنيف، أي أنها المساحة المهمة بين الأجناس. و بما أنّ الإنسان ابن ثقافته التي تتضح في الايدولوجيا التي تسيّر حياته و تحرك يومياته نحو منحى تجسيد معتقده على الأرض، فإنّ الفرد في هذه المنطقة ابنا بارا بالقبيلة، ولد في العشيرة، و تعلم مبدأ الحفاظ على السلّم الهرمي للاحترام المبني على تقديس الزعيم، و الذي هو في الأصل الجدّ لكل أفراد المجموعة، أو على الأحرى الحامي الوحيد و القائد الروحي الأكبر "إنّ الأبوية داخل القبلية أبوية اجتماعية و ليست بيولوجية"[1] فيعلّم الطفل على أنّ القبيلة هي مركز الانتماء، و أنّ التعاليم هي تعاليم الزعيم، و هذا الأخير هو مصدر السلطة و القضاء و الحكم، و ما على الآخرين إلاّ الطاعة و إبداء الولاء داخل هذا النظام الذي رسمت جزئياته في سالف الأزمان. و مع مرور الوقت رسخت هذه المبادئ كما لو كانت نتيجة حتمية أتت بها الأرواح عندما وقّعت على تحالفها مع الطبيعة. ففي هذه المرحلة من الزمن كان الإنسان يفكر ضمن العلاقة الأخوية داخل محيطه القبلي، و كيفية ملاطفة ما حوله، بينما يعتبر الغير من أجانب خارج عشيرته أعداء أم أحباب طبقا لما يراه الزعيم، أين اتسمت الأيديولوجية المتبناة بالحبّ الأعمى للجماعة التي يعيش معها الفرد، و إقامة نظامها هي عملية إلزامية و ضرورية للمدّ التواصلي القابع في دهاليز النفس الفردية لأي عنصر إنساني لا يجد بديلا عن العشيرة.

فتلك العقلية دامت لعقود و قرون من الزمن، أين ترسخت كل الترسيخ مع المدّ الإسلامي، و الذي جعل المنطقة عربية اللسان، إسلامية الدين، واحدة التوجه، لكن ما يعيب تلك الفترة هي ابتعاد التجمع البشري المتحدث عنه عن مركزية الأمّة و تنظيم الحكم، أين بقيت العشيرة إلى حد ما هي المسيطر على جميع مفاصل الحياة الدينية، و الاجتماعية، و حتى السياسية و العسكرية.

إنها فترة تحكمت فيها روح الزعيم في مستقبل أفراد قبيلته، و لم يتلاشى هذا النظام، إلاّ بقدوم فحول الأتراك إلى الشمال الإفريقي، بعد أن ضمنوا دخول البلاد، استجابة لاستغاثة أعيان مدينة الجزائر، الذين استجاروا ببني دينهم على حملات أوربا المطاردة لمسلمي الأندلس بعد ضياعها، و ما كان من الوافدين الجدد إلاّ أن بنوا دولة بعصرنة المؤسسات الموجودة (القبيلة)، و مزجها في تجمعات، شكلت فيما بعد كتلا إنسانية، لقبت بـ "الشعب"، فكانت ولاية عثمانية من ديار الإسلام الكبيرة و القوية وقتئذ.

و قد بقى الفرد في هذه الحقبة ساكنا عثمانيا، يدين بدين الإسلام، و محميا من قبل بني عثمان. و استمرت الحال على ما هي عليه إلى غاية مرض الرجل العظيم، فتكالب الإفرنج على الساحل، و الذي فاز به الفرنسيون سنة 1830م، أين وجد الفرد نفسه في هذه الفترة تحت رحمة الثقافة الأوربية من لغة فرنسية و دين مسيحي، و التي عمدت الجمهورية على تثبيتها على الأرض بكل ما امتلكت من قوة ناحية الترهيب، و من حيلة ناحية الترغيب، و في هذا الإطار صرح ميزفيل أول رئيس لمحكمة الجزائر بعد سنة 1870م: "...يتعين على جميع السكان أن يذوبوا في الحضارة الفرنسية. و أن يدركوا أنّ قدوم شعب من الشمال جاء ليستقر... و أن المشكل الذي يواجه عقيدة الإدماج، هو وجود مجتمعان مختلفان في كل شيء: في العقيدة، في الفكر، في العادات و في التقاليد و لذلك لا يمكن دمجهما إلاّ بابتلاع شعب لشعب"[2]

---

[1] ADDI Lahouari-de l'Algérie: pré-coloniale à l'Algérie coloniale O.PCIT-P94.

[2] عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – الجزائر – 1979- صص70- 71.

و بقي هذا الصراع لقرون من الزمن، حتى بعد رحيل الاستعمار السياسي عن المنطقة، بقي الاحتلال الثقافي مهيمنا في شكل تجاذب، بلغ ذروته في صورة دموية خلال تسعينات القرن العشرين، قتل فيها الملايين بداعي التعصب تارة، و بذريعة نصرة الحق المزيف تارة أخرى، إلى غاية وضع هدنة مؤقتة، أصبحت سارية المفعول سنة2000م، لكن سرعان ما وجد الفرد نفسه بعد 2001/11/11م ضحية صراع إيديولوجي يتجاذب أطرافه: كتلة المعوربة الإسلاموية، و كتلة المفرنسين العلمانيين، و كتلة المتأمركين البراغماتيين.

و هذا كله يضمن استمرار الصراع و حيرة الإنسان في شمال إفريقيا، الذي لم يحسم ركائز إنسانيته بعد، فهو موجود في أزمات عديدة و متعددة، أوّلها أزمة هوية، و ثانيها أزمة ثقافة و جدية، و ثالثها أزمة ثقة و إرادة، أين يجوز لنا كساكنين لهذه المنطقة طرح الأسئلة التالية: من نحن؟ ماذا نريد؟ بماذا نحقق إرادتنا؟ و اعتمادا على ما سبق: هل نحن إنسانيين حقا أم مجرد حيوانات بشرية؟؟؟

****

أعيش من لا شيء

لا شك أنّ القضاء على ما نحن فيه، و عدم استبداله بشيء آخر لمن السذاجة بمكان، لكن ليس من السهل أبدا أن نعرف و نتعرف على ما نريده، إن لم نلمس ما تعودنا عليه في أزمنة القضاء على الشعور و استبداله بالمصطنعات من المواقف، و كلّ هذا من أجل ابقاء السلطة العامة في دائرة ضيقة تزداد ضيقا، بينما لا يحق للخارجين عنها دخولها إلاّ بشراء صك الرضى من بيت الحكيم الذي فقد حكمته.

فهي لحال لليأس الذي حكم به علينا مسبقا، حتى أننا نلوم القدر و الزمن، و ننسى أو نتناسى أن نلوم أنفسنا في ذاتها، لكن ليست اللائمة من تحمل الفائدة إلينا، حتى و إن اقترفناها مداعبة لشعورنا الملغى، و تثبيتا لمبادئ بالية، أثبت الزمن أنها مثقوبة و صدئة.

****

الاستقراء منهجا

لو نظرنا إلى الاستقراء منذ ظهور بذوره الأولى و حتى اليوم، فإننا نجده منهجا يكاد يكون مكتملا، و قد ساهم في الدفع بعجلة الفلسفة و العلوم إلى الأمام، لكن هذا لا يمنع من أن نتطرق إلى أهم الانتقادات التي وجهت إليه.

فكثيرا ما ارتبط الاستقراء بالعلوم الطبيعية و الفيزيائية، لكنه هو أوسع من ذلك، و هذا أهم فيلسوف تقريبا وجه صفعات قاسية إلى هذا المنهج، و المتمثل في شخص دافيد هيوم. و من هنا، و اعتمادا على ما تقدم من بناء للموضوع نجد ما يلي:

كيف نظر هيوم إلى الاستقراء؟ أو على الأحرى، ما هي الدعائم الأساسية لبناء الفلسفة العلمية عند هيوم؟

هيوم أوّل ما انطلق منه لبناء فلسفته العلمية هو انتقاد الفلسفات السابقة، و خاصة تلك التي مجدت العقل، و جعلته المبدأ و المنتهى في تفسير الظواهر الطبيعية، فهذه الفلسفات عند هيوم جعلت مبادئ معينة هي التي تسيطر على النظام المعرفي السائد قبله، رغم هشاشتها واقعيا، و منه أخذ هيوم بالاعتبار مسائل أساسية في العملية العقلية أثناء ولوج العقل دائرة التشبع بالمعلومات، و ذلك أنّ العقل يأخذ بالكلّ، لأنه لا يهضمه دفعة واحدة، و إنما يعمد إلى تجزئته، فصلا فصلا، و وظيفة تلو الأخرى من أجل بناء نظام متكامل من الجزئيات المنتمية إلى الكلي نفسه، قصد جعلها سهلة الفهم، و بفهمها يفهم الكلي الموضوع في نطاق الدراسة على أنه يقين مثبت، لكن هيوم جاء بغير هذا، فقد رأى أن اليقين لا يملك لا أساسا منطقيا، و لا أساسا تجريبيا، و بالتالي فإن مسألة البحث عنه مشابهة لمسألة دخول بحر بدون شواطئ، و عليه فإن هيوم أشار إلى أنّ المعرفة العلمية يجب أن تكون بعيدة عن التجزئة العامة للكلي المفترض، و هذا انطلاقا من أنّ العقل ما دام أنه يهضم الكلي دفعة واحدة كما ينادي العقلانيين، فكيف ينتظر تجزئة بعينها للكلي المهضوم من أجل هضمه؟

فمن هذه المفارقة الغريبة انطلق هيوم ليثبت أنّ العملية المنطقية التي سادت في عصور خلت قبله هي أشبه بضياع في وهم الميتافيزيقا البعيد عن الواقع الذي يتواصل معه الفرد البشريّ مباشرة، و دون انقطاع، فينتج تأثيرا متبادلا بين الإنسان و محيطه.

هيـــوم، و بعد أنّ أثبت أنّ الطريقة المنطقية من أرسطو و حتى و صولا إلى العقلانيين هي طريقة لا تأتي بجديد خارج موضوع الدراسة، عمد إلى بيان البديل في البحث العلمي.

و هنا جعل الاستقراء منهجا صالحا، و لكنه غير كامل للاكتساب المعرفي، فهيوم رأى أنّ الاستقراء الذي ينطلق من الجزئيات إلى الكليات، أو من العينات إلى الظواهر على اختلافها هو مبدأ صالح مؤقتا في البحث العلمي، حتى انه نظر إليه على أنه منهج غير مبرر لا عقليا و لا تجريبيا، حتى أن هيوم رأى في السببية و اطراد الظواهر عملية تعوّد عليها العقل لا غير، فليس هناك ما يبرر حدوث النتيجة بحدوث مسبباتها، و ليس هناك ما يضمن اعادة احداث نفس النتيجة بإعادة احداث مسبباتها، بل ذهب إلى أكثر من هذا، حين جعل من الملاحظة غير ضرورية لاعتماد فرضية ما في بحث معيّن، و هذا أيضا لا يضمن صحة يقينية للنتيجة المتوصّل إليها انطلاقا من الفرضية المؤكدة تجريبيا.

لدى جعل هيوم الاستقراء عملية نسبية، فبعض الظروف تعطي نتيجة معينة هي صالحة لمكان و زمان معينين، و هي مهددة في أي حالة محتملة بالانهيار.

لكن هيوم لم يأخذ هذه المسألة بالجدية كما فعل مع مسألة التعميم في العمل التجريبي الاستقرائي! فهذه المسألة أثار حولها هيوم الكثير من الأسئلة. فما الذي يثبت مصداقية النتيجة المتوصل إليها انطلاقا من فرضية اثبتت تجريبيا على عينة؟ أو ما الذي يضمن تشابه كل العينات المدروسة؟

نعم! إنّ مشكلة التعميم التي فتحها هيوم جعلت العلماء يعيدون النظر في جدوى البحث العلمي، فالظاهرة المدروسة للعالم الفيزيائي مثلا، و خاصة في العلوم المجهرية، تجعله مطالبا بدراسة بعض الظواهر التي لا تتكرر إلا نادرا، لكن عملية التكرار ليست حجة عن صدق ما توصل إليه هذا العالم أثناء دراسته الشاملة، فليس حتميا أنّ تلك العينة المجهرية المدروسة لها نفس التأثير على ما حولها، و التأثر بالمنبهات المفروضة عليها، حتى و لو كان العالم المحيط بجميع العينات معتدل التنبيه بدرجات متساوية في التأثير و الاستجابة.

فلشك هيوم في مبدأ التعميم جعل المنهج الاستقرائي في صيغته الناقصة على مفترق طرق، لكنه مع هذا لم يجب على اشكالية التعميم التي أثارها، و آمن بأن هذا المنهج الذي اعتمده رواد الثورة الصناعية هو الأصلح، فالمعرفة اليقينية هي مستبعدة، و الأدوات التجريبية هي قاصرة، و العالِم التجريبي هو بحاجة إلى استنطاق الظواهر و الأخذ بنتائجها رغم العيوب الكبيرة المحيطة بها.

****

الماء في رأس الفأس

سيكون للعرب الجدد موقع بإذن الله تعالى في صفحات المستقبل. إيمان يزداد يوما بعد يوم بهذه النتيجة. و كلما تحرك عقرب الوقت أثناء دورانه، كلما تأكدت أنـــا مــزوار محمد سعيد أنّ قول إميه سيزار سيصدق على فلسفة العرب الجدد ذات يوم.

"…. ما من بقعة في هذا العالم إلاّ و تحمل بصمة أصابعي، و أثار أقدامي مطبوعة على ظهر ناطحات السحاب، مثلما تتبدى نعومتي من لمعان الأحجار الكريمة….".
إميه سيزار، دفتر العودة إلى البلد الأم.

قَسَمٌ جعل من الإنسان مسؤولا، سار على الطريق المعبّد، و أخذ استراحة عند محطة وقود العلوم و الحكمة مناصفة، أين صلى ركعتين تضرعا لله، و أخذ من الراحة نصيبا متوسطا، فلم تكن أكثر من مسار، بدأ بالخروج و لم ينتهي أبدا. إنها أقل ما قيل و يقال في موضوع الأسير. و رحلة المصير، فهي تركيب ممزوج بين الحدس و الحس، مقترنـــا بالهوى و الضابط. فسواء جاءت القيمة متأخرة أم مبكرا، فهي جاءت و انتهى، أين لمن الجيّد البحث فيها، و الأخذ بها و منها، فيضيع الحكم و تسيل الأنهار من منابع العواطف و الأحاسيس.
إنها لعبة النزهة، لعبناها عندما كنا صغارا، حين وُصفنـا بالشقاوة الناعمة، لكنها كانت مليئة بالبراءة و المرونة، فهي أسمى من السمو في حده الداني و القاصي، على ناحية التدرج و التكاثف لضمان الصلابة و العظمة.
قيمة الصغر و الصفاء، لا تلزم الأسير على طول المسير، لأنها تأخذ صورا أخرى، فقد تتجلى بوضوح عند تبنيه للقوة و التوحش، فيظهر الجانب الخفي لحب البقاء. فهو يعني السيطرة، و التي تقودنا إلى المعاملة و المساهمة في التجاذب المعرفي، خاصة و أنّ البؤر السوداء عند البشر تبقى في درجة الطابوهات الثابتة، وقد تتحول إلى منعرجات تغيّر و تؤثر على الحياة، فكفانا تجنبا للسواد، و ما علينا إلاّ أن نصنع صداقات مع الغربان، فلطالما عاشت معنا كغيرها من الطيور، و ما يمنعنا من مشاركتها جمال العيش إلاّ تكبرنا و غرورنا اللامحدود، و الذي تولد من قداستنا نحن، فكنا كائنات مقدسة بحق، و على حق، حتى لو لم نعرف الحق الحقيقي، و لم نتحقق من حقيقته.
فكنا نظن أن هؤلاء الذين يجيدون التفلسف هم أسعد الناس، غير أنهم يظهرون لنا أشقياء، فهم يبدون كذلك، لكن حقيقتهم أخرى، و مناقضة تماما، فلهم موقع في هذا العالم، و لهم رقم له قيمة و ليس صفرا على شِمال العدد، و هذا يدل على مساهمتهم في البناء و العطاء بما يستطيعون، فيضمن لهم

مكانا في سجل الخالدين، مؤكدين على أنّ أرخص موجود هو الإنسان المستهلك، النائم، الذي يبست مصادر نفعه، فاستحق السقوط من عيون النبلاء، لأنه محا نفسه من دفتر الحياة.
فجوهر مصدر الخوف من الإهانة هو ما يجري في الفؤاد، و خاصة القلب المنهك، أو العقل الجديد و المعطل. و الذي قدم نموذجا مثيرا للجدل عندما أطلق الفشل على خارطة المحركات الإنسانية، و استخدم العلوم و الفلسفات مصدرا لتبرير تأمين السلطة، و قمع التغيير الإرادي.
و لهذا فإنّ الحركة الفكرية الصحيحة، إذا اندلعت بين أوساط العقول اليابسة، يصعب التحكم فيها، أو توقع تداعياتها على الإنسان، و لعل هذا ما جعل الاستبداد الفكري يسارع في إخماد ثورة الفكر الحر، و المبني على الصحيح من الأسس، فتنتج دوامة الصدامات العنيفة.
الاستبداد و الفكر الحر القائم بذاته ضدان لا يلتقيان، حتى و لو استعمل الغصب أو ما يسمى بالإجبار.
و بالتالي الحرية مطلوبة كشرط محرّك إذا ما أريد للرغبات النبيلة و المشروعة أن تعرف الحياة الهادئة و الهانئة.
فنماذج اشتغال العملية التفكيرية كثيرة، و إنما هي تصب في اتجاه قابل للشرح، و القادر على العودة بالجانحات من الاعتقادات إلى مساراتها الغير مألوفة.
فالمعروف أصبح مملا، و الطريق الحق صار يخدم البـاطل، أين ظلت السبل، فحُكم على المجرم بالبراءة، و اكتظت الزنزانات بالعلماء. حال قبلتها أنفسنا، و تناسينا أنّ المهانة يمكن تفاديها، فهي لم تكتب علينا إلى الأبد، ما دمنا موجودون و أحياء. فبإمكاننا صنع فكر حيّ، يدور في فلكه الغير متوقع من الأفكار بفكرة واحدة، ألا و هي أننـــا قادرون على فعل أيّ شيء و إقامته من لا شيء.

****

الهدَايَة التى يَرْجُوهَا البَـــشَرْ

"…Les hommes méchants n'ont point de chant."
Friedrich Nietzsche

كم كنت أتعجب من أحد أساتذتي[1] الذين أحترمهم كثيرا و هو ينهي محاضراته بكلمة: "... يَا الله اِهْدِنَـا..." لكنني و بعد تفكير طويل، و بعد محادثة مع أحد احبائي الذين اشتاق إليهم كثيرا، قررت أخيرا أن أحاول فهم سرّ هذه الكلمة، التي هي "الهداية" و التي جعلت أستاذنا المحترم يضعها عنوانا لخاتمة محاضراته الشيّقة قولا و فعلا.
لكنني و بعد التفاتي يمينا و شمالا، وجدت أنّ الهداية فكرة تقترب من التقديس في مجتمعنا أكثر من الرمزية، فكثيرا ما جُعلت هذه الكلمة تخدم معاني أسماء اختارها الآباء لبناتهنّ، فهو اسم رُكب بعناية من طرف صنّاع في اللغة العربية تجعلنا نرفع له القبعة و لا ننزلها إلا على رأس المعنى الذي أراده.

[1] حابل نذير من جامعة تلمسان

الهداية هي نوع من النور، و للبشر حق الاختيار في ما بين الأنوار، و المقصود هنا بالأنوار: نور العلم، و نور الجنان، و نور كاسر للظلام، و نور الحق... و لنا الوقت الكافي لعدّ أنواع الأنوار كما يشاء القارئ، لكننا سنقف جميعا وقفة جلالة و إكبار لكل الأنوار، سواء الدنيوية أو غيرها لأنها نعمة لا يختلف حولها ضدان، حتى انّ أجمل فترة عايشتها القارة الأوربية سميّت بعصر "الأنوار" اعتزازا و مجدا.

أيها المهتدي نحن نطمع في هداك، أيّها الصالح إن كانت لك القدرة على هدايتنا فأهلا و سهلا، البشر ضعيف أكثر فأكثر، و نحن نطمع في نعمة هي ما تزال مخبأة في اعماق أسرار الحياة.

لكن هذا المصطلح ارتبط في الكثير من الثقافات بالدين، فالله سبحانه و تعالى هو الذي يهدي البشر إلى السبيل الصحيح، و هو الذي سطر الكون لخدمة نفسه قبل خدمة الإنسان، فكل ما هو على طبيعته هو متمتع بمظاهر الهداية السمحة.

فالهداية هي بمثابة القصر الفضي الذي بناه رجال الزمن، أين جفت الأقلام، و تكلم القدر، فحيث نبني الأحلام، تموت مقاصد البشر، و على الصفحة البيضاء نخط حروف العمر، فيضحك لأجلها الربيع، و يبكي من ضحكاته القلب المشفَق عليه، فيظهر الصبح حاملا بين كفيه نوعا من الأمل، لكنه لا يكفي عاشق المجد، و لا يشفي غليله من الطموح، فالمتمرد على القوانين ولد في ثانية، و هو الذي اختار نور رفيقة للعمر، فهذه أيضا من سخرية القدر، أن يجد الإنسان نفسه معلقة بأمل أقرب إلى الوهم، لكن المتمرد لا يتعب من أحلام تراوده ليلا، فيتذكرها صباح اليوم التالي. و يعمل من أجلها كل قواه العقلية و الجسدية، فالفرد الفار من الواقع كثيرا ما يجد ذاته المسكينة تبحر به من أجل الترفيه عليه، لكن الهداية إلى الطريق العام لكل اختيار من طرف أيّ إنسان هو ما يُعجز لسان أياً كان.

المتمرد بحث عن هدايته في الكتب، و بين صفحات الفضاء الافتراضي، كما أنّ بحثه امتد حتى إلى كلمات نور الساحرة على الرسائل القصيرة، و كم أوقعته هذه الأخيرة في الحيرة المربكة، و كم لعبت بخياله الفياض، لكن بين الخيال و الواقع شعرة رفيعة تدغدغ المشاعر بين اللحظة و الأخرى دون ان يحس المتمرد بها.

فمتمردنا ليس كغيره من المتمردين، إنه إنسان حساس جدا رغم أنه لا يظهرها أبدا، إنه يبدوا قويا في أغلب الأوقات، و هذا ما يظهر في احترام أعدائه له، رغم أنه كان لهم أشدّ من السوط في يد جلاد، لكنه يسمع كل هذا و يعتبرها من المجاملات، فالحسابات تختلف حين ننظر إلى خريطة العيش، أين تولد رغبة في الكسب حتى ولو كان على حساب المشاعر و المبادئ و الأحاسيس، إنه الضياع الذي أدخل بني آدم مراحل متقدمة من ضياع الضياع، فالبراءة في هذه المساحات هي الحَكَم، بينما الرجال تستدعي جانبها العنيف من أجل الابقاء على الحبل الذي يكاد يتمزق من شدة الألم، فيا أيها المتمرد عفوا، نحن نعتذر! عن دخولنا أحلامك دون اذن منك، ما كان علينا فعل هذا، إنها خطيئتنا و نحن نتحمل كامل المسؤولية، هكذا صرخت الأجراس، و هي تعزف أصوات الهيبة القوية، فهي كلمات تعبر عن حال العطف على من أحب حياته، و أحب نور حياته، فلم يجد طريقا يوفق بينهما معا، و هذا الأمر أدخله في جحيم من نوع راق جدا، فيجرحه في مرات، و يعالج كدمات رغباته على فترات.

أيها المتمرد المثقف هل وجدت اجابة عن حالك في فكرك؟ فأنا لا أعتقد على سبيل الظن أنك أجبت على فتات حيرتك التي تكاد تقتلك، إنها بمثابة الجناح الذي كسره الراهب عندما طلبت منه المساعدة، لكنّ هذا الراهب ساعدك على المعاناة الأنيقة، فزاد جرحك ملحا، و أخفى قارورة الدواء بين طيات نفسك المتهالكة، حتى أنّ عيْنا نور لم تجبك عن كل أسئلتك، فيا لك من مسكين الروح قبل أن تكون

سيّد العارفين، فيا أيّها القيصر الصامت هلا تكلمت، و حتى و لو تكلمت فهلا أفهمت، و حتى ولو أفهمت فهلا كنت صريحا.

فعندما يتيه المقصود، يتمسك الفرد بما بقي له من معاني الهداية، إنه يعتبرها احدى طرق الشفاء، خاصة و أنّ الضمير كثيرا ما يصرخ لما يسمع صوت العناد على الشرّ، يا الله اهدنا...!

إنها من الألغاز التي لم يفكها حتى الآن أيّ بشريّ، فالبشر يبحثون كلهم عن ذلك الشعور الجميل، الذي يبعث جوا من الراحة في النفوس، إنه الشعور بالراحة عندما نتأكد من أنّ مسار حياتنا يسير في طريق مريح، إنها جملة مشاعر تختلط في قالب الصواب الذي يدعى بـ: "الهناء" و هنا نحن نسأل نور الرأفة على قلب متمردنا العزيز على قلوبنا، إنه المتمرد الوحيد الذي يحاول بلوغ المجد من بين شبان جيله، بينما هؤلاء يطلبون الدنيا، فيا نور هلا أبديت نوعا من العطف على من أحبك دون أن يلمس شيئا منك !!!!

و من الثواني التي لا تُنسى، ثانية بلوغ الدمعة وجنتيْ وجه المتمرد، إنه يذرف دموعا تشبه دموع نبيّ المسلمين محمدا صلى الله عليه و سلم على فراق أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رحمها الله، إنها الدمعة نفسها التي تنزل من العيون عند فراق الأحبة، لأنها دمعة تنزل أثناء لحظة عجز حقيقيّ، إنها دمعة تؤكد إنسانية المتمرد، فهو الذي كان قويا، و ما يزال قويا و سيبقى كذلك، على الرغم من دموعه، يا الله اهدنـــا....

فحين يبلغ الأسى مبلغ الانفجار، يتذكر المتمرد أنه عصيّ عن الانشطار، إنه أشد صلابة من الصخر الذي يتفجر ليخرج منه الماء، إنه بطل من وزن العظماء، إنه المتمرّد بكل ما يحمله هذا اللقب من معاني.

و من أسعد المراحل الذي جعلت المتمرد سيّد زمانه تلك التي أخذت بيده إلى الأمام، متجاوزا بذلك نهر الأمراض النفسية، فلما ينعزل بينه و بين نفسه تخطر بباله كلّ ما يجعل الإنسان يبتسم، حتى أنه يضحك كمجنون فخور بجنونه، فهذه المواقف تجعله يظهر جوانبه الرائعة، و تعيد فكرة جمال الحياة إلى ذهنه الذي أصبح يئنّ تحت ضربات الواقع القوية، فنحن ما نزال نؤمن أنّ الحياة التي تزينها حقيقة وجودنا، و حرية اختياراتنا، هي أجمل و أقدر على تزيين أيامنا بما نتمنى حدوثه. فحتى أثناء استقبال موت عواطفنا فإننا نتلقى العزاء من استمرارية بقائنا. لأنها عملية ترميم لكل ما هو قادر على حفظ الإنسانية، فهي تستمد قدرتها على المرور من قدرتها على هدم الصعاب، و بالتالي تبدوا الهداية فكرة قابلة للصناعة، لا للتبني، لأنها كغيرها مما يراود الإنسان، إنها أجزاء سيكولوجية تُجمع تحت راية الجرأة اللطيفة.

و إن اختلف العقل و الايمان فهما صديقان حميمان يسعيان إلى رفاهية البشر، فلكل منهما قواعد مختلفة في ضبط و تثبيت المعارف و المحاور السعيدة، لكنهما يشتركان في اهتداء الفرد إلى هداية المسار الذي نشعر بأنه يقودنا إلى العراقة، إنهما جزءان لا ينفصلان عن نفسية متمردنا الأنيق.

و في أعسر الأوقات لا بد من أن نجعل الهداية في قلوبنا التي لطالما نزفت، فالدنيا لا تجعل من الضعيف ناجحا، إلاّ إذا حوّل ضعفه إلى محرك لا يعرف العودة إلى الخلف.

فأن تقضي حياتك في دعم ما تؤمن به لفكرة الأفكار، التي تأخذ من التقديس حب الجبروت، و من النبل شرعية العمل على تحقيق الهدف، لأن الإنسان الذي يهدف إلى اسعاد نفسه قبل اسعاد المقربين ليستحق الاحترام. فالنفس أحق بالتدلل على صاحبها، إنها هبة من الله و هي التي لها كامل الحق في أن تجد الهناء بين أشلاء الفؤاد الذي يحتضنها.

و من هنا نجد لزاما علينا العودة إلى مفهوم الهداية على انها نوع من الأنانية الجميلة، لأنها لا تظهر بهذا المظهر لغير مالكها، أو المنتسبة له، فالذي سطّح الأرض هو الذي جعلها من فئة الصفات التي يعتز بها الخلق بالوراثة، و عليه فالناس تحب المهتدي على أنه إنسان صالح دون أن يمرّ بأي امتحان جريء، و هذا ما جعل الهداية آخر ركن من النبل، لكن النبل قد يتحوّل إلى هَبَل دون أن نشعر، و هذا ما يُدخل نوعا من الريب إلى هذه الصفة الراقية.
و رغم كل الشوائب و العوائق و الذرائع و الحوادث و المحدثات، لكن الهداية تبقى من مساعي الناس الراغبين في النجاح، فكل ناجح هو مهتد، و كل مهتد هو ناجح..... فيا الله اهدنـــا....!

****

أموت من أجل أيّ شيء

".. ليس هناك صديق دائم، و لا عدوّ دائم فالمصلحة هي التي تدوم .."
ونستون تشرشل

عندما يحسّ الإنسان أنه في قبضة إنسان آخر فهناك ما يستحق المراجعة، خاصة عندما يتيقن المقبوض عنه أنّ قبضة القابض عليه تتحكم في مصير مستقبله كليا من حيث البداية و النهاية.
فهنا و في هذه الثانية التي تشكل الحسم، يأخذ التفكير شكلا تصاعديا يدلّ على ارتباك و شك كبيريْن، من ناحية المبدأ و قيمته، إضافة إلى علو الكعب المعنويّ كثيرا، أين تنطلق الأنانية مكشرة عن أنيابها التي لطالما احتفظت بها إلى مثل هذه المواقف.
فالغير قليل منّا يتساءل عن تشرشل، لكنني أجد في هذه العبارة تقريبا الدقة كاملة في وصف زوايا ضعف النفس البشرية، و لا يسعني إلاّ أن أعلق قائلا: ".. نعم! من الضعف يُصحح المسار، و يستيقظ الطمع، ليتمنى للضمير نوما هادئا"

****

بوست فاخ فلسفي

الأسئلة:

حدد طبيعة علاقة رجال عصر النهضة بالفلسفة السكولائية؟ ما المقصود بأوهام المسرح في فلسفة فرانسيس بيكون؟ على أيّ أساس أقام هوبز فلسفته الأخلاقية و السياسية؟ حدد طبيعة جوهر الله و علاقته بالطبيعة في فلسفة سبينوزا؟

محاولة للإجابة:

إنّ تاريخ الفلسفة عرف عدّة تحوّلات، بدأت بالحضارات و انتهت إلى أجزاء أخرى، كان أهمها ما حدث في أوربا من تحوّل إلى الأمام.

حدد طبيعة علاقة رجال عصر النهضة بالفلسفة السكولائية؟

من المعروف أنّ الفلسفة السكولائية التي سادت في القرون الوسطى خدمت اللاهوت. بينما الفلسفة الحديثة التي قامت بسقوط القسطنطينية خدمت العلم، و لكل فلسفة رجالها و أعلامها، لكن يبدوا واضحا أنّ أعلام الفلسفة الحديثة كانوا على قطيعة مع الفلسفة السكولائية، بل تجاوزوا هذا إلى المناداة بإحلال هذه القطيعة معها في أوساط العامة من الناس، معتبرين أنّ الفلسفة السكولائية فلسفة تقيد العقل و الإبداع الذيْن يعتبران عوامل أساسية في البحث العلمي و الفلسفي من أجل الوصول إلى اكتساب المعارف المختلفة.

ما المقصود بأوهام المسرح في فلسفة فرانسيس بيكون؟

لقد رأى فرانسيس بيكون أنّ الباحث عن المعرفة لا بد له أن يتخلص من الأوهام و المعارف المسبقة، و قد صنف هذه الأوهام إلى أربعة أصناف و هي: أوهام الكهف، أوهام الذات، أوهام السوق و أوهام المسرح. و بيّن خصائص كلا منها واحدة بواحدة، بحيث أنّ أوهام المسرح عند بيكون هي تلك المسلمات من المعتقدات الخاطئة، التي يسلم بها الناس، و يتخذونها مراجع أساسية في تداولاتهم اليومية، فهي تكبل المجتمع، و ترفض التجديد، و تدخل الحياة الاجتماعية في نوع من الآلية المعدّة مسبقا، و المفروضة على الأفراد دون وعيهم بطبيعتها الحقيقية، فتعيق التطوّر.

على أيّ أساس أقام هوبز فلسفته الأخلاقية و السياسية؟

لقد كان لطوماس هوبز نصيبا وافرا من الفلسفة البريطانية الحديثة، خاصة فلسفته السياسية و الأخلاقية، فقد قامت فلسفته السياسية على فكرة ضرورة التخلص من الطبيعة الحيوانية للبشر، عبر إبرام عقد بين الحاكم و المحكومين، يتم بموجبه تحديد القوانين التي تضمن المعاملة المتبادلة للطرفيْن، و يكفل مبادئ أساسية للتعايش بين الأفراد، فرأى أنّ السلطة يجب أن تكون بيد الملك، و هو خاضع للإرادة الخيّرة، فيحاسب الجميع و لا أحد يحاسبه سوى الله عزّ و جلّ، بينما أشار إلى ضرورة العفو على التائب، و إحلال العقوبات للمذنبين، على سبيل الردع لا الانتقام، و غيرها من التشريعات التي ترسم حدود المعاملات بين الأفراد ليسود النظام الاجتماعي. أما فيما يخص الأخلاق، فقد رأى هوبز أنّ لا مفر لأحد من العيش بأنانية في مساعيه لتحقيق لذته بكافة الوسائل و السبل المتاحة له في حياته اليومية.

حدد طبيعة جوهر الله و علاقته بالطبيعة في فلسفة سبينوزا؟

لا يمكن لدارس للفلسفة الحديثة أن يتجاهل ما قدمه سبينوزا لها من أفكار، ساهمت في الدفع بالإنسانية إلى الكمال، و من ضمن هذه الأفكار تصوره للطبيعة و الله عزّ و جلّ. فعند سبينوزا الله هو جوهر أزلي، مطلق و لا متناه، بالإضافة إلى أنّه خيّر، صادق و غيرها من الصفات الكاملة، و هو صاحب الحال اللامنتهي، ألا و هو الفكر الذي مصدره العقل الكلي، و هذا يؤكد أنّ هناك أشياء جزئية بيّنها في الأحوال المتناهية كالإنسان، الحيوان و جميع الجزئيات في هذا العالم، و تكمن العلاقة بين الله و الطبيعة عند سبينوزا في عملية التحايت، بحيث أنّ الله يحايت الطبيعة، فهو يتمظهر فيها، و ما القوانين الطبيعية إلاّ طريق إلى الوصول لعظمة الله عزّ و جلّ. فعند سبينوزا الله و الطبيعة وجهان لصفحة واحدة، و ما على الإنسان إلاّ اكتشاف حقيقة الجوهر الأزلي باكتشاف القوانين الطبيعية المختلفة.

في الأخير يمكننا الاستنتاج أنّ الفلسفة الحديثة كانت ثورة على ما سبقها من جمود فكريّ سافر في حق العقل البشريّ، و هي الحلقة الجوهرية في اتصال الفكر مع الإبداع و التطوّر.

****

تــاج ألكسندر الجديد

حين اختار ملك الضباب بداية العطلة الشتوية ليعلن عن بداية السنة المعرفية، تأكدت من حقيقة طالما راودتني الكتابة عنها لكنني تجنبت ذلك، و هي أنّ السلطة عند الإنسان لم تعد مرتبطة بالحاضر أو الزمن الراهن، و كأنها في زمن غير زماننا. إن الصدق الذي تقرب من هذا الملك لدرجة أن وشحه وزيرا على من كان لهم شرف الخيار و التوجيه إضافة إلى الرد في حين لا ينفع الرد، هو في الأصل وجه للسيطرة في أماكن و مواقيت مقيتة إلى درجة الازدراء. لكنها تبدوا من ذهب إذا صال الظلم بين أرجاء المغضوب عليهم من زاوية واحدة، فيبدوا أنّ ملك الضباب ما يزال متأثرا بأن تكون المملكة و شعوب ما وراء الضباب، و التي توافق بحرية سياسية أو علمية ممنهجة على جملة قوانين وثيقة انعدام القانون جزء كامل العضوية من مملكة الضباب العظيمة، و هذه الأخيرة تنظم و تضمن المساواة و التضامن بين بني آدم التي تتكوّن منها نفس الأقاليم الجديدة.

ففي يوم العزاء، يجلس الملك عادة في مقهى "الروداج" يدخن سيجارته و يرتشف فنجان القهوة، يتأمل عقارب الساعة المتثاقلة، ثمّ يسأل النادل إن تغيرت نسبة الثقافة خارج المقهى، فيقول: "لا" ، فيبصق في وجهه و يخرج مسرعا، و هو يصرخ في الناس: "يمكنكم أن تعودوا إلى التراث.....النهضة المعرفية ليست اليوم، و نهاية الضباب ليست غدا".

قد يكون هذا المشهد لقطة مبتورة من فيلم يضع أعصاب المشاهدين و المتتبعين على حافة انهيار عصبي يستمر حتى مساء المستقبل.

إنّ العرافين و المنجمين و باعة الوهم و الأكاذيب، في العالم يخرجون دائما من جحورهم في بداية كلّ عام ليطلقوا نبوءاتهم في كل الاتجاهات، و هي كما نعرفها، تبشر بكوارث و فواجع و مآسي، و ينتظر

الناس عرافات القنوات الفضائية، و قارئات الكف ليعرفوا أيّ مصير يكون للفلسفة الفلانية و المذهب الفلاني، و الرياضي علان، و الأديبة علانة، و لا يسأل أحد عما سيحمل العام الجديد للفكر الصادق بعد أعوام من الغليان و المغالطة، و أي مفاجئات سيحملها لكل مفكر، و هل سيطلق الفكر لحية معارفه كما كان عليه الوضع في صناديق الفلسفة أم أنّ الفكر سيخرج شاهرا مقصه ليحلق اللحى، و يقرب النظريات من المعتقد، و يرفع شعار: "لا إكراه في الرأي" و لو كان مخطئا.

سيطلع علينا تجار الوهم و الخرافة و يلقون على مسامعنا آيات من القرآن، و أحاديث من السنة، و مأثورات عن السلف الصالح، يفسرونها على هوى إيديولوجياتهم الأنانية و يقولون: "إنه الحق" ثم يزفون لنا بعض تنبؤات نوسرداموس، فيقولون لقد تحدث عن النكبة الفلسفية، و انهيار الأنساق، و انعدام النتائج الفكرية بعد عمل و جهد عظيميْن من التفكير، مثلما تحدث عن النكسة العلمية و الحضارية، و انتشار الجهل و عدم الوعي على امتداد الخارطة الإنسانية و ما جاورها، و في اليوم الموالي يقولون: " مبروك ..... صار للفكر أصحاب، مهمنين و محترمين، و أنّ العقول الجامدة تحركت أخيرا بعد أن اعتقلت العقول المسيطرة و المتحالفة مع العقول الجاهلة، و أنّ العلم زار القلوب الميّتة سرا، و أنّ اليقين أرسل برقية تهنئة للاحتمالات معتقدا أنّ وزيره المتيقن ما زال يحكم... و أنّ الخير خرج من سجنه إلى ساحة الشر يدخن غليونا، و أنّ الإبداع زار العرب الجدد و تصالح مع عقولهم كما فعل مع أناملهم، و أنّ الصمت اقترح معرفة قبر والده مقابل اعترافه بالصوت الحر، و أنّ الإقصاء تعرض لإنزال جويّ حواريّ استهدف منشآته التعتيمية، و أنّ دولة المشاكل اقترحت على كتيبة الحلّ الوحدة بعد الاستقلال، و أنّ آسري التفكير دفنوا أسلحتهم في مقبرة السلطة الموحشة."، هكذا يقولون، و هم أكثر من متأكدين أنه لن يحدث، لأنهم لا يحبون أن يحدث و لو في أحلامهم.

هكذا هو عالم المعرفة، يفرح صباحا بميلاد قانون علميّ جديد يضاف إلى ترسانة القوانين الوضعية المقنعة، و يحتفي مساء باكتشاف حلّ للغز الجهل المؤقت.

فلماذا يستعجلون نهاية الكون؟ و يجعلون سيّد مملكة الضباب و وزرائه يهنئون بفرحهم، فقد انتظر الناس نهضة الجاهلين، لكن شيئا لم يحدث، و اعتذر ملك الضباب عن شطحته العلمية الفاشلة ليقول له العلماء: " من الأفضل أن تأتي بأكاذيب فاخرة على أن تأتي بمعارف ساخرة". فلا مزيد من القلق و الحيرة مادامت هناك نقطة في جزء بسيط من جهة أسفل المخ تعمل و تقود البشر.

لن نقلق بعد اليوم، لأننا مدركون أنّ هناك أغاني أندلسية تريح الضمير، و تزور المسامع من وقت لآخر، فالعلم هو مسيرة الإنسان المبهرة، و هو تاج الفلسفة الجميل.

فكثيرا ما تأذى هذا التاج عبر العصور، فقد سرقه اللصوص ثم باعوه لتاجر يشتري المسروقات الثمينة، أخذه هذا الشخص إلى صائغ ليتعرف على قيمته الحقيقية، و إذا به يأخذ نصف ثمانية أجزاء ثمنه الوافي، عرضه الصائغ معلقا إياه على واجهة متجره فلم يُعجب به المارون إلاّ متمرّدا يلبس بزة شرطي، فدخل و سأل عن ثمنه و وزنه و مدى نقائه، ثم اشتراه دافعا سعره ببطاقة ائتمانية مزيّفة، و وضعه في حقيبة سرقت من يده و هو يتجوّل في سوق العوام، أين وجد التاج نفسه هدية من محتال يطمع في فتات الإدارة و الحكم إلى أمير لا يفقه من الدنيا إلاّ اللباس الأنيق، العطر المبهج، و الحسناوات الخبيثات. أخذ الأمير التاج، و وضعه على رأسه لفترة قصيرة حتى يتمكن خادمه المطيع أن يأخذ له صورة بهاتفه المحمول، أين وضعها ذات الخادم بعد ذلك على صفحته الخاصة على الفايسبوك ، فلم يُعجب بها أحد، و مع ذلك تلقت عددا كبيرا من التعليقات المليئة سبا و تجريحا.

هذه هي حالة العلم الذي لم يجد من يحفظه من مؤامرات الخونة و كيد الزمان، إنه لشيء مؤسف لن يزيدنا إلاّ إصرارا على التمسك بنور هذا التاج اللامع، و الذي سيحميه شرفاء الجيل الجديد كما حفظه السابقون من الخالدين.

****

تحية لساعي البريد

"... لا يمكن للإنسان أن يتعلّم فلسفة جديدة أو طريقا جديدة في هذه الحياة دون أن يدفع الثمن. إنّ ذلك يتطلب ثمنا غاليا، و لا يمكن الحصول عليه إلاّ بالكثير من الصبر...".
فيودور دوستوفسكي

الصور التي اعتدنا عليها لطالما كان لها الأثر الكبير علينا، خصوصا و أننا قد نتعلم أشياء كثيرة، لكننا لا نفهمها، و لا نعرف مدى أثرها علينا، خاصة و أنها تلازمنا في كامل محيانا، و ما أكثرها تلك التي ترافقنا و نجهل أنها كذلك.
علمنا، فننا، تفكيرنا و عملنا، كلّ هذه الطرق المعيشية المختلفة تدور في دائرة أقل ما قيل و يقال عنها أنها تعجّ بالمكاسب المختلفة، و إن اختلفت أسبابها و نتائجها إلاّ أنها أمسكت بيد الإنسان، و أرشدته إلى طريق الهناءة. لكنّ البشريّ بطبيعته المليئة بالطمع ما يزال متمسكا بها، لا حبّا فيها، أو تقديرا لها عما صنعت به، و لكن من أجل مطالبته إياها بالسير معه، و عدم تركه حتى يبلغ الهناءة القصوى في أقصى حالاتها المتواجدة لحدّ الآن. و الممكنة في أيّ زمن من الزمان.
فحين يظل الادراك طريقه، يقف ساعي البريد أمام العنوان المطلوب، و هو يحمل الرسالة، تلك التي جاء بها من الماضي البعيد، تلك التي كتبها الشخص المجهول، تلك التي تبدوا لحاملها ككنز من المرجان، و تلك التي تحكي حكاية الإنسان، موسومة بالريحان، بين الدقيقة و الثانيتان، ظهر في أسفل باب العنوان، نسيم خفيف، فشدّ الساعي على الرسالة بقبضة لطيفة، محاولا اعادتها إلى جعبته السوداء، لكنه لم يفعل، فقد تذكر أنه أخرجها من السواد و وعدها أن لن تعود إليه مجددا.
في هذه الثانية التفت يمينا ليشهد منظرا لم يتعود على رأيته إلاّ في الأفلام الهندية، حيث شاهد العذراء القاتلة ترقص على أنغام بوذا بهدوء، و كأنّ حركاتها معادلة رياضية، بمجهول واحد من الدرجة الأولى، قد استمتع رنيه ديكارت بحلها، عندما كانت أوربا نائمة في ليل شديد الظلام.

و لكن الساعي أعجب كثيرا بتلك الرقصة، على الرغم من أنّ العذراء القاتلة كانت تستعد لإزهاق روحه، بعد أن لمحته، و أخذت تقترب منه شيئا فشيئا. لكنه كان منغمسا في الملاحظة التي أشرفت على النهاية بنهاية حياته، فتلك العذراء معروفة لدى الساعين بأنها تتفنن في القتل، و هي لا تقتل أحدا تكرهه، و إنما تقتل فقط من تعشقهم إلى حدّ الجنون.

و حين بلغت الأمور مبلغ الرياح الجارفة، دق جرس الضمير، و عاد الساعي لتذكر ما جاء من أجله، أين أدخل الرسالة في صندوق الرسائل الموجود أمام العنوان المطلوب، و همّ مهرولا إلى يسار الطريق، و هو يتمتم: " كانت رائعة، فاتنة، لكنها قاتلة، و أنا ما أزال ابحث عن المجد و الخلود، لن أموت اليوم، و لن أستسلم غدا أبدا، لأنّ مصيري هو الجلوس على كرسيّ العظماء، و أنا العظيم في عقلي، لن أكون عظيما حقا إلاّ في عيون الآخرين ...".

هذا ما قاله ساعي البريد، فقد يبدوا أنه مجنون، لكنه حتما جنون قانونيّ و مشروع، فكلنا سعاة بريد، و إن اختلفت العناوين التي نقصدها، إلاّ أننا نجتهد في البحث عنها. لأنها شريعة نلتزم بها، كما التزم بها ساعي البـريد.

****

جانب من رحيق أوديسا اليونان

من الأكيد أنّ لليونانيين القدامى باع طويل في التأسيس للفلسفة كتفكير مُؤسس له و مضبوط، قابل للنقد و المراجعة من أجل التصحيح و التطوير.

و في خضم الفترة اليونانية أين بلغت الأفكار الفلسفية مبلغ الاحتدام و التجاذب، ظهر تيار فلسفي فكري رأى بأنّ الحقيقة لا توجد تائهة بين غياهب الطبيعة، و إنما هي قابعة في الذات الإنسانية، و ما على الإنسان إلاّ اكتشافها من أجل اتخاذها معيارا يقيس به كلّ الأشياء، فهذا ما جاء به بروثاغوراس عندما بحث في الفضيلة، العدالة و الحرية، و بنى تصوراته لهذه المباحث انطلاقا من حياته التي كان يعيشها من جاه و سلطة و قوة، مطلقا مبدأ: " الإنسان معيار كلّ الأشياء الأخرى، و ما الأحكام إلاّ تقارير تبدأ من الإنسان و تنتهي إليه" و مبررا لخطاب لغويّ لم يُعرف له مثيل في تلك الحقبة الزمنية من عمر أثنـا، و لا في حقب سبقته، و مؤسسا لعلم جديد سمي بعلم البيان.

و قد زادت هذه المبادئ ترسخا مع جورجياس، و ألينياس و أنتافون و غيرهم من الذين عرفوا باسم السوفسطائيين، الباحثين عن العدالة و المساواة بينهم و بين اليونانيين (من أب و أم أثينييْن) مستخدمين سحر لغتهم من أجل نشر أفكارهم و معتقداتهم التي بدت صحيحة، حتى ولو كانت مبنية على أسس و مراجع خاطئة، هشة تخدم مصالحهم المادية و الطبقية من سلطة و مال.

في هذا الوقت بالذات أين كان الفكر السوفسطائي في أوّج قوته الاقناعية، و الذي اكتسبها من صلابة و حنكة السوفسطائيين اللغوية، مفضلين الحس على العقل، و جاعلين من المادة مصدرا للحقيقة، و الإنسان ميزانا للمعارف كما قال جورجياس: "...أنا لا أعرف، و حتى إن عرفت، لا يمكن تعريف ما عرفت للناس..." ظهر فيلسوف آخر غير راض عما تنادي به السفسطائية، و معطيا للعقل نصيبه، و للتفكير قيمته، و جاعلا من السعادة غاية لا تدرك إلاّ بمجادلة الذات و الآخرين ... إنه سقراط، يونانيّ

عابد زاهد، جادل السوفسطائيين في الفضيلة و الحرية و غيرهما، مؤسسا بذلك للمنهج التهكمي، و التوليدي للأفكار، أو ما يعرف اختصارا بـ"المنهج الجدلـي" أو كما يسمى باليونانية القديمة: "ألينخوس" و التي تعني مجادلة.

فهذا المنهج يقوم على ثلاث مراحل: أولها أن يدّعي سقراط الجهل أثناء محاورته لأحد السوفسطائيين، و ثانيها افحام الخصم بأسئلة بسيطة من أجل استدراجه إلى طرح حججه، و ثالثها يأتي رد سقراط على المحاور له بطريقة استنتاجية من أجل هزّ الأساسات (الأفكار الجزئية) تهميدا لهزّ المعتقد (الفكرة العامة) الواقف عليها.

و ما يمكن استخلاصه من هذا كله أنّ للسفسطائيين نصيب هام في الدفع بالفكر الإنساني ناحية اعطاء اللغة مكانة مميزة و هذا ما مهّد لفلسفة الخطاب في عصور تلت، كما أنّ سقراط أعتبر مدخلا بفكره للعديد من أنواع الفكر، كفلسفة الأخلاق و الفلسفة السياسية و غيرها، داعيا إلى البحث عن الحقيقة بالعقل كما قال ذات مرة: " ...لا يمكن أن تصدقوني إن قلت لكم أنّ أبرز صور التفوق الإنساني هي مساءلة الذات، و مساءلة الآخرين...".

****

جناح كُسِر

يا من تكنز الأموال، و تقتل الحياة، و تشرد الآمنين، و تعلوا على القانون، و تكفر بشرائع الأرض كما السماء، و تأخذ من اليوم يوميته، و من الحلم أفراحه، و من العمل قيمته، و من المواطن مواطنته، اعلم هذه المعلومة العاجلة.

اعلمها و احفظها و إن شئت، و من بعد اذنك، اعمل بـها، لأنها لا تخرج إلا من صديق أو زميل أو قريب من الروح و الفؤاد، قبل أن تفوتك لحظة هي أهمّ ما في حياتك من زمن، و هي أغلى ما في جيبك من كنوز، و هي أجمل ما في قصرك من عذارى، و هي أعلى درجة من المقدّس، و أشدّ صلابة من المسدّس، و أكثر تعفنا من المكدّس.

فإليك إياها خالصة نقية، نقاء الصفاء، و هي لك بصراحة البلغاء، فاعلم اذن: ... إنّك ميّت

ففي يوم من الأيام هو آت لا ريب، ستموت كما يموت كلّ البشر، فماذا ستفعل؟ و أين ستهرب؟ و من ستهزم؟

و ما على الفاهم إلاّ أن يفهم، و ما على النائم إلاّ أن يستيقظ، لأنّ الوقت كالقطار، و العبرة بالشباك لا بالقوائم، هكذا علمتنا الحياة، و كم من أقوام لم يفهموا الدروس !!!

فأين أمية و المأمون؟ و أين عمر و هارون؟ و أين سيّد الخلق و حبيب الحق محمّد عليه الصلاة و السلام؟ و أين الجبابرة و فرعون؟

كلهم تحت التراب، فإما في الجنّة ينعمون، أو في السعير مستقرون خالدون.

****

حكمة المستور

قد يكون من المكلف التحدث عن الشهامة بعيدا عن وجود أذرع لهذا الوحش الذي يسكن ابن آدم منذ دخوله الغيب و حتى الوصول إلى الغيب نفسه، لكنه يبدوا أن ولوج الحديث عن هكذا أمور من المنظورات التي لا بد النظر فيها، فإن كف، فهو غير كاف لتوخي الصدق في ما يراد له أن يكون واضحا، و لهذا تعد هذه المنظومة طريقا فسيحا يقود إلى جلاء الهشامة عن الشهامة، و هذه أيضا ترضى بعدم الوقوع في الغموض بابا مغلقا، فإلى أين نصل بتجاوز الباب المغلق؟

لعل من المبكّر النظر في الذكورية، لما هو مبحوث الآن، لكنها تبدوا بعيدة عن الذكورية حتى و إن أخذت منها، بل أعتقد أنها تتخذ من الاثنيْن، و من الجنسيْن، فيكون للأوّل جانب خشن، و للثاني طرف ناعم، و هذا إن ميزنا بين الجوانب على سياق يبدوا تقليديا أكثر من التقليد المعروف.

فالشهامة رفعة عن الظلم بنوعيْه، و كسب لعزّة بعينها، تستمد قابليتها للبقاء، من بقاء استمرارية وجودها، أي أنها مشتركة في المبدأ، و مختلفة في التمفصل.

فعلى من لا يدري أنه متورط في آلية هذه، أن يدرك أيضا أنّه ضمن النطاق، و عليه فالدائرة مطابقة لدائرة الأحوال الأخرى من الحقوق، و هذا ما لا يقدر على استيعابه العقل المعتز بعقلانيته، و الرافض للاعتراف بمدى كينونة الصفات من كينونة اثبات أنّ للثبات نماذج، لا تصلح إلاّ لمحاربة السبات، و حتى هذا مرهون بجدية الوقوف لدى الشهم، و خروجه بمواقف تخدم شهامته، فلا يضمحل فكره على علوّ، و لا يقف ذهنه على قوام متحرك بألوان تخدع البصائر.

وعليه ففكرة كهذه، إن لم تتغذى من ستائر المعلوم منها، كانت كمن هجر السبات ليضاجع الميتات، أو على أقل تقدير، كالذي نسي أنّه بشر، و ظن أنه نبات، فلا أشياؤه تردّ عنه الغزوات، و لا جلده يحميه من اللدغات، و ما بين المبينات، يقع فكره الخائف من الجماليات.

الحذر مطلوب يا أولوا الصبر، و ما على الصابر إلاّ أن يدرك شهامته و لو بعد حين، خاصة إن جعلها وسيلة و ليست من الغايات، و هذا بأنّ السعي لا تعييه العثرات، بقدر ما توهنه الكلمات، فما أدرك الفشل إلاّ مختل عن شهامته، و عدم مكترث بالرفات، و ما ابتعد عن هذا الباب إلاّ مقيم، خدم الموضوع و لم يلتفت التفات.

فصَدق الصدّيق حين أمر بالعمل، و نهى عن حب العسل، لأنه يقود إلى الملل، و هذه إحدى العلل، التي يدركها العالِم دون الجاهل، و ينحرف عنها الأميّ العامل، و لو اختلف في ذلك كل معمل للعقل و فاعل.

فكما في الشاشات عاجل، فإنّ من القلوب عاطل، و هذا يؤثر على كل عازل، يفرّق بين العقل و العاقل.

هنا يبدوا الأمر محتدم بالنكران، و يبدوا أيضا أنه من الايمان، أن يجهل الإنسان، و هذا من أجل العمران.

فلا الأخير هو قائم، و لا الأوّل هو دائم، و لا بينهما واصل صارم. فكلّ منهم ينظر لحاله، و لكلّ حادثة محدثاتها، و محدثيها. و ما الجريمة إلاّ بينهما مقتسَمة، و ذات اشتراك في السمَة، و على من زاد اهتمامه بهذا، أن يعي أنها ذات فائدة رغم شرها، و خاصة لمن أراد من التي ذوتناها الآن نصيب نقول له: "لا يفهم الشهامة إلاّ الشهم، ولد شهما، و حافظ عليها نقية صافية" .

فكلّ ما سبق عبارة عن باطن، لا يظهر للعميان من ذوي البصر، لكنه متفق عليه من ذوي الألباب، و عليّ أن أكمل المسير في هذا الميدان، لأبيّن أنه كما هي مضرة الاستقالة من الباطن، فإنها شديدة الفتك من الظاهر.

فالمتخلي عن شهامته يقع في معصية أهل الحل، و يصاحب أهل البطلان، طلبا للبهتان، و يخيب أمام الناس كما يخيب أمام نفسه، حتى أنه يجهل خيبتاه معا، مع اصراره على الانغماس في تحطيم عزمه. فلا الناس قادرة على تغييره، و الأشياء لها امكانية اعادة تماسك فتات تهشمه. و ما بين الذي لاحق بما وصل إليه المبتدئ في الجهل فيما هذا الاتجاه نصيب بنصيب.

فعلى الأمر المدروس أن يكون محذورا منه، فالمضمر في المستور أعظم من قبح الظهور، و لا لهذا سبب عند الأوائل، و لا عند العقال، فكلهم يدرسون، و لكنهم لا يتوصلون، لما يشفي الواقعين أو الموقوفون.

وهنا نجد أن المنظورات تتصادم، لكنها تظهر مدى حاجة الإنسان لنفسه قبل حاجته لغيره. فهو قبل أن يكون اجتماعيا فهو بشريّ، و قبل أن يكون كذلك فهو ذاك، و قبل أن يكون كذلك و ذاك، فهو على الإنسانية موقّع، و متموقع في كل موقع.

فبجمع المواقع يتكوّن الكيان، و بجمع الكثرة من هذا الأخير ينتج المجتمع، الذي يستمد حياته من الأمة قبل الدولة " .... فهيبة الأمّة قد تكفلها لها أحيانا الأفكار، إذا ما تناغمت هذه الأفكار مع المرحلة التي تجتازها الإنسانية ....".[1]

****

دعونا نتفهم

لن نرضى بالسيئ بديلا عن الجيّد من الأمور، لم نخلق لنسلّم بالواقع كما هو، مادمنا نؤمن بأننا نملك حق التغيير و اختيار مصيرنا، نحن البشر نعلن اليوم عن ميلاد الحديث و العصري إضافة إلى المتطوّر و ندعي أنه لا مثيل له، بينما ننسى أننا نحن الذين صنعنا كلّ هذا، و نحن القادرين على صناعة المزيد، لدى قررنا أن نأخذ بالفضيلة كفعل و نترك العناوين للإعلام.

الحرية، العدالة و العيش المشترك و غيرها من المفاهيم تُصنع و لا تُكتسب. الحياة قصيرة لكننا نستطيع أن نجعلها مفيدة، فسلام عليكم يا أحبابنا، و سلام موصول إلى من هم في دار السلام، فمن صنع القيد يمكنه أن يكسره، و من لفق الأقوال قادر على البيان، و ما علينا إلاّ أن نطرح المشاكل فنبحثها و نجيب عن المبهم قائلين: "ما زالت الإنسانية بخير ما دام هناك عقل فوق هذه البقعة الزرقاء الصغيرة منشغلا في كيفية الوصول إلى الصلاح".

****

شنوربارت العظمة

".. القليلون منّا يستطيعون القيام بأشياء عظيمة، لكننا جميعا نستطيع القيام بأشياء صغيرة و نحن نشعر بحبّ عظيم....".

الأم تيريزا

[1] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر _ دمشق، ص118.

نعود إلى الأشياء البسيطة في عدّة محطات من حياة الإنسان، نرممها و ننفض عنها بعض الغبار الذي كان قد أخذ له مكانا في زواياها، ثمّ نسلمها للساحر الأمين، فيمضي بها تاركا وراءه الكثير من الألم الحلو، و غير مدرك لما هو آت أبدا.

إنها قصة جميلة يرويها الإنسان لبني الإنسان، حين تغلق الأبواب المعرفية، و حين يحسّ الساحر بالتعب، فالقيمة ليست في النتيجة، و لا هي في المقدمات، و إنما هي في خطوات القيمة في التدرج من العظيم إلى البسيط على نحو يكفل الفرجة و المتعة، إضافة إلى التفجير الكامل للطاقة الفكرية المصاحبة لعمل الأعضاء كافة.

قد لا يفهم الساحر الكثير من الأمور التي يقوم بها، و لكنه يدرك شيئا واحدا و وحيد، إنه هو الذي يحرِك و يحرَك منذ فجر قيام الوجود، إنه هو المدار و الفلك، إنّه هو الشاعر و الشعر و الجمهور الشاعريّ و الشعري، إنه هو في صورته المتيقنة، إنه الساحر.

و في ثانية من ساعة يده اليمنى، تختلط الأمور عليه، فيشد نظره إلى لافتة زيتية موضوعة على الحائط المقابل للنافذة الزجاجية، فيقع في تفكيره الكثير من الألغاز المتناقضة، ألغاز جعلته يبكي كثيرا، و لا يهنأ له بال ما دام التفكير لم يتوقف، فقديما كان للسحر المعنى الذي يضاهي النوويات في عصر أتلفت فيه المعاني كلها، و لم يبقى منها إلاّ الخليج الباكي.

و من خلال هذه العملية العسيرة، تظهر للساحر فكرة لا تقوم بما قام به الكثير، فكرة تنزل إلى أعماق كلّ إنسان، لتصنع من أحلامه موردا للعيش، و الذي لا يبدوا أنه كله جميل، و هذا من أجل الخلطة الشعورية الجامحة، فكلّ إنسان يسموا بنفسه ابتغاء للعظمة و التفرد.

لقد انتبه الساحر لأمر نسيه. نعم !! إنها العظمة !!!

نعم تذكر الساحر شيئا أحبه في أحد أوقات حياته، فأحمر وجهه الذي لا يحمر إلاّ عندما يحس الساحر بالحرج، و اصفرت جبهته التي لا تصفر إلاّ عندما يدخل الساحر في دهشة غريبة، و أخذت يداه و قدماه ترتجفان ارتجاف طائر بين أنياب مفترس شرس.

".. إنها فكرة العظمة اذن .." هكذا همس الساحر في قلبه، و سرت تلك المعلومة في كامل خلاياه على اختلاف أنواعها و أشكالها و وظائفها.

فهذه الفكرة كثيرا ما راودت الساحر أثناء طفولته، و قد زيّنت عقله بكثير من الأماني عندما كان في سنّ يرى العالم كله مكانا جميلا، كجمال العذراء القاتلة، أين بإمكانه أن يكون نبيلا، كما يحدث في روايات الإقطاعيين. و لكن هذا كله لم يحدث حتى الآن، حيث يقف الساحر و يدرك من هذه النقطة عملية التفكير كله. و فجأة تدور عدّة صور في ذهن الساحر العنيد، صور كثيرة هي لأكثر العظماء عظمة في تاريخ البشر، و الصورة الأخيرة هي للساحر نفسه.

في هذه اللحظة بالذات يدق باب البيت السحريّ، يفتح الساحر الباب بخطوات متثاقلة، و إذا بابنته العزيزة جدا على قلبه تستقبله بابتسامة رقيقة، و نداء لطالما أحبه الساحر: " يـا زعيم السحرة، أبي اشتقت إليك و أنا أحبك " و أخذته في أحضانها ببراءة كاملة و قوية تعبّر عن صدق نـادر.

فبينما الساحر يمرّ بفرح عارم من الذي هو فيه، مرّت عليه فكرة العظمة من جديد، و عادت إلى ذهنه مرة ثانية، و لازمته في أثناء استقباله لابنته الغالية، و حتى عندما تناولا بعضا من الحلوى، و شربهما لكؤوس من الشاي، و أيضا لما ودع الفتاة عند نفس الباب، مازالت العظمة فكرة متشبثة بتفكير الساحر.

و هنا أدرك أنّ لا مفرّ من مواجهة هذه الفكرة، و إلاّ ستأخذ منه متعة أهمّ فترات حياته القصيرة.
فجلس في غرفته و سأل نفسه: " كيف أكون عظيما؟ "
الآن بدأت المواجهة، فبطرح الساحر لهذا السؤال يكون قد ألغى صفة العظمة، و سلخها عن نفسه التي تحلم بها، و يكون قد وضع لها اشكالية، صاغها لتعبّر عن هدفه الحقيقي حقا و فعلا.
إنها الخطوة الأولى نحو الإجابة، أو الإجابة اليقينية و الغير المتوقعة، لأنها عملية اعتراف داخليّ و صريح بعدم إدراك الذي نسعى لإدراكه، اعتراف بجهلنا له.
بعدها فكّر الساحر حتى تعب، و تصادمت في عقله الكثير من الأفكار، من بينها فكرة الفساد و فكرة الاجرام اضافة إلى أفكار أخرى أكثر ايجابية كفكرة مساعدة المحتاجين، و فعل أنواع من الخيرات دون انظار أيّ ثواب. لكنه في الأخير تيقّن أنّ كلّ هذه الأفكار الجيّدة و المتكاملة ترتبط فيما بينها برابط وثيق، و معرفة هذه السلسلة الفكرية من معرفة شخصية الساحر الحقيقية.
بعدها انفجر الساحر ضاحكا، و انغمس في قهقهة عجيبة، و حدّث نفسه عن غبائه كثيرا، فهذا الغباء هو الذي أزاغ تفكيره عن أنّه عظيم في ذاته، فلِما يريد كشف عظمته للآخرين؟ إنهم لا يستحقون أن يروه على حقيقته، إنهم أقل شأنا منه ما دام عظيما. و بالتالي العظمة ستلهيه عنهم، و ستجعله يفارق أغلى و أعزّ أناس أحبهم و أحبوه، فالعظيم عظيم على الناس، و هؤلاء يهابونه، مما سيولّد مساحة بينه و بين أحبائه، لخشيتهم منه، و لارتقائه عنهم. هكذا فكّر الساحر، و هكذا وصل إلى الإجابة التي بحث عنها طويلا. و التي تمثلت في أنّ العظمة موجودة في قاع نفس كلّ إنسان، و ما على الفرد إلاّ الاستماع إلى صوتها، فتقوده إلى الإنسانية المتألقة و المتفوّقة في ذاتها قبل ذوات الآخرين المستقلة عنها. فهي عامل تقارب على الرغم من أنها تبدوا سببا للكبر و التكبّر.
لدى في الأخير أحسّ الساحر بهناءة لا توصف، و حمد الله على أنّه ساحر عظيم في عقله و قلبه، و ساحر بسيط في عقول و أعين البشر الذين يعرفهم، و الذين لم يتعرف عليهم بعد.

****

أنـــا رأيي هو: "لاَ يَهُمُّنِي...."

"He will come! Fear not, Ernest; the man will come!"
Nathaniel Hawthorne

ما رأي قارئ هذه الأسطر أن يتخيّل أنه مقطوع الصلة من العالم، أنه غير مرغوب فيه من الجميع، أنه لا يترك أثرا في مجتمعه عند اختفائه، و هو بهذا منبوذ من الوجود؟
إحساس ليس بمخيف، و إنما هو أكثر من ذلك، لأنه الرعب بوجهه الواضح، و أنيابه اللامعة، يجدان كل اللذة في افتراس البشر على حين غرّة.
فأيّ عودة إلى مخلفات التفكير تجعل من الألقاب و الأسماء مجرّدة أرقام، و على هذا يدلّ على الفرق بين المخلّفات على أنه شاسعا في الترجمة إلى معان مزيفة، فما فائدة الأمل؟

الأمل خرافة تدفع إلى النجاح، إنها مجرد خرافة تُفرح الإنسان، و تصنع منه رجلا مقداما، يشق الصعاب و لا يهتم بالثمن المدفوع في سبيل ذلك، و لهذا كان الأمل أجمل و أعذب خرافة تُساق إلى البشر.

فالإنسان منذ ولادته و هو يلعب القمار، ليس من أجل الكسب المادي كما هو معروف في لعب كهذه، و إنما من أجل كسب نوع آخر من المقدرات، و من هنا تطلّ علينا اللغة الغير مفهومة من الرأس، لتختفي بين اجزاء الكتمان، فالمقامرة بالحياة هي أخطر اللعب، خصوصا عند الشعور بالتعب، و القيام بالبحث عن استراحة تحت القبب.

لكن القضية أكبر و أعظم من الإنسان، أشدّ قسوة من الزمان، و أعظم قدرا من الايمان، لأنها لا تحترم الرجحان، و لا تعترف بقواعد الضمان، إنها أكبر و أجلّ من البرهان، الذي يصنعه العقل، و يصرّح به اللسان.

إنها اشكالية فرد من البشر، لم يعد يشبه البشر، لأنه تعلم أن يكون قادرا على الصناعة، و غير ملتزم بغير هذا من العادة، فكرهه أبناء جنسه، و لم يجدوا له سوى التناسي، ليضعونه على طريق النسيان.

هذه هي قصة الإنسان الذي أحب البيان، فتحوّل إلى شيطان.

فما رأيكم؟ أن تكونوا مشردي الفكر و الرأي، أن تكونوا غير موجودين، أن تكونوا متألمين لمجرد اقترافكم جريمة التفكير !!!!

أيها البشر! أنا أفكّر، فإن اعجبكم فذلك منّي، و إن لم يعجبكم فذلك منكم، و أنـــا لعدم اعجابكم غير مهتم، لدى أنـــا لا يهمني إقصائي، و لا يهمني إن كان سببه اني مفكّر في حقول أنتم وحدكم حرمتم التفكير فيها، فـأنا أعيدها و أكررها: "لا يهمني.... "

****

لن انهمك في الموت.... لقد قررت

"... فلا تبكني.. إنني لن أعود.... فقد هان عبر بلادي الوجود..."
كمال ناصر

ليكن واضحا أنّ الإنسان لا يختار مكان ولادته، و لا مكان موته، و بالإمكان إضافة التوقيت و الكيفية، فلما نحبّ أماكن و أزمنة محددة؟

كم أتمنى أن أجد من يجيبني عن هذا الاستفهام بقدر تأكدي أنه لم و لن يفعل أيّ أحد، لأنها قناعتي، فأنا ولدت في الوطن الذي لم أختره وطنا، و لا أحد يستطيع ضمان أنها ستكون مكان وفاتي، على الرغم من أنّ أحبابي الذين لا أعرف سرّ حبهم، و مدى شدته أو وجوده أصلا، يريدون هذه الأخيرة و يرغبونها بشدة، أيّ مصير هذا الذي أواجهه؟ و إلى أين أنا ذاهب؟

لا أجزم أنني أملك القدرة على تغيير وجهة مصيري، لكنني أعلم يقين اليقين أنني أمتلك القدرة على صناعة واقعي، فأنا أستطيع بناء أسباب مغايرة لكنني لا أضمن الوصول إلى نفس النتائج. كم هذا غريب !!!!

فيكفيني شرفا أنني أجرؤ على وضع يدي على الجرح و أصرح به، في الوقت الذي يتجاهله الكثيرين، و يتناساه أو لا يعترف به الأغلبية من أبناء جيلي، كم هذا محزن !
محزن جدا أن تتلقى المبادئ التي لا تقتنع بها من هذا المجتمع البائس، من أجل أن تُقبل فيه و فقط، إنها حقا من المضحكات المبكيات، أو لنكن صريحين إنها من المبكيات التي تُضحك كل شريف، في زمن قلّ فيه الشرفاء و ضاع معنى الشرف بين كل المعاني.
فأنا بعد ثلاثة و عشرين سنة من قذفي في هذا العالم، ما أزال لا أعرف من أنــا؟ و أيّ انجاز حققت؟ و إن كنت موجودا بالفعل؟ أو أنا موجود و كفى؟
لماذا أنا حيّ؟ و أيّ تعريف للحياة أنا مؤمن به؟ ففي أحيان كثيرة أختزل الحياة في كلمات يرسمها حاسوبي على صفحات بيضات القلب و زرقاء الهوامش، أفعلا هذه هي حياتي؟ و هل هي كل انجازاتي بعد أكثر من عقديْن من الزمن؟
فإن كنتم تريدون الاعتراف، فإني أعترف أني محتار، و غالبا ما أدخل في دوامة من تناقض الأفكار، حتى إني أشك على فترات في ضرورة العيش، و حق الاختيار !!!!
قد يبدوا بعد كلّ هذه الكلمات أني متشائم، فلكن! انا متشائم، لكن أنا لست كغيري من المتشائمين، فحتى المتشائمون أنواع، و أنا من النوع الذي يشخّص التشاؤم ليتخلص منه، و لماذا أوصف بالتشاؤم ما دام كلامي تثبته الأيام؟ !!!!
هذه عينة صغيرة مما يدور في داخلي، و أنا أشهد أطلال الماضي، و سواد المستقبل، و هو رأيي على كلّ حال.
لقد قررت أن أتمرّد على أحبائي، على القوانين و التقاليد و الأعراف، و خاصة تلك التي يحبها الجبناء من أبناء مجتمعي، ليظهروا أقوياء بها، بينما هم يبقون في نظري جبناء و ضعفاء، كالضباع التي تحتمي بزخارف النمور.... فهم بجبنهم أوضع من اللقطاء.
من السهل جدا عليّ أن اتقمص لباس هذا الموضع الكريه، فأكسب شرعية هؤلاء الجبناء، لكنني لا أريده، و لا أنتظر اعتراف أحد بما أعمل من أجله، هذه شيمتي منذ نعومة أظافري، و من شبّ على طبع شاب على هداه.
فالقوانين التي أتمرّد عليها ليست قوانين دولة، و لا هي قوانين أمة، و لا هي حتى قوانين مجتمع، و إنما انا اتمرد على قوانين العبث.
اللعبة التي أُجبر على لعبها لا أتحمّلها، و لهذا أنا أحاول إلغاءها نهائيا، فالإنسان لم يُخلق من أجل الأكل و الشرب و الجنس و فقط، بل خلق ليهنأ بالحياة، و العمليات الأولى هي وضعيات آلية يمرّ بها البشر، لدى لكل فرد طريقه !!!! و ها أنــا أرسم طريقي.

****

لَنْ تَحْرِقُوا أَرْوَاحَنَا

" ... على الإنسان الذي يريد أن يسود الآخرين أن يكون سيّد نفسه أولا... "
فليب ماسينجر

مقدر للإنسان أن يعيش حياته، و مقدر له أن يتمتع بحقوقه المختلفة، فالوزن الذي هو عليه رسم و لم يحسم بعد، و لكن تبقى لهذا الكائن المقدس القدرة على التغيير و التطوير، إن ما هو أرادها إراديا، و سعى إليها عبر خطة يضعها و يتخذها مسارا.

فالعملية تبدوا سهلة في بدايتها، لكنها في حقيقتها بالغة الصعوبة، و ما على الإنسان إلا فك شفرة هذه العملية العويصة قصد إقامتها على أحسن ما هو مطلوب منه. من حيث أن لكل عملية بداية.

فالتغيير يبدأ من اللحظة التي نفكّر فيه، ثم يترسّخ في اللحظة التي نؤمن به فعلا، و يتجسّد خلال عملنا في بنائه على أرض الواقع، و يتم حين نلمسه، و يلاحظه الآخرون.

إنها عملية واضحة الخطوات، و التي هي متّحدة الموضوع و العضوية، و أي إخلال في اي مرحلة، سيؤدي بالتغيير للانتقال من الهدف إلى الأمنية، و هذا لا يحصل إلا عند الفرد الضعيف ضعفا أكيدا، و إن كان هذا الضعف في حقيقته عامل تبرير لا تمكين مستقر في أيّ ذات تدعيه.

و في عصرنا، عصر العمال و الأفكار، نجد أن التغيير خطى خطوات جبارة، و لإدراكه ما على الإنسان إلاّ أن يقرر و يثابر، فالعمل على قدر المواقف و الظروف، و التي هي في تغيّر مستمر، مما يستدعي المرونة الكاملة و السريعة، من أجل استيعاب المتغيرات و دمجها في مشروع التغيير.

و الأبهى في كل هذا أن لهذه العملية أساسات موروثة و جاهزة، و هي متعددة الأجناس و الأولويات على حسب مسار العاقد على التغيير، لأنها عملية تسير وفق الطموحات، التي هي في الحقيقة غير محددة المعالم، و هذا ما يعقدها، و يجعل بلوغها ضربا من الجهد و نوعا من الأمل.

فقبل كل شيء، التغيير ليس هدفا كليا، لأن الكلي من الأهداف هو التبديل على نحو التطوير من الجانب الفكري، لدى فالتغيير في عصرنا ليس تغيير الملابس و الهاتف النقال، و إنما هو تغيير النمط التفكيري برمته من حيث الانطلاقات، و الجداول الترابية للفكر، و المتناسقة على هيئة الترتيب الجاد، فتدخل في صناعتها جملة من الأفكار، التي يلجأ إليها المغيّر على سبيل الإنقاذ لا الترويح. أي أنه صراع داخليّ قد ينتقل إلى الخارج بضربة واحدة.

و ما الإنسان إلاّ ينبوع أفكار، و لهذه الأخيرة سلطة تفوق كلّ السلطات التي عرفها التاريخ، و لها طبيعة لم يعهدها البشر من قبل رغم مرافقتها للإنسان منذ وجوده، و كثيرين جعلوها نقطة اختلاف الكائن المقدس عن غيره من الكائنات. لأنّ التفكير عملية تأخذ من كل جنبات و أجزاء الفرد، لتصله بنفسه و ما يحيط به على حد السواء. بل و قد تتمكن من التأثير فيه تارة، و الدفاع عنه تارة أخرى.

فالفكرة سلاح عابر للحدود و القارات، و هي من أخطر الأسلحة التي استعملها الإنسان، فقد تتمكن من السيطرة بفكرتك على شعوب بأكملها. فمبدع الأفكار الجديدة قادر على التغيّر كيف ما شاء، و متى يشاء، بل و قادر على تغيير من يريد تغييرهم، إذا ما أدرك ما يملك من قدرات، و وظفها بطريقة سليمة. فما ادركت اليونان حضارتها إلاّ بفكرة أنّ بلاد اليونان موطن للوغوس حر، و ما أدركت الإمبراطورية الرومانية قوتها إلاّ بفكرة أنّ روما مركز للحكم و التسيير، بقدرة السلاح و التدمير، و ما بلغت ألمانيا مجدها، إلاّ بفكرة أنّ الألمان جنس لا يقهر، و ما جعل أميركا في ريادة العالم إلاّ فكرة العالم الجديد التي تقوده افتراضيا و واقعيا.

فللفكرة سحر لم يبلغه حتى سحرة فرعون، و لها قوة لم تبلغها حتى الأسلحة المحرمة دوليا. و لها عنفوانها الذي لم يصله حتى جهابذة السياسة أو الدعاية و غيرهم من العباقرة. فهؤلاء أفكارهم هي التي رفعتهم درجات و جعلت منهم عباقرة و مبدعين.

فالجنس البشريّ قسمان: فئة رائدة و أخرى راكعة، و ما الفرق بينهما سوى الأفكار، فالرائد يبدع الفكرة الجديدة و المتميّزة، و الراكع يتبنى تلك الفكرة و يعيش على فتاتها.
" ... إنّ التفكير الإبداعي يقتضي تحطيم أنماط التفكير القائمة، و ذلك للنظر إلى الأمور بطريق مختلفة ."
ادوارد دوبونو، طبيب. مؤلف كتاب "التفكير الجانبي"

****

نسينـــا أنّنا نسور

كل ما أعرفه أننا ننبش في القبور
و مصيرنا حتميا ليوم النشور
فحياتنا قِدرا كبيرة قد تثور
و عملنا صاف نقيّ أم طهور؟
لا نعرف في أيّ مكان ندور
فقط نفقه الكسور
و لا ننتظر المهور
في أيّ فلك ندور؟
أظنّ نقصاننا لقائد جسور
لا يهتمّ بالعذارى و القصور
فقط اهتمامه بصغار النسور
حتى لا تغلي القِدر و تثور
هذه الأهمّ من الأمور
في عصرنا دون العصور
فلا تنسوا أننا نسور
إننا نسور !!.

****

يوم مع فكتور ديلافيرا

"...احن رأسك، ضمّ يديك
الحياة قصيرة، لست وحدك، في مرات أخرى كنت هنا. تذكر ذاتك، مع جماعات أخرى، كانت تتحدث لغة أخرى، ترتدي ثيابا أخرى، كنت شابا و شيخا مرة أخرى....."
كلمات للشاعر: أنطونيو أنريكيه، من ديوان "القِبْلَة".

من الأكيد أنّ الارتقاء بما هو غير مألوف إلى درجة المرغوب، لشيء سام و غير عاديّ على الاطلاق، يحتاج إلى الأخذ بكلّ ما من شأنه إضافة علاقة وثيقة بين ما هو حاصل، و الذي نهدف إلى الحصول عليه، فالسعي بالأسباب، لباب لأهم الأرباب، من أجل بلوغ الألباب، مكانة خالية من الاكتئاب.
و كما في كلّ يوم، نزلت من القطار في المحطة الرئيسية، و اتجهت إلى النفق أو الممر رقم ثلاثة، أين أتجه عادة، و بينما أنا أنزل درج ذلك النفق الأبيض، إذا بي ألمح فتاة في مقتبل العمر، أخذت من المفاتن النصيب الكبير، فغمرتها بنظرة ثعلب يحوم حول فريسته، بينما هي استقبلتني بابتسامة الغزال المسلِّم لأمره، اقتربت منها و قبل أن أترجم جموح أفكاري إلى كلمات، فرّت هاربة، و كأنها عرفت ما دار في قلبي من خبث ناعم، و ما صدقه عقلي من وهم. حينها نفضت عن أفكاري غبار الأوهام، لكنّ مشهد الغزالة سيطر على تفكيري، من محطة القطار، و على طول مسافة ركوبي في الحافلة البرتقالية المتجهة إلى القطب الجامعيّ الأوّل. و قد انهمرت في شعيرات دمي المخية العديد من التساؤلات. من تلك الحسناء؟ و لما الهروب؟ هل كنت أحلم أم هي حقيقة وقعت و انتهت دون رجعة؟
و حالما وصلت إلى القاعة رقم ستة عشر من الطابق الرابع لأكاديميتنا، وقع في ذهني أحد نماذج الجواب الذي بحثت عنه طوال مسيري الصباحيّ. فقلت في نفسي بعد أن لدغت احدى أقدامي، و سرى ذلك الألم حتى بلغ مراكزي العصبية، نعم لم يكن حلما، لقد كنت مستيقظا، و في كامل قواي العقلية و الجسدية، فما من أحد يحلم بعد أن يستيقظ على السادسة صباحا، و يأخذ حماما خفيفا، و يصلي صلاة الفجر قبل أن يشرب قهوته، و يحمل محفظته الجامعية، و يهبّ إلى محطة القطار، ما من أحد يمرّ بهذه المراحل و هو يحلم، إنها حقيقة بالفعل.
و بعد أن حسمت أمري بأنّ ذلك الحادث كان واقعا و ليس من مصنع خيالي، انتقلت إلى المرحلة الثانية من التفكير، ألا و هي محاولة كشف سبب هروب الفتاة، و بعد أن انشغلت قليلا في هذا الموضوع، وقع في فكري أني لا أجيد معاملة الجنس اللطيف، و هذه حالي منذ مراهقتي التي كانت صاخبة، فانكشف غمام فرارها قبل محادثتي، و ذلك لأن هيأتي كانت تبعث عن القوّة، و النساء لا يرتحن للرجل المبالغ في سيطرته، لأنهنّ يعتبرنها تنبع عن ضعف فيه، على الرغم من أنهنّ يعشقن الرجال الأقوياء.
و تحسرت على سذاجة تملكتني خلال أهم ثانيتين من عمر ذاك الصباح، ألا وهي الفترة التي استغرقتها في مشاهدة تلك الفاتنة.

بعد كلّ هذا الجهد الفكريّ الكبير أخذت نفسا عميقا، و تأملت القاعة من حولي، فكنت وحيدا وسط كومة من الطاولات و الكراسي، و في لحظة! عادت ذاكرتي بقليل من الثواني، و انقاد ذهني إلى أني لم أجب عن كلّ الأسئلة، و كعادتي في مثل هذه المواقف، خطر في بالي الجواب عن سبب الابتسامة، فقد رسمتها تلك الحسناء على محياها لأنها رأت في ملامحي ما لم تره في ملامح الآخرين، لقد رأت شيئا جعلها تبتسم، و أنا أزداد يقينا أنّ ذاك الشيء الذي جعلها تظهر رقتها هو السيّد: فكتور ديلافيرا الإنسان، الخالي من عجرفته المعهودة، لأني في تلك الوهلة، كنت شاردا قليلا، فأتت ابتسامتها كمنبه يعيد لي نوعا من التوازن، و هذه ليست غريبة على كائن مقدس أكثر عاطفة من الرجال القساة.

و بعد هذا انغمست في سعادة مفاجئة! قبل أن يحين وقت البحث عما بقي لي لأجيب عنه، مَن تلك التي جعلتني أضيّع أجمل ساعات يومي في التأمّل و التفكير؟ و أجبرتني على تشغيل محرك، لا أستعمله إلاّ في امتحاناتي، أو عند مواجهة مواقف مصيرية في حياتي؟ من هي؟

هذا السؤال أخذ كل يومي من التفكير، فانشغلت به أثناء التقائي بزملائي في الصف، و أثناء القاء أساتذتي لمحاضراتهم على مسامعي، و أثناء مناقشتي بعض الأفكار، سواء مع زملائي، أو مع الشرفاء من الأساتذة، و امتدّ هذا الانشغال حتى أثناء فترة تناولي لوجبة الغذاء في أحد مطاعم المقاطعة، و حتى في المقهى التي قرأت فيها جريدتي، و في فترة دراستي المسائية أيضا. لكن الجواب جاء كالإلهام، فقد نزل عليّ كالوحي في غرفة نومي، و أنا وحيد، تجول في عقلي جملة من التناقضات، و أذناي تلتقطان موسيقى "براين أدامز" المثيرة.

في تلك اللحظة فقط تيقنت أنّ تلك الحسناء هي من نسج تمنياتي، و فهمت ما دار حقا. فأنا العبد الضعيف، أملك مخيّلة تعمل دون توقف، و أثناء عملها، صنعت لي نموذجا عن أهدافي أثناء نومي، و بعدها، و لما صادفت أوّل فتاة ردّت عليّ نظراتي لها بابتسامة خفيفة، تطابقت صورة هذه الفتاة اللطيفة، بصورة الزوجة المثالية التي نسجها خيالي، فبدت لي فرصة عمري، و ما هروبها إلاّ ذهابها في سبيلها، فالبنت لا تعرفني، و لا أنا أعرفها و الذي يعرفها و عرفني بها هو خيالي الواسع، و الذي حدث معها، قد يحدث مع أيّ فتاة تتطابق صفاتها مع ما هو موجود في ذهني.

فما كان منّي إلاّ أن ضحكت على نفسي لمدّة ليست بالقصيرة، و حمدت الله على كوني رجلا يفهم ذاته و يكتشفها، قبل أن يعرّفها للآخرين.

****

يا أيها العالم العربي: أنت ظالم

من المحزن جدا أن نرى الظلم في كل مكان، في التعليم و في الإدارة و في المجتمع و الدولة و في الحياة بكل جوانبها الاقتصادية و الثقافية و التربوية و السياسية. إنه لأمر مؤسف للغاية.

البلاد العربية التي ولدت معوقة في جميع المجالات، و التي مات ضميرها منذ زمن بعيد، ما يزال أفرادها يئنون تحت وقع الضربات التي تسقط عليهم من كل جهة، حتى أنهم أصبحوا يطالبون بحقوقهم الدنيا، و بتوفير متطلبات الحياة الضرورية كبشر فقط، دون التطرق إلى الحقوق الأخرى و الطموح المشروع الذي بلغه الكثير من أمم الأرض. فكيف لا يكون هذا العالم الذي يسمى بالعالم العربي ظالما؟

فلو عدنـــا إلى التاريخ، فإنّ هذه الأمة و منذ سقوط الأندلس، و تكالب الآخرين على ثرواتها، أو لنكن أدق فمصيبتها التي ضربت صميمها بدأت منذ نكبة سيّد الأندلس: العلامة ابن رشد، حينها بدأت المشاكل الطوفانية تضرب العروبة و الإسلام، و لا تترك من سقم إلا و ترجعه إلى أفراد العالم العربيّ، و ما تقلص مساحة الدولة المسلمة و سقوطها فيما بعد هو أكبر دليل على ما نقول، و من بعد هذا توالت الأزمات و المصائب، وصولا إلى العثمانيين المحتلين ثم الأوربيين المستغلين، و التي بلغت على أيديهم هذه البلاد أقصى درجات تفككها، و حتى على يد العملاء و في الزمن الإيديولوجيات، و وصولا إلى عصر الحلم الأميركي، كلها مراحل شهدت تأبين الإمبراطورية الإسلامية و الثقافة العربية عموما.

و خلال هذه الأزمنة كلها كان الفرد في هذه المناطق من العالم يتعرض لأشرس عملية اجتثاث عبر العصور، مما ورّث الأجيال عبر هذه المراحل مشاكل و صعوبات ضربة الهوية، الحرية و الأحلام، و أنستهم أنّهم في يوم من الأيام كانوا سادة أقوام.

من يقول أنّ الفرد العربيّ يعيش الرفاهية فهو كاذب، و من يقول أن المجتمع العربيّ مجتمع متخلف فهو جاهل، و من ينسب تراكم كل هذه المصائب إلى جماعة بعينها فهو واهم، و من يشخص هذه المراحل من عواصم بعيدة عن الأرض العربية فهو مغضوب عليه من ذاته قبل الآخرين.

كل هذه الأفكار غرست في نفسية الطفل العربيّ مبادئ القبول بالهزيمة، و جعلته يتحدى العالم بمفرده، و يلوم أجداده كلما فقد قليلا من أمله القليل، و من هنا علينا أن ننظر بعين الشفقة نحو الفئة الناعمة من المجتمع العربيّ، لأنها لا تذنب إلا حين تسعى إلى استعادة مكانها بين المنازل في السلم العالمي.... فيا أيها المجتمع العالمي أنت مقصّر ناحية أطفال العرب.

أما الشاب العربيّ فلا يختلف كثيرا عما يعيشه الأطفال، فهو يحمل مسؤولية أجيال بكاملها. كلها أخذت موقف المنتظر للمخلص، بينما هذا الشاب لا يملك من إمكانيات الحل ما يجعله سيّد نفسه، و هو الهارب من تأثيرات التاريخ و الجغرافيا و التراث و تداعيات الأصالة، فقد ضاع بينها كلها، حتى أنّه صار يستقبل بداية يومه عربيا، و يفطر في منتصف اليوم و هو فرنسي، و ينهي ليله أميركيا، ليستقبل الفجر ثانية و هو هنديّ.

فحالة الضياع التي تهاجم الفرد العربيّ في بداية حياته، لم تزل حتى الأن، منذ بدايتها بعد سقوط غرناطة، بل و قد استخدمت كسلاح ضده من قبل أعدائه و حاسديه من بداية البداية للصراع الذي وصل إلى درجة طمس الفكر و محاولة إلغاء قرون من دفاتر التاريخ و دفن ثقافة بأكملها.

و حتى الدين لم يسلم من هذه التناقضات و الفوضى، فأصبح يأخذ أبعادا بطريقة عكسية للغاية و عبر الكثير من التحوير و التحريف، فأدخل مجالات كان يجمع فيها بين القلوب، و علقت على التعاليم الدينية أوساخا كان الدين و ما يزال بعيدا عنها، لكنّ القليل من الأفراد يدرك أنّ الدين اليوم لم يعد ذاك الدين الذي عرفه الأوّلون، فالتفسير و التأويل خلط كل المفاهيم، و جعل من التعاليم في خانة الدفع بالدنيـــا إلى مراتب القدسية الدينية، بينما هي منها بريئة، و هذا هو أخطر الخطر، و الذي جعل الدماء تسيل بلا رقابة و بكل همجية، و على حساب القيم الدينية نفسها.

أما بالنسبة للثقافة، فالحديث عنها أصبح ذو أشجان، في زمن أتلفت فيه كل ملامح الخصوصية تحت شعار الإنسانية، فساعة الواقع هي النقيض التام بما جاءت به متن الأخلاق و جسدت عبر الأيام، و أصبح التوحش المقنن من أقوى التهديدات التي تضرب الكيانات العربية و بلا رادع حتى هذه اللحظة، و هذا ما ترجم انسلاخ الفرد العربيّ من كل ما يحوم بجانبه، و قد بلغ مداه حين صار لكل وحدة عربية قيمها التي وضعتها وفق استنساخ أتاها من مناطق بعيدة جدا عما يرتبط بمكانها أو زمانها، و هذا كله

تحت عناوين الحق التي هي في أفعالها و تطبيقاتها أخطاء بكل ما تحمله الموازين الأخلاقية من تأكيدات.

لدى علينا ألا نستغرب كل مظاهر قلة الحياء في كل ما يحيط بنا تحت غطاء التقدم و العصرنة، و بما أننا نستورد المبادئ دون تمحيص، و في العمق هي مبادئ صدرتها الثقافة العربية في زمن سابق، لتستغل في المخابر الأوربية أو الأميركية، و لتقلب هناك عكسيا، ثم تعاد إلينا تحمل الزينة الخارجية لتغرينا، و هي تحمل الهلاك الداخلي لتحطمنا و نحن نستقبلها بكل براءة، استقبال الضحية لقاتلها دون علمها، و من هنا نقول: يا أيها الحامي لحقوق الإنسان أنت ظالم.

عفوا !!!! إنه ليس ظالما، ما دام أنه يعتبر العرب و المسلمين من غير الإنسانية، فهم في نظره أراذل و غير مؤهلين للإنسانية، عفوا أنا أعتذر منك يا من تعتبرني همجيا و حيوانا مفترسا و إرهابيا و خطرا على وجودك و شريرا كما أنت نفسك تعلنه في وسائل إعلامك و خطاباتك و مؤتمراتك.

و أنـــا أعتذر بالنيابة عن كل فرد عربيّ تحطمت أحلامه أمام غطرسة العظماء الذين نصبوا أنفسهم كذلك، لكن اسمحوا لي أن أذكركم أنّ زمن العظماء قد ولى، و هذا الكون يسير عبر قوة اكتشفها اينشتاين فيزيائيا، و تعرف عليها المؤمنون من المسلمين عبر السماء، حيث أتاهم اليقين من خاتم الأنبياء، و من هنا أتمنى أن تقبلوا اعتذاري، لأنني اليوم أنبئكم بفشل مشاريعكم، على الرغم من أنها تبدوا سائرة في المسار الصحيح..... و ذلك لسبب واحد أنتم تعرفونه، إنه تجاهلكم لجهلكم بصميم الجهل.

بعد كل ما قيل في حوار الحضارات، و التعايش بين الشعوب، أو تصادم الأمم، يمكننا أن نجد تلك الفجوة بين الاعتقاد و التخطيط، و بين المخطط و المطبق، فكلها عوامل تبشر بما بشرت به السماء، في كل كتب الديانات الصادقة، فذلك الفراغ هو الذي يجعل من البشر صيغة واحدة رغم تعدد الأجناس و اللغات و الألوان و درجات رفاهية الحياة و كرم العيش، إنه الفراغ الذي يمهد لقيام الإمبراطورية العربية الإسلامية على نقيض الحلم الأميركي و الثقافة الأوربية، لأنّ البشر لا يعرف الهاوية الجماعية، و إنما هي في حقيقتها تبادل للأدوار لا أكثر.

****

أصنام الألفية الثالثة

أمور كثيرة تلك التي تراودني في الكثير من الأوقات، و أنـــا الشاب العربيّ المنهك بقضايا و آفات العرب الجدد، لا لأمر هو مقضيّ في ذاكرتي، و لكن من أجل بـلـــوغ التعرف على بعض من الوقائع كما حدثت و تحدث، و ليس كما نسمع عنها، أو تسرد على مسامعنـــا، كمن يتلي علينا جانبا من مقدسات الكلام.

فعندما تأخذني لحظات التفكير بعيدا عن الواقع، و أنغمس في التأمّل، تراودني بعضا من الأسئلة، تلك التي تراود القلة، و ربما أنـــا الوحيد الذي تراوده، أو على الأحرى إنها تراودني عن جهل مني بمصدرها و عدد الأشخاص الذين تراودهم، و لأكون أدق، إنها أسئلة حول الذات و الحياة و الهوية و الحرية !!!!

جئت، ورأيت، وانتصرت[1] و كثيرا ما وجدت هذه الجملة معبرة، و هي الأنسب لتلخيص ما يدور بين جدران الزنزانة القديمة من أمور، جعلت من العرب الجدد مسخا قبل أن تدخلهم المسلخ التاريخي.

فهم الذين يبيعون كل شيء، و يشترون كل الدنيـــا، لا عن بعد استراتيجي، و لا عن سياسة واضحة، و إنما عن هوى أصابهم، أو نخوة لم أجدهـــا سوى ضمن صفحات الكتب العربية الجديدة، و دونها من الأمم.

و ربـــما !؟

قد يجد كلامي الكثير من الناس، و يتفحصونه، فيستنتجون أنه ليس بغريب، و لا بعيد عن الصدق، و إنما الإكثار من تداوله هو الذي يزعجهم....

و مع هذا أعلق قائلا: "..... نعم !! هو كذلك، و لكننـــي أعيده، و سأكرره، لأنه يعتبر مرا، و شريحة كبيرة من الأعراب تحاول الإفلات منه، و الهروب إلى الأمام، في اللحظة التي فضل فيها آخرون من هؤلاء العرب، تجاهله، و اعتبار كل متفوه به إنسانـــا مخبولا، إن كان محظوظا باعتباره إنسان !!. "

فعندما يقتصر الحب على البذل دائما، دون مقابل يصبح الأمر ضياعا للوقت و للأمل[2]، و على هذا بقيت الأمة العربية مجرد عواطف زائفة، و ممزوجة بالكثير من الحقد و التآمر اللعين، و كم سيكون هذا الكلام خفيف الوقع عليّ، لو أنّه كان يصف أعداء البشر، فليس مقامه أن نصف به أبناء خير الأمم، كما جاء في الوعود.

فلو أنّ الأماني تتحقق كلها، لتمنيت أن أستبدل حياتي بحياة أحد العبيد في قبيلة قريش، فقد كانوا يصنفون من غير البشر، و مع ذلك خرج منهم مؤذن للنـــاس كافة، يدعوهم إلى الفلاح. أو أتمنى القتال كمقاتل يحمل السلاح فيكون مصيره الموت في إحدى الساحات، فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيـــرٍ.....كطعم الموت في أمرٍ عظيـــمِ [3] ، و مع هذا تبقى هذه الأسطر مجرد أمنيات. فمن العربِ الجدد من اختار القتال فأصبح مجرما، و منهم من اختار السلام فأصبح عبدا لغيره، و منهم من استقال من الحياة، فتحوّل إلى ميّت يتنفس... ما هذه الحال ؟؟

و بين أحداث هذا المشهد العربيّ الجديد، تنقشع بين ضبابه بضع ذيول من الحقبة العربية البسيطة، تلك التي علمت العرب يوما كيف يحسون، و كيف يبكون، ثم يمسحون دموعه ليقاتلوا و ينتصروا، و لكن دعونـــا من قتل النفوس فهذا هو الجهل الفضفاض، و إنما يكون القتال بالفكر و الأدب و العلم و السياسة، فإزهاق أنفاس البشر لها مواضعها، و هي الحدود التي لا يجب أن نعتدي عليها، بعكس ما يحدث عندنا مع كل الأسف.

عندما تأتي البلايا لا تأتي كالجواسيس فرادى.. بل كتائب، كتائب[4].. و مع ذلك فالتشاؤم ليس من صفاتي، إلا أنه يظهر في هذه المواقف بوضوح، فـــكما أؤمن بريادة الأمة العربية الجديدة، و

---

[1] CAIVS•IVLIVS•CAESAR•IV

[2] حكمة صينية

[3] http://www.almotanabbi.com

[4] ويليام شكسبير

استفاقتها، فإنني أؤمن كذلك بالعمل الذي يجعل هذه الأمة في إحدى عربات قطار الزمن، فما تخلفنا سوى لقيام جيراننا من الأمم بأعمالهم، بل و بأعمالنا أيضا بالنيابة عنا.

****

صلاة أكتافيا[1] العربية

من الغريب أن نجد أنفسنـا و عبر كل هذه الفترة من الحياة.... لا نفهم من أين أتينا؟ و إلى أيّ مكـان نحن قاصدون؟ .... نـعم !! يبدوا هذا غريبا في قواميسنا البالية، و عجيبا لدى عقولنا النائمة، و موضوعا للبحث عندما نفكّر في البحث قولا كما نحاول تجسيده بالفعل على الأرض.
قد يبدوا غريبا أيضا عندما ننظر إلى حالنا، و نحن نشفق عليها كلما نظرنا إليها، و قد يكون أغرب عندما ندركـ أنّ من أسباب هذه الحال اليائسة البائسة هي أنفسنا المتهالكة في هذا العالم الذي لم يرحمها يـوما، و الذي لن يرحمها اليوم أيضا.... هكـذا حدثني أحد رجال الأمّة، و هو يحزم أمتعته إلى بلاد الغربة! و لكـن!! مع عجزي على الإجابة على كلّ هذه الأسئلة التي ترهقني كثيرا.
إنـها سلة من الاستفهام القاتل، و الذي ينموا كلما نمى هذا النوع من البشر و تطوّر، لأنه و بكل بساطة يتغذى من جهلنا و غبائنا و أعصابنا التي تزداد انهيارا كلما تقدمنا في العمر، و رسمت السنين آثارها على أوجهنا الكئيبة.... نعم إنها الحقيقة التي لطالما هربنا منها و لا زلنا نهرب منها و كأنّ الهرب هو قدرنا.
ففي طفولتنا قالوا لنا أنّ المستقبل سيكون مزهرا و مفروشا لنا بالورود، و أنه سيكون منّا المهندس و منا الطبيب و منا المعلم و منا الروائيّ و منا الرياضيّ و الفيزيائي و الممرضة. و لكن هيهات منا المذلّة[2]، و كأنّ الأقدار أخطأت العناوين التي أرسلت إليها، مما جعلها تهتمّ بالأشخاص الخطأ، و أصبحنا نحن مجرّد ضحايا للزمن، و مجرّد أرقام في دفاتر الحالة المدنية سواء من جهة الولادات أو الوفيات.
لن ألوم الزمن كما فعل الكثيرين !! و لن ألوم نفسي كما سيصنع الآخرون، و لكنني سألوم تلك القوّة التي تحكم العالم و تتحكم في مصير شعوب بأكملها، و تسخر من أجيال و بلدان و كلّ ما فيها من حياة و مقدرات، و كأنّ هذا الكون هو ملكها و ملك نطافها الذي سيحكم أيضا هذه المعمورة وفقا لوراثة منوية لا أكثر.
مشروع ضخم، و مخططات محكمة، و آليات كثيرة و فعالة للتحكم حتى في الذباب، و مع هذا يبقى القليل من الأمل القليل أصلا، و الذي يجعلنا نتفاءل باليسير من كرامة الحياة في ظل حقوقنا التي نأخذها بسواعدنا و بعد حروب و معارك ذاتية و جماعية، و كأنّ المنطق للقويّ، يقلب به كل منطق مخالف، هكذا طفت لغة الاستكبار في جميع الأصعدة على سطح المحيط الملوّث بغطرسة الإنسان.
كل جانب يقول: " أنـا ربكم .." و نحن نعلم أنّ الله لا يظلم و لا يريد الظلم لعباده، و متبعي نور هداه، و كلّ من الأطراف يدعي القدسية لأفكاره، و هم الذين ينسون أنّ القداسة لـها أصحابها، و هي ليست

[1] زوج الإمبراطور نيرون أو نيرو، امبراطور روما القديمة
[2] السيّد حسن نصر الله

لعبة أطفال، و كلّ جهة تجاهر بأنها على الحق و باقي الجهات على باطل، و إنما الحق و الباطل لمن الظروف و المؤثرات التي تستعبد الناس كما هم، سواء قاموا أو لم يقوموا.
هكذا علمتنا الأحزان أنّ الدموع لا تشفي أسقام العواطف، و هكذا ظللنا الطريق الذي كان سيحمينا من كل شرارة تريد صعقنا، و لو بعد حين. فلن يكون هناك لا ظـالم و لا مظلـوم.
فغياب الوعي لأكبر دليل على وجود الكثير من أشبـاح المعرفـة، و لحجة أيضا على بقاء فئات كبيرة من المجتمعات الإنسانية تحت خط الجهل، و هذا لأكبر دليل أيضا على وجود نوع من التحكم في المعاركـ الأخلاقية و الصراع الفكري من قبل رقعة ضيقـة من سادة البشريـة عبر طول عقود من الـزمن.
من المهم في اعتقادي الأخذ بمسببات الولوج إلى تلك المساحة الضيقة من الساحة العامة لمدينة المعرفة، أيـن يجتمع الفكر بكل أمـور الحياة الإنسانية، و فيها تعقد المجالس ذات العضوية الغير المتوازنـة، ففيها القليل من الذين يملكون مقاعد دائمة، فمقعد لـشيخ الأقوام الأرضية، و مقعد للشاب الحكيم، و مقعد للطفل الخبيث، و مقعد للأستاذ المجرم، و أخيرا مقعد أبديّ[1] للعاهرة الخبيرة.
كما أنّ تلك المؤتمرات لها ميزة ضد ما تدعيه من وقـار و براءة، على الأقـل هذا ما وثقته كل وسائل الإعلام على مر العصور، فلولا الرشاش الذي يصنع في أماكن بعيدة لما كانت أزمات البشر تحيك آخر فصول المآسي، من أجل التنديد بها من طرف هؤلاء الأعضاء الشرفاء على الورق و ضده على ما خلف الأبواب، حين ينسون كل القيم التي يحاضرون بها، و حين تنقلب إلى سراب، هكذا صرخ البواب.
فذلك الصوت العميق الذي يخرج من أعماق حنجرة باكي الأندلـس يتغلغل إلى أكثر من نفس حية، فيلقي عليها السلام، و يقرؤها أنعم الخطب من سفراء العلم و الأحكام، و ليذكرها بأنها هزمت هناك، حين فقدت قشتالة شرفها في مضجع أرغون، و هي تلبس في تلك الليلة ثيابا مستوردة من سوق اشبيلية، و تضع عطرا سرق من محل بقرطبة، بعدما تلت بضع أبيات كتبت على صخرة بجبل طارق، و فتحت الباب بمفتاح صنع بين أسوار غرنـــاطة.... هذه هي القصة التي ما تزال تفعل مفعولها بين العرب و الغرب إلى الآن، فلا هم نسوا أننـا سحقناهم بالعلم و الفلسفة و الدين و الحياة، و لا نحن نسينا أنهم طردونـا بالخمور و عطور العاهرات.
الألـــم هو مصير الضعفاء، و هو الذي يجعل من حياتهم تحديا جبانا لأنفسهم، بعيدا عن التجديد، و بعيدا عن تكتل التقاليد، و تمديد الأعراف و المقاليد، فأينما تكون البشرية، يكون معها نوع من ضعاف النفوس، و بعضا من ضعاف القلـوب، و الذين يزينون هذه الأيـام بالقليل من إجراءات الاحتراز و الحذر، لأنهم نوع من الإزعاج، مضايقة من نوعية خاصة، هكذا برهن الـزمن على وجودهم، و هكذا خلقت أولى أسباب حذفهم من التـاريخ و المصير و الحيـاة.

[1] مزوار أحمد ياسين.

".... و حسبنـــا أن نقول إن الأسباب التي تطبع سلوك المسلمين لتكون أفكارهم فعالـــة... من أفكار غيرهم، نقول إنها أسباب مرحلية، أعني ملازمة للمرحلة التاريخية التي يمرّ بها العالم الإسلامي.... "

مالك بن نبي

فصراعات البشر ليست من غيرهم، و إنما من أنفسهم المريضة بداء حب الاستعلاء على بعضهم، و إنّ لخلاصة التجارب البشريـة على تلك المواقف المؤذية لمشاعر الإنسانية، لنماذج تبرهن بالحجة القاطعة، أنّ الإنسانية لا يهددها الأعداء من خارج حدودها، و إنما المهدد الحقيقي هو تلك الأمراض العميقة التي تسللت من بين عيوبها[1].
فالفكـر هو الحل لجميع الأمراض التي نتحدث عنها، لأنه هو المحرك القادر على فهم الإنسان كما يجب، و هو المصنع الذي ينتج دواء البشر، و بكلّ فعالية، و للتدليل على ما نقول فبإمكانكم أن تسألوا التاريخ البشري، فهو حافل بأنواع من الصور التي أثبتت زعامتها، كالصورة الرومانية و الصورة الأميركية .... و غيرهما.

".... عندما كنتُ صغيراً
وجميلاً
كانت الوردة داري
والينابيع بحاري
صارت الوردةُ جرحاً
والينابيع ظمأ
هل تغيَّرت كثيراً ؟ ...." [2]

محمود درويش

لا يمكن أن أكون وحدي من تضيق به هذه الحياة عندما يرى ما وصل إليه حال الأمّة، و لا يمكن أن أكون الأخيـــر، فلقد علمتنا الأيام أنّ الأمل و التفاؤل حتى في أحلك الظروف هو ما يجعل الأمم تندفع ناحية التطوير و الريادة، فكم نحن بحاجة إلى التجديد، و بحاجة إلـى كل عربيّ في جميع المجالات، من أجل البـــرهنة على أنّ هذه الأمّة ما تزال حيّة، و ما تزال قادرة على فهم أنها ليس محكوم عليها

[1] الحسن الترابي
[2] من ديوان "العصافير تموت في الجليل" 1969

بالتبعية أبدا، فلنا كل ما تحتاجه الأمم من أجل ضمان الوقفة الكبرى التي ننتظرها منذ زمـــن الأندلس و حتى اليوم....

العرب لم يولدوا ليكونوا عبيدا، و لن يكونوا كذلك، هذا وعد الله إليهم، فكيف يرضون الذل و هم يملكون كل الإمكانيات من أجل بلـوغ ما يريدون، فالعلم موجود، و المال مكنوز، و العقول و الأرض و المخططات كلها على أهبة الاستعداد، فما ينقصنا سوى تحويل الثقة بالنفس من المعنوي إلى الواقعي، ليس أكثـــر من هذا.

فللأفكار رغم تلفيقها في مرات عديدة جانب روحيّ، حيث يبلغ عالم الغياب الكثير من مؤثرات عالم الحضور، و بين العالميْن تتولّد الكثير من المفارقات العلمية المدهشة، و التي تستكين لآثارها في الحياة كممارسة، إما بالزهد و التصوف، أو التقليد الكامل.

و حين يرغب الإنسان في الرجوع إلى ذاته، فإنه يتحوّل إلى ناقد لأحد العالميْن اللذْيْن ذكرناهما سابقا، و ذلك بالاستناد إلى خلفيته المغروسة في عمقه، مما تجعل من العملية كلها قابلة للتدخل المسبق عبر عناصر الإيمان و الثقة في سريان النمط المعيشي الآلي.

كما أنّ الفرد حين يتخذ من المخططات برنامجا لا يجوز اختراقه للوصول إلى أهداف اخترعتها مخيلته الواقعية، فإنّه و دون إذن منه يستدعي كل جزئياته النفسية و العاطفية للخروج بما تولّد في نفسه من طاقة ايجابية، و استغلالها المقلق في الحقل الذي انبعث له في خلفيته الذهنية.

فالصور التي تلازم البشر منذ دخولهم المعترك الدنيوي هي ذات مصدريْن، إما العالم الموجود، أو العالم المرغوب إيجاده، حتى أنّ الفرد في هذه الصراعات بينهما، فهو يلجأ إلى صناعة منطقة عازلة بين العالميْن كأحد الحلول، إن هو فكّر لينجز، أو أنه يميل إلى أحد المعسكريْن:

1. **عالم الغياب: إن كان الفرد كسولا.**
2. **عالم الحضور: إن كان الفرد راغبا في العمل بشدة.**

كما أنّ الحلقة الهامة في كل هذا الصراع النفسي هي تلك المتعلقة بالغريزة، و المنبعثة من التكوين الأوّلي لدى كل فرد، فإمّا التفكير اعتمادا على النفس، أو نسخ التفكير و اللجوء إلى الغير، و هذا الأخير هو الغالب على الفرد العربيّ في أيامنا.

لقد شهدت الشواهد عبر وجود الإنسان إلى اليوم أنّ الفكر الذي يخرج من الذات، و لفائدة الذات نفسها، هو فكر ذا وجهيْن: الأوّل ممانع للداخل، و الثاني مهاجم للخارج.

". Dat kan ik u niet vertellen, En waar u om vraagt, zult u altijd worden genegeerd. . "[1]

Friedrich Nietzsche

ربما يكون العمل على هذه العبارة ضربا من التجديف في نهر من الرمال المتحركة، و لكنها تحمل خلاصة أعمار أجيال من التحري و البحث، فالتواصل ما بين التركيب المعنوي و التركيب المادي له من الميزات ما يسمح للفرد بأن يفهم المقصود من وجوده، لكن هذا مرتبط بحضور الإرادة الجادة

[1] لا يمكنك أن تعرف، ذلك الذي تحتاجه، و ستبقى جاهلا به.

للقيام بذلك على نحو سليم، و قد يدرك الكثير من الناس حاجتهم إلى اتصال المعنوي بالمادي، و لكنهم يختلفون في استحضار الشرط الواصل بينهما، و إن حضر مع معظمهم، فإنه سيكون بدرجات متفاوتة.

هذا بالنسبة للأفراد الذين يعيشون في طور عاديّ لمجتمع سليم بالكامل، و قد اتخذ كل المراحل التاريخية معبرا، أمّا بالنسبة للمجتمعات العربية السقيمة حاضرا، و المتفوقة ماضيا، و العالقة بين المجهول و المخطط له في أماكن بعيدة، فإنّ أفرادها لا يفهمون سوى أنهم يحاولون محاباة الآخرين، إما بالمواجهة المستميتة و العابثة بقشور الدين و الدنيا، و إما وفق خلاصة صرفة من التفاخر بمقتنيات غريبة عن الهواء و التراب و الزمن الذي يعيشون فيه.
و لكن إن دققنا في هذه المعادلة العربية العجيبة، فإنه سيتولّد لدينا قناعة أنّ العرب أصبحوا مفلسين بالكامل وسط تضخم ثقافيّ في كلا الجانبْن: الشرقي و الغربي.
فأهمّ وضعية تاريخية عند العرب هي التي بدأت خلال الألفية الثالثة من التأريخ الميلادي، حين أعلنوا أنهم نيام كنتيجة لصدمة حضارية ألمت بهم، و جعلتهم في خانة الأتباع لأحد الطرفيْن: إما القويّ الشيئي، أو القويّ المغلوط.
و في كلا الحالتيْن فالنتيجة واحدة، و التي بدأت تظهر بوضوح مع مرور عقد كامل من الألفية الجديدة المتحدث عنها سابقا، أيّ أنّ القومية، و الأخوّة الدينية، و رموز المجتمع الموجود أصبح موضع يقين على الانهيار، و ذلك إن بقي منه ما ينهار أصلا.
و في هذا الاتجاه يمكننا أن نستدل على ضياع الثقة في جانبيْن مهمين من الشرائح القيادية في أيّ مجتمع، بحيث لا أظن أنّ أحدا يختلف معي في أنّ العرب خلال هذه المرحلة قد فقدوا الثقة في رجال الدين كقادة لأمور السماء في الأرض، و في الفلاسفة كقادة للحياة في المعترك الإنساني، و هذا كله يندرج ضمن الهزات الارتدادية للصدمة السالفة الذكر.
كما أنّ الأخطر من هذا أنّ هؤلاء القوم (بني يعرب)، قد أتلفوا ما بقي لهم من مقومات البشرية، عن قصد (بفعل المؤامرات)، أو عن غير قصد (بفعل التحايل)، و من هذا تبدوا لنا أسباب تفتت اللغة العربية، و المشروع الروحي الإسلامي، و ضعف الجبهة الشرقية المسيحية، و نمو الفطريات الغربية المسمومة في كل الأقطار العربية، و نجاح ترسيخ المفاهيم المقلوبة في الدساتير المتداولة، و تهميش الفكر بتهميش المفكرين، و ما إلى ذلك من الغضب الكوني على الملة العربية، هي كلها مظاهر ظهرت بروما القديمة في المرحلة التي سبقت نيرون العظيم، و هي نفسها التي دفعته إلى حرق روما بأكملها و تقديمها كضريبة للتجديد.
أنـــا هنا ! أعترف بأنني لا أدعوا إلى أيّ إساءة للعرب: ديانات و لغة و تاريخا و قومية و بلدانا و مجتمعات، حتى لا أذهب ضحية، كما فعل بالذين سبقوني، و إنما أحاول فهم ما يدور تحت العمامات العربية، من أجل تحديد طبيعة و مدى عمق الجرح العربيّ اليوم، كما فعلت في نصوص سابقة، و كما سأفعل في كامل مسيرة حياتي العلمية و العملية.

"…. ما نفهمه جيدا نعبر عنه بوضوح، و تأتي الكلمات لتقوله بسهولة …."

نيقولا بوالـو

مهما بلغ المشروع من تطوّر في الناحية الذهنية، إلاّ أنّه يبقى محتفظا بقاعدته المادية (الشيئية)، و هذا ما أثبتته كل المشاريع الناجحة، و التي أصبحت رموزا لصلابة الإنسان و قوته عبر عصور. لكن !! و بالعودة إلى العالم العربيّ، و المشاريع المنجزة من بداية الألفية الجديدة (03) إلى اليوم، فإنّها إما ذات عضوية غربية أو شرقية، و هي تحمل فقط الاسم العربيّ، و إما تكون ذات قاعدة مادية دون المبدأ الذهني، و هي المخططات المنجزة الأكثر قابلية للسقوط و الانهيار.

و لنكون على بيان من هذه النقطة، يمكننـا القول أنّ العرب منذ سقوط دولـة الموحّدين إلى اليوم هم في دائرة لا يقدرون على الخروج منها، و هي تلك المنطقة السفلى من التفكير، و التي تجعل كل عملياتهم الذهنيـة منحصرة ضمن نطاق الغريزة الحيوانية فقط، و كيفية تحقيقها، بينما المشاريع الكبرى، و العظيمة، تحتاج إلى نوع خاص من التفكير، إلى التفكير في الإنسان و الحياة، و إلى التخطيط من أجل انجاز مشروع أمّة أوّلا.

فالهوّة العربية الموجودة بين المخطط و المطبق بلغت من التفاقم درجة لا رجعة فيها، و إن الرجوع فيها هو ممكن ! لكن ليس بجهد القلة من أبنائه الفاهمين و الدارين للوضع بأسره، و إنما جزء كبير من الحلّ يكمن في تلك الشريحة الخامدة و العظيمة من الكيـان العربيّ، و التي تجهل ماضيها، و تعيش فتات حاضرها بالاعتماد على مستقبـل مستورد.

صحيح أنّ المصلحة هي العليـا لدى كل إنسان، و ذلك لدرجة من طباعه الإنسانية، و لكنها ليست وحدها سبب نكبة العرب، و إنما قدر كبير من هذه الحال سببه تلك الذهنية المتعلقة بصفتيْن هامتيْن:

1. **الإقصاء بالطرق العنيفة**
2. **تفضيل سفهاء الأقوياء على عظماء العرب الجدد**

هذه الذهنية هي عند أحد الاتجاهات الرئيسية في العضوية العربية، بينما هناك أيضا ذهنية موازية للأولى، و قد دخلت معها في صراع عظيم، زاد من تفتيت المفتت، و تناثر أشلاء الأشلاء في المجتمع العربيّ، مما ولّد في هذه المناطق من العالم بؤرا لم يشهدها التاريخ في أيّ من مراحله التاريخية، و هي التي تتميّز بالعنف الداخليّ ذا المنهج، و الهائل في الفتك بين أعضاء الجسد الاجتماعيّ و الثقافيّ الموحّد عبر قرون.

هذه العقلية الثانية، و هي التي تعرف بالرجعية أو الراديكالية، هي التي تبنت الدين من أجل بلوغ الدنيـا، و هذه الصبغة السماوية، هي بالذات ما يزيد من خطورتها، و التاريخ الأوربي حافل بهذه التجارب المؤلمة، و مع الأسف لقد صدّرت بطريقة ناجحة إلى بلاد الإسلام، قبل تصديرها إلى بلاد العرب الجديدة.

"…. إن الغرب يتسامح مع كل المعتقدات والملل ، حتى مع عبدة الشيطان ، ولكنه لا يظهر أي تسامح

مع المسلمين . فكل شيء مسموح إلا أن تكون مسلمًا...."[1]

مراد هوفمان

و مع ذلك فأنــا لا أرى أنها مؤامرة على المسلمين أو العرب الجدد، فالنبتة لا تكبر من فراغ، و إنما تكبر إن توفرت لها شروط النموّ من ماء و هواء و تراب و رعاية.
ولو حللنا هذا الموقف بعناية، فإننا سنجد صراعا مشروعا بين قوّتيـْن هائلتيْن، لم يشهد التاريخ مثلهما عبر كل العصور منذ وجود الإنسان إنهما:

1. **القوّة العربيـة الإسلامية السامية**
2. **القوّة الغربية الأميركية الإنسانية**

فالغربيون و بعد دراستهم و تدقيقهم في التاريخ الإنساني عبر ما وصلوا إليه من نمطية غير عادية لمناهج التفكير، وجدوا أنّ بلوغ الخلود لحضارتهم لا يتمّ إلاّ بتقديم حضارة متميّزة، و لما بلغوا التميّز، تفطنوا أنّ هناك ما يفوقهم تميّزا، و هم عاجزين إلى حدّ ما في التفوّق عليه، و بالتالي، و بعملية منطقية يونانية خلاقة و بسيطة، قرروا القضاء على منافسيهم، فأعلنوا الحرب على القوّة الثانية و بكلّ الوسائل.
و إن تدرّج العرب الجدد في هذه المسألة الخطيرة ربما في ذهن القلة منهم، فسيجدون أنّ أكبــر مصائبهم هي أنّهم جاهلون بما يدور من حولهم، و هم جاهلون بأنهم يواجهون اجتثاثا لم يحصل من قبل لأيّ أمّة، و الكارثة الكبرى أنهم يشاركون في هذه العملية دون قصد منهم، كما أنّ المتفطنون لهذه الحرب الحضارية، لا يقدّرون أعداءهم حقّ القدر، و يتجاهلون أنّهم يواجهون أعظم و أقوى آلات التدمير الحضاري التي عرفتها البشرية منذ وجودها، بوسائل لا تحميهم.
يــا الله.. أمتيْن متبارزتيْن في الساحة العالمية، الأولى تملك وسائل العصر على جميع المستويات، و الثانية لا تملك حتى نيّة المواجهة! فكيف لمن ينتظر شفاعة أبولـو[2] أن يهزم سيف أخيل[3]؟
على الأرض لا يمكن، و بالمنطق لا يمكن، و بالعودة لأحداث التاريخ لا يمكن أيضا، و لن تتفوّق الأمة العربية الجديدة و هي على هذه الحال على نظيرتها الغربية الأميركية و لا حتى في خيال الأحلام لأيّ مواطن عربيّ شريف تهمه القضايا العربية و أحداثهــا.
لكن هناك حلقة مفقودة في كلّ هذا، حلقة يدركها الأميركيّ جيّدًا، و يجهلها حتى عباقرة العرب الجدد الشرفاء، و الذين قدموا كلّ ما لهم و عليهم من أجل الأجيال العربية الجديدة القادمة.
و هنا أنتهز الفرصة لأحيي كل هؤلاء الذين يمثلون الأمل العربيّ الحقيقيّ، و بعيدا عن كلّ الشعارات و الخطب التي ألفنا سماعها حتى غدت من نذر الكوارث.... شكرا لكم يا أيها الحاملين لهموم العرب الجدد.

".... أحاول منذ الطفولة رسم بلادٍ
تسمى مجازا بلاد العرب

[1] عبد المعطي الدالاني، ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح، ص 30
[2] اله الشمس عند الطرواديين
[3] بطل ملحمة طروادة

تسامحني إن كسرت زجاج القمر ...
وتشكرني إن كتبت قصيدة حبٍ
وتسمح لي أن أمارس فعل الهوى
ككل العصافير فوق الشجر ...
رأيت العروبة معروضةً في مزاد
الأثاث القديم ...
ولكنني...ما رأيت العرب!! "

نزار قباني[1]

هكذا لخص الشاعر حال العرب، عرب الحداثة و العصرنة، لكن !! و بعيدا عن العاطفة التي سالت هنا كثيرا، حتى أصبح العرب روادا في هذا المجال. هناك نقاط علينـــا أن نقف عليها و نحدد تداعياتها أو جزء من تراكماتها، و التي تأخذ أبعادا كثيرة.
فعندما يعترف العربيّ بضعفه اجتماعيا و ثقافيا، كما هو ضعيف تقنيا و استراتيجيا، فهو لا يخطأ في هذا، و لكن الاعتراف لا يكفي، و القدرة على تحويل هذا الاعتراف إلى جلد للذات العربية الجديدة هو أخطر الأسلحة على الإطلاق. و التي هي موجهة باتجاه العقل العربيّ الغير خامل.
و بالإضافة إلى هذا، فإنّ على العرب أن يدركوا أيضا أنّ خطة على شكل أسلوب جين أوستن[2] و ما فعله بالفكر العالمي هو قريب من اللامتوقع حدوثه، كما أنّ نطاق التحركـ يضيق كلما مرّ الوقت، و هو في صالح أعداء العرب الجدد، و الأسوأ من هذا أنّ هؤلاء (اللذين يحاربون العرب) يدركون هذه الوقائع جيدا. في حين يغفل عنها الكثير من رعاة الديار العربية الجديدة.
فللإمكانيات العربية دور هام في حسم الصراع المشار إليه، و أنـــا هنا لا أقصد تلك الثروات الهائلة، لأنها معروفة لدى جميع الأطراف، و إنما أقصد الرصيد المعرفي و العلمي و الثقافي العربيّ، و الذي هو موجه لخدمة مشروع هدم العرب الجدد بدل من أن يستغل في خدمة تلك الفئة من الإنسان العربيّ الجاهل بما يدور حوله.
فالنفسية المريضة التي تتغلغل في الكثير من الأجواف العربية، هي التي تجعل من كل المشاريع التي يراد انجازها وفق عروبتها الكاملة محض وهم، و إنّ التخلص من الأمراض النفسية الانفعالية بالخصوص في هذا الجانب من الإنسان العربي الجديد هو ما يزال قابعا تحت خط المحظور، و هذا ما يعقد كل المسائل برمتها، و دفعة واحدة.

فالجوّ العام في العالم العربيّ ملوث برواسب اجتماعية و تاريخية مذهلة، تزيد من تفاقمها كل الأزمات الثقافية و الفكرية، الاجتماعية و السياسية كل يوم، و هذا أحد الأسباب القاتلة التي أصابت نفسيات العرب الجدد.
أوّل ما نتطرق إليه في هذه النقطة هي تلكـ الإستراتيجية الهجومية التي تهاجم كل مفاصل النجاح العربيّ، فتنتزعه لتغرس محله الإحباط العام، و هو الذي يسري في كل جسد المجتمع، حتى أنّ الكذب

---
[1] http://nizariat.com
[2] Pride and Prejudice

الثقافي المستورد و لو كان هزيلا فكريـا، فإنه يصبح أمام المستقبِل له من أبناء العرب أفضل مما يوجد في جعبتهم الحضارية، حتى و لو كان العكس تماما، و هذا ما يفسّر الركود وراء الهزيل و تهميش القويّ من فكر العرب الأصيل.

و إن أردنـا التفصيل و التعمق في هذه المساحة الفكرية، خاصة المتعلقة بالإحباط، فإننـا قادرين على ملاحظة القابلية للغزو، و التي خلفتها تلك الهجمة في المجتمع ككل، و بكل فناته، كل على حسب استطاعته، فصرنـا هدفا لثقافات مجاورة كنا ننافسها أو نتفوق عليها في المستقبل القريب، كالثقافة الإيرانية، و الثقافة الهندية، و حتى الثقافة التركية، في حين كنا فقط مستهدفين من الثقافة الغربية (الفرنسية، الانجليزية، الاسبانية و الأميركية).

فالاهتزاز النفسي الذي يعيشه العربيّ، في ظل اختفاء روافد و وضعيات المناخ الصحيح للإبداع، له عدة أسباب أيضا، أهمها أنّ الكيـــــان العربيّ شهد استقالة جماعية لفلاسفته و مفكريه، فالبعض منهم انعزل، و البعض باع فكره في مزاد العالمية، و البعض الآخر فضل ركوب موجة التفهّم رغم عدم قناعته بسلامة الوضع الراهن.

و لكي لا أكون قاسيـا على الفلاسفة العرب الجدد، فيمكنني أن أضيف إلى هذا الموقف، فرضية أخرى، و هي أنهم لم يصمدوا أيضا أمام دهاء فلاسفة الجبهة المعادية، إما لضعف تكوينهم، و إما لكبريائهم، و إما لموت ضمائرهم، و ذلك مع احترامي الخالص لكل عقل عربيّ يعرف طريقه جيّدا.

لست هنـــا لأحمل المسؤولية لأيّ طرف مهما كان، خاصة الفلاسفة العرب الجدد، و لأنّ المصيبة ستمسّ جميع شرائح الموطن العربيّ، و الأخطر أنها ستضرب الحضارة العربية و الإسلامية في العمق، فأنـــا أحـــاول أن أنبه لما يدور من حول و داخل الأسوار العربية الجديدة، خافيا تحت ضلوعي ألمـــا هائلا مما آلت إليه أمور العالم العربيّ اليوم، و مؤكدا على أنّ النفسية العربية في خطر كبير، حتى أنه لم يبقى وقت للوم الذات أو الآخرين، فإن لم يتم استيعاب ما يجري، فإنني أخشى من يوم سيأتي، أستيقظ فيه ذات صباح، فلا أجد لا عربـا و لا بلادا عربية.

و كلّ ما أجده عند فتح باب بيتي سوى قبور كتب عليها:

Arabes mortuus, mortuus Muslims[1]

****

أفكارك تسبق اسمك

A young man thinks doggedly at such times ….

19. STEPHEN CRANE.

[1] توفي العرب، توفي المسلمون.

لها سحر لا ينتجه إلا بارع، و لها جمال لا يقدر على زخرفته أي صانع، و لها قيمة لا يدرك قيمتها حتى الصائغ، و لها قدرة لا يملكها حتى السفاح الكاسح، و من هنا سميت بالأرقام.

إنّ لهذه الرموز معان جمة، فهي تختزل كل الأفكار في سطر واحد، و تجعل من الحديث معدوم القيمة، بالقياس إلى قيمها الكبيرة، بل و إنها تجعل المشاعر فضاء رحبا للتجارب، فتلعب بالإنسان كما تشاء، بعيدا عن الرغبة الدافعة، و بين هذه الأحكام يستقر صيام المنطق و الرياضيات بشكلهما الرمزي، بحيث ينتجان صورا، خفيفة الاستهلاك، لكنها فاعلة التأثير، في الجوانب الدقيقة للحياة، و بما أن الدنيا تأخذ من البشر أعز ما يملك، و تدخله المتاهات التي يخشاها كثيرا رغما عنه، إلا أنها تبقي ذلك الحبل الموسوم بعناصر الأمل متدليا من أجل نجدته. فالصلة الموجودة بين الفكرة و الرقم، هي التي تأخذ من الشرعية كالتي تغلف صلة البعل بزوجه على سنة الله و رسوله، بحيث أنّ الفكرة تظهر بجسدها العاري، و بوضوح حين تتخذ من الرموز لغة، و تظهر كل ما لها، و ما عليها، حينما تترك الأشكال تتكلم نيابة عنها، بل و أكثر، فحين نخلص إلى النتيجة، و التي نعتبرها من القوانين الصارمة، و الخارقة لكل نظم التحكم في الطبيعة الحيوانية، أو النباتية، و حتى البشرية، فإننا نلمس تلك الفكرة الجد فعالة، في ثياب رقم دقيق، و صريح الصدق، على أن تبقى حبيسة حروف و أشكال الموجة المتصلة، لكنها تؤول و تفسر على حسب الاندفاعات الشخصية، و هنا تتحول الفكرة من الصورية الباقية، إلى المادية الزائلة، و منه فإنّها تأخذ حكم المؤبد، لتموت بعيدا عن الحياة و معاركها، مما يولد جنة جديدة للانتهازيين الذين دفعوا بحالة الاستقرار في سنفونية المعاني ثمنا لأرواح أمجادهم المزيفة، لا لشيء، و لا لمبدأ، سوى من أجل إنزال الإرسال الساحق إلى مرتبة اللغم المؤقت، فيبطلون كل مفعول، و يسود الجمود، مما يتولد الصمت، و يجتاح الكبت عصارة القيمة الحقيقية، لكن الصندوق الصغير لرسائل المطلق، ما يزال يستقبل كل تهاني شرفاء الفكرة، و يأخذ بيد كل عامل في مصنع الإنتاج الفكري، حتى أنه يعمل من أجل ما يؤمن به، و كل طاقته لما هو متأكد من صدقه، و لو كان الثمن فقدان حياته. فالأرض لها معطياتها و الأرقام لها صلابتها، لكن المعرفة هي الساحة المثلى لاحتضان الصراع التفكيري، و الميدان الأفضل لتشغيل محرك البحث الإبداعي، بدل أن نخنق قوانينها قبل أن نجعلها شاهدة على باب جفائنا لواقعنا. فعندما يعجز العقل، يموت الإخلاص و كل ما يرتبط به، لكن هذا مستبعد الحصول ما دام أنّ هناك كيانا موجودا، و يحارب كل ما من شأنه أخذ الإنسانية ناحية الحرب المدمرة، و هنا نحن نقصد هلاك الحضارات بعد تصادمها بشكل رهيب، فالعصر أصبح لا يحتمل مقدار الجهل الموجود فينا، حتى أنّ المشاريع الرقمية، أصبحت تنهار أمام أعين من بعثها إلى الوجود، و ما من أحد أدرك سقوط هذه الأنظمة، و ما من قائد جعل من أولوياته بعث الأفكار من جديد، لأنّ الأفكار التي خذلت نفسها، هي عبارة عن قنابل موقوتة الانفجار، قد تتسع دائرة تدميرها و تشمل كل العالم المعرفي العربي و الإنساني، و حتى تلك التي يزعم أنها تحت السيطرة، فهي تحت سوط لا يعرف مدى ما يوجد تحت جلد مجلود. و لهذا كان من المفيد التذكير بالصلابة الفكرية التي يجب علينا إلصاقها بكل فكرة جديدة، لتنعش الميّت من بقايا المبادئ القديمة، و ما علينا سوى إبقاء جهاز التحكم بعيدا، لنضمن و لو بنسبة قليلة، عدم انبعاث تلك الموجة الهائلة التي ستجرف العقل البشري، و لكنها ستبقيه بعيدا عن أصله الإنساني حتما.

و بهذا نتفادى الكارثة المعرفية لكل فرد، و بالتالي نتجنب انقراض الأفكار المصنعة محليا، فكم نحن بحاجة إلى أفكار تولد من عقولنا، بدل أن نستقبل بحفاوة ليس لها مثيل، أفكارا ولدت في ما وراء البحار، و صدروها إلينا و هي مجردة من الكرامة و العذرية.

****

الإنسان ليس وحده

"....بيد أنّ هذا التخلف بين الضمير و العلم لم يعد أمرا مستحيلا، يتلخص في موقف نزاع بين الطرفيْن، بل أصبح متنافيا مع وجود النوع الإنساني ذاته...."

مـــاك بن نبي

لقد اتخذ القرار حسب ما هو معروف في أوساط العوام، و هذا ما جعل العباقرة يأخذون على عاتقهم الحلول دون الوقوع في أفكار تشبه الكارثة، أو جملة كوارث، كلا على حسب توجهه، فالفكرة تولد من حركة بسيطة التأقلم، بين ما وجد قديما، و ما هو في حال تشكل، و هذا ما له من أثر على الكثير من الجوانب، فإنه يبقى عبارة عن زاد كثير الوهج، و غير قادر على استيعاب الظروف كلها، فخلجات النفس لها موقعها في العملية برمتها. لكنها لا تقوم به إلا بعدما أن تأخذ الشكل النهائي لذلك، و على الأقل هي قادرة على ذلك.

لعل و عسى أن تجعل المتكلمين يخرجون ما هو مفيد إلى ساحة التدبير، فكل ما هو مساق هو ذا دوامات كثيرة التواجد، و قليلة التنبيه، على سبيل وراثة الأسر، لكنّ الحظوظ تبدوا أبعد من أن تقارن نفسها بعمالقة الوجود، فسحر الموجود هو ليس من الوجود، وفق تفاصيل تختفي عن طريق السحر، و إنما هي شك بدأ من زمن، و تواصل عبر الرصد المعرفي مع زئبقية المواقف، حتى أنّ حالات اليقين هي مجرد تعبير قابل للتحوّل، كلما أراد فعل ذلك، لكنها لا تستجيب له في العديد من المواقف، و القائمة على سير روافد المعرفة، أو جرّ البلاء إلى عضوية جماعة التفكير على نحو يبدوا أنه اتخذ صيغة غامضة.

فقيمة الإنسانية هي فعلا من قيمة أفرادها، و التي تستمد من قيمة شعورها الواقعي، و خيالها الأرضي، لأنّ البشر هو نموذج لروح واقعية، تقوم على أساس الرضا المكيّف و الملموس، و غير هذا يقود إلى نهاية جدّ كارثية، و من هنا علينا أن نفهم هذه الـــروح الواقعية أوّلا، و ماذا تمثّل؟

فالقصر الذي بناه الإنسان حول قلبه، هو في الحقيقة عبارة عن أوّل الخطوات باتجاه الحقيقة، و عليه فإنّ الفضاء و الأشكال التي كانت سائدة في العقول على شكل وعي، حسم منذ زمن، و هو نفسه الفضاء الذي قاد البشرية إلى الخلط بين الوهم و الخيال، و عليه بقيت الأحكام بعيدة عن التطبيق. فالواقع هو نابع من غير الواقع، و حتى الذي يبدوا لنا في أحيان كثيرة أنها وقائع، هي في الأصل غير ذلك، و إنما هي صناعة عقلية بامتياز، و عليه تقوم التناقضات عديدة بين ما هو مفهوم، و ما هو غير مبرمج، و هذا لا يصدر إلاّ من مخزن هائل للطاقة، قد لا يظهر بوضوح، لكنها تحرك جميع عناصر الحياة، سواء كانت مادية أم معنوية، و هذه الطاقة لها أشكال كثيرة، فمنها المحرّك، و منها المتحرك ليحرك، و منها الكامن الفاعل، و منها المسكّن الدافع، كلّ على حسب موقعه، و ضغطه و مدى اتساع دائرة تأثيره. حتى أنّ الأرقام لا تطابق في الحالات القصوى للطاقة مدى تقاربها مع ما هو موجود أو ما هو متحوّل.

و الطريقة التي تنشأ من بقايا و مخلفات العقول الموردة، هي باقية تحت تأثير هذه العقول، حتى و لو بعد زمن طويل من ولادتها. هذا و أنّ الفكرة التي تولد في المريخ مثلا، و تصدر إلينا، نحن سكان الأرض، تبقى فكرة مريخية، حتى و لو أجريت عليها تعديلات بالجملة، أو طال عليها الزمان، و هذا لأنها صنعت في بيئة خاصة، أكسبتها صفاتها الأساسية، و مدتها بطاقة ذات نوعية معيّنة. فإن زالت هذه الخواص، و هذه المولدات، فإنها ستتجرد من صفة الفكرة، و تصبح مجردة ثرثرة تستهلك الوقت بلا فائدة. و على هذا فإنّ الإنتاج عنصر مهم في حسم موازين القوى، كما أنه يملك قدرة هائلة اقتصاديا في إدارة المكتسبات، فإنه يملك و بالشدة ذاتها أو أكثر القدرة على إدارة المكتسبات الثقافية و الرواسب الاجتماعية و التجديد الفكري.

"... أحب أفكارك بخصوص أخذ الخسارة بعين الاعتبار...."
جورج دابليو بوش

المسافة الموجودة بين الفكرة و تجسيدها هي من الأمور الغير متحكم بها من قبل الفرد آليـــا، و إنما هي قضية يتدخل في تحديد توجهها الكثير من ردود الفكر، و هذا ينطبق على كل عملية ذهنية تتجاذب أطراف القصور لتصل إلى تقريب كبير بين الواقع و التخطيط، لأنها تملك القدرة على التوفيق بين ما هو منطوق عن تدبّر، و ما هو مجسد عن منطوق، بطريقة التتابع و التمسك ببديهيات التجسيد و تداعيات ما بعد التحقيق، فكما للدعاية مفعول السحر على الجماهير، فإنّ للفكر نفس المفعول على العمل التطبيقي، و انفصالهما هو انفصال للروح عن الأدوات الجسدية.

فالهدير الذي يخترق عباب البحار، و يخدر أمواجها، هو نفسه الذي يولد من العقل المؤثّر، و الذي جعل منه أداة قبل أن يحطم صنم الجمادات اليابسة، و من هذا قد تبدوا لنـــا أنّ الفكرة الأساسية للسعي هي: الحلم، بينما في صميمها هي عملية تنبعث من الاستفاقة على مدى التهيئة الجريئة، و القادرة على رصد المتحوّل و المتحرك معا، درجة بدرجة، و التفاتة بالتفاتة، و نجاعتها هي من مدى قدرتها على توجيه كل الهمسات و اللمسات التي تتوغل في التوجه. على حسب عزمها و قوتها الداخلية، أو الذاتية.

قد لا يبدوا لنا أنّ هناك أملا من جدوى تفكيرنـــا، و هذا بسبب الإعراض عما نصنع، من قبل مجتمعات تختبئ تحت غطاء نومها الوهمي، و لكن مغاوير القدر تبقي ذلك النور القليل، و على الرغم من قلته، إلاّ أنه يهدي البشر، و يترك لليائس باب الرجاء، و للمتشائم باب العزاء، و للمؤمن باب الدعاء، لأنه أكبر و أسمى من أن يمجّد في قصائد الرثاء.

نعم !!!! هذه الحال لم تكن طبيعة الأمم، و لن تكون طبيعة لها أبدا، فهي تجعل الجماد موردا لها، و لكن هذا الأخير هو نفسه بحاجة إلى مورد، و على هذا فإنّ الإنسانية و إن سارت على نحو الانسداد في عنفوانها، إلاّ أنها ليست بيد الذين يتركون الحياة تسير تائهة، و ما تزاوج الأخلاق بالعمل إلاّ دليل على ذلك التسامح و التراحم الموجود في الصندوق الأسود لكل إنسان، حتى أنّ صورة العيش و التعايش من أوضح الصور في عصر مزقه الطموح، و استسلم على وقع ضرباته الضمير. و بين هذه التناقضات تأتي البشرى من شيطنة الإنسان التي انقلبت إلى أنسنة الشيطان، و هذه الأخيرة بدأت تكشف عن نفسها، و على أكثر من جهة، جاعلة من الاعتبار كل ما يدور في هذا العالم على أنه رهانات، و التي ما يزال الإنسان سيّدها. و لا توحي أيا منها، و حتى الآن، أنّ هذا النظام سيتبدل يوما، ما دام أنّه ما يزال صامدا في وجه أقوى الضربات التي شهدها التاريخ من بداية التفكير.

فالأمل لا يكفي إن لم نزيّن نتائجه بالعمل، و هذا أيضا عليه أن يقود أجزاء الفكر، و الذي تحكمه المشاعر و الوقائع، كلّ في موقعه و وقته.

****

السياسة في ثياب عاهرة

The shock of the descovery was almost too much for him….
41. Oscar Wilde

القدرة على التكفل بأي إنسان تعتبر ميزة البشر، و من نتائج هذه القدرات تلك التي اعتاد عليها الإنسان، أين نلمس العذوبة بين نهاية القمر، و بين الإشراق بوجه المشارفة المشرق تظهر العلامات الجليلة.

فحينما نسترسل في الحديث فإنّ لكل منا طعمه الخاص، بل و نحن في إطار الحديث ننقسم إلى متحدثين و مستمعين، أين يظهر الانقسام حتى في طريقة الجلوس و طريقة الاستماع، و ملامح الوجوه، و تلك المشاهد التي نحركها باتجاهات مختلفة التوجهات و الأيديولوجيات و المعتقدات الإستراتيجية.

في قطعة من الزمن أحمل الرشاش ذو الثمانية فوهات، و أنزل إلى الساحات ذات الثمانية أبواب، في الليلة الثامنة، من اليوم الثامن، من الشهر الثامن، من السنة الثامنة، أين أطلق ثمانية طلقات، فأسقط

ثمانية رجال، و في الصباح أحمل ثمانية جثث، على ثمانية خيول، أين أقصد ثمانية مقابر، فأحفر ثمانية قبور، و أقيم ثمانية جنائز، فكل واحد منهم ترك ثمانية أرامل، و كل أرملة لها ثمانية أيتام، و كل يتيم له ثمانية أماني و أحلام، و كل حلم له ثمانية إمكانيات للتحقق، و كل ثمانية من الثمانيات وراءها رجل واحد.

إنها ألغاز الزمن و أقدار الإنسان، تجعل منه مؤمنا تارة، و غير مصدق في الستارة الأخرى، و على النقائض تنتهي مصائر المستقبل، و يظهر الأفق الجميل ذا الثمانية أطياف، لتجتمع في شخص واحد، ذاك الفرد الذي أخذ من الدنيا حتى اكتفى من ضربات القسوة، و انقلب إلى ساحة الانتصار من غير تمييز، هذا ما جعل المجهول و المستحيل مقترنين بعضهما ببعض في أذهان البشري الضعيف، بينما المستقبل ليس إلا نوعا من الجهد في رأي المرء الذي يؤمن بما يمتلك من قدرات، لأنّ الطاقة الإنسانية هي كل ما جعل القوى المختلفة تسعى للسلطة المجيدة، لكن ثقافة التسليم المطلق تحاول عرقلة التحدي، و جعل الإنسان تابعا دون أن يدري بما يحاك من حوله، أين جرمت المقاومة، و عظّم الظلم، و في بياض المناظر مات الأمل على يد الإنسان المجروح من تحت القبة الذهبية، و هذا ما جعل الأنذال يسودون على أحفاد الرجال بتغذية أسطورة السلطان التي سيطرت على العقول، بينما هذا السلطان لا وجود له سوى في خيال النفس المستعبَدة، و أي استبداد أصبح له أتباع و سلطان، بينما هو يستعمل المايك آب من أجل إنتاج شرعية و مشرعا، لكن البشرى بسيادته ضد هذا ما يزال وعدا، تعذر أن يصبح حقيقة، و من الأسباب هي تلك المعتقدات المثقوبة بضياع الثقة بين مشردي الرأي و الفكر المسعّر، و بين هذا و ذاك تخرج علينا السياسة في ثياب عاهرة، و الثقافة في ثوب الصبيانية، بينما العلم يبدوا كملك عقيم الأمر و النهي، و بين كل هذه الخيوط توجد يد واحدة تحرك الماضي و الحاضر و تتوهم أنها تحرك المستقبل أيضا بخططها التي لا تنتهي.
إنّ موسيقى العلم و الفكر تعود إلينا بشكل آخر عندما نتحدث عن القامة العليا لأيّ حدث مضى، لكن مصير الشعوب ليس كمصير الأفراد، فالنظريات المتباينة بين ما هو عيب و محدود، لا يمكنها استيعاب ما تحمل، و الحركة الذاتية للتاريخ ليست سوى تخطيط و قدرة على التنفيذ بما هو متاح، لدى تقدير الإمكانيات البشرية هي في المقام الأول ثم تلي ذلك التقدير للحجر، و إنّ هذا لَهو مربط الفرس بين القويّ و الضعيف.

****

الفلسفة الجزائرية

يا أرضا عقوقا!.. تطعمين الأجنبي و تتركين أبناءك للجوع، إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرة!..
مالك بن نبي

العقل هو مصنع الفكر، و الفكر هو مصنع الرشاد، و الأمة الراشدة هي نفسها الرائدة، و عليه قامت الثورات، و دارت المعارك الفكرية على أكثر من صعيد، و على العديد من الجبهات، و بأكثر من وسيلة، لنجعل من القدرات المعرفية صكا مدفوع الثمن أمام الهجمات الشرسة من هنا، و من هناك، و من هذه النقطة، و اعتمادا على ما تقدم نجد الآتي: ما موقع الفلسفة الجزائرية من الفكر الفلسفي العالمي؟ وهل هي موجودة حقا ما تسمى بالفلسفة الجزائرية؟

عام 1962م، هو عام لم و لن تنساه الأجيال الجزائرية على مرّ العصور، لأنها سنة عرفت استقلال الجزائر، و إثبات أنّها دولة مستقلة لا علاقة لها بفرنسا، كما أثبتت من قبل أنها أمّة مستقلة لا علاقة لها بالأتراك، أو العثمانيين، لكن: مـــا علاقة الاستقلال الجزائري بالتميّز الفكري للأمة و الدولة الجزائريتيْن على حد السواء؟

التأمل في الفكر الجزائري يأخذنا إلى عدّة ثنايا، تبدأ بالصراع، و تنتهي بالصراع العميق و الشرخ الواضح، كلما ازددت عمقا في تدبّر أساسات التفكير في هذه النقطة من العالم.

فمنذ الدولة العثمانية، و الصراع قائم في مجال الفكر، و الذي خلق فسيفساء معقدة المكوّنات إلى الآن، جعلته يرتبط بكل متطلبات الحياة، و حتى تغلغلت في شكل عقائد فرقت الضمائر في نوع من المجابهة حينا، و الانقياد في أغلب الأحيان.

فالفكر في هذه المنطقة كان و ما يزال يأخذ صبغة الفلسفة، و ذلك لأنه يتحرّك بجملة محددات، تنساب لتمسك بعصب الحياة الرئيسي، و الذي هو في الأصل عبارة عن مجموع المجالات المعيشية للفرد كوحدة، و المجتمع كمجموع وحدات، و أمّة كميراث، و دولة كقوّة محركة عبر يد واحدة، و بعقل مركزي. هذا ما سمي بالفكر الجزائري في العلن، و لقّب بالفلسفة الجزائرية في السرّ، لكنني أنا مـــزوار محمد سعيد اليوم لا أظنّ أنه بقي سـرا، ما دام أنه يتكلم بلسانه عما يجول في خاطر هذا الإنسان من هذه المنطقة. لدى يمكننا أن نقول عن فكر الجزائريين أنه فلسفة جزائرية خالصة، قامت على الصراع، و هي مجهولة النهاية النهائية.

و لو عدنا على نحو تدريجي، فإنّ هذا الفكر الفلسفي الجزائري، قام على نقائض متصارعة، على ساحة غير محدودة، فقد بدأت بالصراع الفكري المقاوم، و هذا ما ظهر في مقاومة العروبة، ثمّ مقاومة الثقافة التركية، و من بعدها محاربة الثقافة الفرنسية، و الآن هي تقاوم و تجادل الثقافة الأحادية المتنوعة، أي أنها كرد فعل، تمت إقامته من إقامة نقيض لمؤثر خارجي، أخذ من العناصر الذاتية، و الداخلية منبعا للتحفيز، و منه انبثقت الفلسفة الاثباتية، و التي ترى حقوق الفرد الجزائري ككيان متميّز، و ظهرت الفلسفة التوعوية من أجل إيقاظ الجزائري و إشعاره بمدى أصالته، مما ولّد عناصر فكرية متناسقة و منسجمة، شارك في إقامتها أجيال من الجزائريين، عن إدراك أو غير إدراك، ليخطّوا نوعا من المسارات، و هذا كله لإثبات الإثبات من جهة، و الرد على ما يحاول التسلل إلى قوامها من جهة أخرى، مما أظهر هذه العملية على أنها عملية مبعثرة، و غير منسجمة، لكنها كانت تدير تنوعها في حقيقة الأمر عبر اتجاهيْن رئيسييْن، بقيا إلى الآن في حالة تجاذب و تذبذب، دون أن ينهار احدهما، و يحسم الأمر لصالح عقيدته أو إيديولوجيته المعتمد عليها.

و من هنا يمكننا القول أنّ الفلسفة الجزائرية، و رغم تعددها و تنوّعها، إلاّ أنّها تبقى فلسفة خاصة، تغذي التناقض، و تتغذى من المقاومة و الممانعة الفكرية، و تجعل من التميّز عنوانا لها و هدفا، و هذا كله بفضل عقول أبناء هذه المنطقة الشريفة التي تدعى الجزائر.

****

اللعبة الجميلة

« The Face seemed to smile, but answered not a word »
NATHANIEL HAWTHORNE..32..

عندما نعود إلى الذاكرة لنحيي جميع ما توارى إلينا من ندوب الزمن، فإننا نعيد نشر البقايا، و نزيل تأثيرات القضايا، و نستورد العادات و الأطروحات التي لا تهم أحدا، و لا تجعل من الإنسانية موضوعا. لكنّ البشر هو من أراد هذه النوبات على شاكلة العمليات الجراحية الدقيقة، لكل شعور مضى و لم نفهمه بعد.
و عليه فإنّ لكل المواضيع المتعلقة بما هو مبهم فهو منهج سحر للعقول، من أجل إيقاظ التفكير و البحث عن المصير بين عصارات التفجير الكلي للطاقات الإنسانية. فإنّ لعملية البحث نماذج تجعل الإنسان يرتبك و يحدث الفوضى، حتى انه يعود إلى الخلف فلا يجد إلا نفسه في انتظاره ليرفع شعار ضياع الأمل، و يجف الصدر أمام ما هو متاح للبشر.
فالاستسلام هو نوع من الموت، هو جمود من نوع خاص، يجعل الإنسان غير موجود، أو يؤجل وجوده إلى وقت آخر، لأنه غير قادر على الفعل، الفعل الايجابي، فيحوّل نفسه و ذاته إلى آلة مستهلكة لجميع روافد الحياة، و عليه يدخل الفرد في حالة من الفراغ، أين تموت الأحلام، و يصبح الخيال الميّت نشطا، ليخدر العقل، و يعطي للجسد تنبيهات شديدة الألم، و لتعادل الإنسان في معادلة الحياة مع الجماد، أو ليسوء أكثر أمام ملامح الحركة و الإنتاج، فيرفضه المجتمع، و يحكم عليه الضمير بالإعدام. و هنا يتدخل الزمن ليفعل مفعوله، و تنطق الحكمة لتداوي الجراح، أين تبعث في الفرد نوعا من الإلهام و الاتزان لهكذا مواقف، و يتحوّل العالم إلى مسرحية على طريقة الدمى، بينما يجلس العرّاب من وراء الستار ليحرك مشاهدها كيف ما يشاء، و من مكانه الغير واضح يطلق أفكاره المسمومة، أين يستقبلها الجمهور بلهفة الباحث عن اليقين، نعم لا يهم! إن كان يقينا كاذبا، لكنه عبارة عن يقين، فيصرخون: "…. لقد جاءنا اليقين، لقد مات الظلم …" و مع هذا لا يدوم الموقف سوى ساعات، لينقلب إلى مأتم كبير، كبير كبر السذاجة، و ليعلم البشر كم هم بلهاء ما عدى الحكيم، الذي يتفطن للموقف قبل وصول السذج إليه، فيذهب ليعبر قاعة العرض لعله يجد القليل من الانتباه، و لعله يتمكن من الوصول إلى المنصة ليقول الحقيقة، تلك التي لم يعد بمقدوره جعلها ملكه لوحده، لكن هيهات، فالجمهور ينظر إليه كمجنون، وقع في غمرة من الذئاب.

و بين كل هذه الأحوال، يتواصل السير، بين كل تأثير، جاعلا من السيّد معصوما، و من الساذج سجينا، و منهما معا موضوعا لأغزر الأقلام، و صدامات الأيام. فطريق دمع السنين لا تمحيه ابتسامة عابرة، هكذا همس القدر في أذن البشر، و هكذا ظهر الإنسان في لحظاته السعيدة، أو على الأقل أنه توهم أنها سعيدة.

فالترتيب غير مهم عندما تصل العدالة، و يظهر الفرد في ثوب المتهم، بينما يقف القلب في قفص الاتهام، و يجلس العقل في مكان الادعاء، أين يدق ناقوس الضمير، و يأمر القاضي السيّد: الميزان بالعمل على الطريقة المعهودة، أين يظهر لغز الحياة، و يتضح عجز المشاعر عن التحدي، ليهزمها الواقع بالضربة القاضية، و يأبى الفرد أن يستسلم، فيواصل المسير إلى المصير.

****

بَارْتِيَامُو

مهما ارتقت لغات العالم منذ بداية التعامل بها إلا أنها لم تجد طريقة بالغة الوضوح من أجل إدخال الكائن المقدّس مجال اكتمال قداسته، مما جعل الشعراء و الأدباء و الفنانين و على رأسهم الفلاسفة يختلفون في المنبع و المسار و المداخل و المخارج لتوصيف بعد فهم هذا المخلوق الذي هو: الإنسان.

و من لا يفهم إنسانيته لا يمكن أن يكون إنسانـــا !!! هكذا بدا لـي من أوّل حل لعقد التفكير، لكن الإشكالية أكبر بكثير من أن ألخصها في بضع كلمات منسجمة، لأنه نوع من المخلوقات المتميزة رغم تكرر وجودها عبر العصور، و مع هذا يمكننا أن نصفه بأنه فصيلة رائعة من الصفات و العمليات الآلية و الروحية القائمة على اللحظة التي توجد فيها، عبر نظام كامل من الأفكار و التي تحرّك معصم الأخذ و الـرد.

لقد كانت الفئات الإنسانية تعيش عبر الزمن في فلك غير متساو، و مع أنها اشتكت كثيرا من هذه الموقعة المجحفة إلا أنها بقيت ملازمة لها حتى الآن. و لكم كان الأمر غريبـا و نحن نمرّ على مسار محاولة موازنة المعادلة عبر العنف حينا و المعاقلة أحيانا أخرى، في مشهد يختلط فيه الفرح بالألـم، و لكن دون نتائج ثابتة.

فالبشر ينشد القيم و لا يؤمن بها، و إن هو آمن بها لا يطبقها، و إن هو طبقها لا يحكم عليها بالايجابية، و إن هو حكم عليها بالايجابية، فإنها لا تتكرر أبدا، هذا ما يفسّر غموض الفرد البشري!.

فمن الأكيد أن الأعمار عبر قصرها لا تحدد نهايتهـا، لكنها منتهية لا محالة، و هنا الحد الفاصل بين القيمة المتغيرة و القيمة الثابتة، و الفاصل هو الوقوع على سبيل الإيقاع الموجود، و منه فهو كفيل بإقرار العملية فتقر. و من هذا النموذج يظهر جليا ما مدى قدرة الإنسان على مراجعة الاكتساب لأي أمر جال في إرادته أو بالقرب منها، فيحوله بعد أخذ الإذن من المحيط إلى حقيقة ملموسة تطيعه طاعة لا نظير لها.

حتى أن العمليات التي تخرج للواقع من منبع إنساني هي آليـات حكيمة، تجعل من الوقود الأصلي ميزة فارقة في تأليف الأسباب لنجاح المرجعيات الخالصة، فلا الإنسان هو فاعلها على سبيل الترهيب،

و لا الطبيعة هي المستقبل لها بالضرورة على سبيل الترغيب، و إنما كلاهما هو مشارك في المنظومة برمتها على سبيل استخلاص العدول من الوجود سواء كان زائفا أم حقيقيــا.

من غير الممكن أن يكون الفرد الإنساني معزولا، أو أن يتفرّد على غيره من الأفراد على نحو طبيعيّ لمجرّد أنه خلق على ذلك، و إنّما تحكم مميزاته الإرادة و العمل على تحقيقها، لأنّ الأهداف عندما تظهر إلى جانب الوسائل، يبقى العقل البشريّ العلامة التي تصنع الفرق في الحيــاة كلها، سواء غلبة أم صبرا أم تخطيطا أو تنفيذا. هكذا وجد البشر، و هكذا سيبقون إلى نهاية البقيــة.

فعندما يسلّم القوم بالضعف، يخرج من بينهم قائد يعلمهم طريق العـزّة، و يلقنهم دروس شموخ النفس. و التــاريخ الإنساني حافل بهؤلاء الكبــار، خاصة و أنهم أنتجوا نظما و معايير على غير استنساخ، و كأنهم قاموا فأقاموا، و بكوا فأبكوا، و سطروا للإنسانية دروبا لا نهاية لها من البذل و المسير.
لكن !!! و على غير العادة، و بعد بحث طويل، يمكننـا الجزم أنّ العملية التي نتحدث عنها ها هنا، هي عملية معقدة البساطة، بحيث أنها قريبة من كل شخص في هذه المعمورة، و مع ذلك قليل القليل من يتعرّف عليها و يتحكم بها على سبيل إحكام السيطرة عليها و بها على الآخرين.
لأنّ جوانب البشر على اختلافهم ينتمون إلى نقطة واحدة، بها يتطوّرون و يطورون ذواتهم، و العالم أيضا، تلك النقطة تدعى: *التركيز على التفكيــــر*.
فمجالات الحياة رغم تعددها فهي سجينة عقل القــزم الأزرق، ذلك الذي يلبس جلابة تعتليها الرقع، و التي خيطت بخيوط الوقت و الكلفة، و مع كل هذه الأوصاف فإنّ الزرقة التي ذكرناها هي من مصدر معروف، يمثّل منبع الثقافة و الحلم، يأخذ الأقزام كلهم في موكب واحد باتجاه مصيرهم، و من تارة لأخرى يهمس في عقولهم قائلا: "... أرجوا لكم حظا موفقــا...".
لربما للوقعة الأولى في العقول يبدوا لنا القزم مخلوقا صغيرا، و هو كذلك حجما، و مع هذا فإنه يفوق حجمه بملايين الثرليونات، إن نحن قارناه على الطريقة الكلاسيكية المملة. إنه مبدع بشكل لا يتخيله عاقل، و هو صريح لدرجة الوقاحة، و له باع أطول من الطويل في علوم النساء، و فلسفة الأقدار، لدى بكل اختصار هو نموذج لإنسان جاب معظم الأمصار بكل اقتدار.
هكذا وجب علينا الوصف في كفِ خالية من وديان العروق، و لكن لا بأس بالقليل من الحروق على الضفة الأخرى من جبهات القمم، أين يتيه كل أمر، فيعود التفكير إلى بداية الوسط من القدرة على التحمل في هذا المجال اليـائس من الفكرة.
جزء يسبح بنا في الهاوية التي يتفاداها الجميع، بينما يقفز إليها القليل، ليخرج من مستنقعها حاملا في يده اليمنى تاج السلاطين، و في اليد الشمال هموم العبيد على مرّ السنين، و لكنه في محاولة التوفيق بين الحقيقة و الديــن يتدخل القلب بدل العقل في معارك القداسة و استرجاع هيبة الحياة.
ممكن أن يصيب الحق من يقول أنها لعبة محسومة النتائج عن بداية البداية، و مع ذلك إصابة الخطأ أيضا واردة في نفس المقام. لكن في كل هذه الأجزاء هناك! تتدخل حكمة السماء، لتروي فصول النظام و سحر القضاء، و لتعيد لكل فرد نصيبه من فقه الفلاسفة و تشريع العلماء، لأنه حوار يطول بطول أعمار الإنسانية و تأريخ أعمالها، فالبحار على رغم عمقها حصرها الإنسان، و الكون على شساعته فهو على طريق الحصر أيضا، فلا غالب و لا مغلوب في لعبة الوقت و الآجال.

قسوة الجرح النـــاتج عن انهيار المشاعر هو الذي يعقد أمور الحياة، و يترك مساحات فـراغ كبيرة بين الحاصل و اللاحاصل، ليجعل من القضايا المصيرية مشبك سجايا، و يقتصر الضرر في علوم بائية التصوّر، و نشاط منطلق من الفلسفة الجوفاء، هكذا برهن الزمن أنه أقوى بكثير من البشر، و هكذا ترجمة قوانين العواطف إلى ردود أفعال مليئة بعنفوان الوجدان.

"…. إذا تغيرت الكلمات بطريقة عكسية أو غيرت في اتجاه آخر، فإن أثرها في بعث الإنسان سيتأثر قطعا بسبب ذلك….".

مالك بن نبي

فعندمـــا نتعامل مع الإنسان، علينا أن يكون ذلك لطيفـــا في كلّ الأحول، و لو أن هذا من الناحية التطبيقية يبدوا صعبـــا جداً، إلاّ أنه لو تحقق لزالت عدّة تعقيدات من حياة البشر، و لصاروا كلهم من بني الإنسان جملة قولا وفعلا.

****

ثـــانية

Oh, that is nothing ! It is a pleasure to me, I do not work for money ; I live entirely for my art
47.48. Oscar Wilde

هذا ما أحتاجه، لأدخل التاريخ، و أنحت الصخر، و أجلس على عرش الإنسانية العظيم، فبعض من الأحباء، و قطعة أجاص، إضافة إلى كأس ماء، هو زادي الذي يبقيني حيّ الإبداع و يضمن لي استمرارية التفكير، نعم! هذه هي حاجاتي التي تكفل لي حياة راقية.
فالشعور هو النعمة الجليلة التي أتيحت للإنسان منذ أن جعل الله خليفته في الأرض معرضا للخطأ، أين أقيم الحساب، و وضع الثواب و العقاب. و هذا ما يبدوا واضحا حين تذرف العيون الدموع، و حين تأخذ الشفاه رسما هلاليا، من أجل إظهار الابتسامة، مع امتزاج المشهد بأصوات تخرج من حناجر مجروحة. لتصميغ تلك اللوحة الجميلة التي رسمها الرسام الأعمى، ولكنه نسي أن يعطيها توقيعه الخاص.

فكم من المشاهد التي نقف أمامها منبهرين، و التي هي من صنع الصدفة الدقيقة، فتدوم أقل من ردهات زمنية أقصر من القصيرة، لكنها تبقى ضمن صفحات الذاكرة الإنسانية، فيا لها من عجائب تتعصي عن التفسير، بينما الفرد يتمنى لو دامت أكثر مما دامت في حقيقتها.
و على هذا المسار تقف الجلالة في أسمى معانيها، و يقف المعنى في منعرجات أقوالها التي تبقى عاجزة عن وصف ما حدث فعلا، فلا يوجد أدق من القول أنه لا يمكن الوصف، بل الوصف يصبح معوق المعنى، و هنا تكمن الغرابة، و يتيه الإنسان.
فموسيقى العجز تخرج حتى من أدمغة الأذكياء أمام معرفتهم الواسعة، و يقضي البشريّ بعض حيرته باحثا عما يغني عن حاله التي تبدوا بائسة، لكنّ الأمر ينفلت من بين يديه في ثانية،
آه منك أيتها الثانية !!!!
فلا أظنّ أنّ علماء الرياضيات العظام، من فيثاغوراس، و مرورا بديكارت، حتى وصولا إلى جون ناش و غيرهم.... قادرين على الإمساك بهذه الثانية التي تعدّ بجمال الحقارة، لأنها تأخذ من الإنسان ما يجعله إنسانا، أو يبقيه إنسانا إن ما هو أراد أن يظل كذلك.
ففي لحظة يفقد الفرد وعيه، و يضيع بين دهاء قدراته العقلية، ليحس بلذة العلم، و سحر العقل، و متانة الصواب، كما أنه يلمس سلاسة اليقين، و قصور التفكير، و جدوى الحياة، و قيمة الحرية، و صفاء الحقيقة، و لكن كلّ هذا يحدث في ثانية من الزمن.
فكثير من العلماء وجدوا أنفسهم يغيّرون مسار البشرية في ثانية، و كثير من الفقهاء خلدتهم أقوالهم التي صرحوا بها في ثانية، و القلة القليلة من تعطي القيمة الحقيقية لتلك الثانية، أو يحسّ بوجودها أو مرورها، لكنني أؤكد أنها ثانية. و لا تدوم سوى ستين ثالثة. ليصبح العجب واقعا و حقيقة.
لدى على من يريد المجد أن يتمتع بالثواني، و ما الحياة إلا ثواني لا تنتظر، و ما على الفـرد إلاّ استغلالها حق الاستغلال..... لأنها ثانية.

****

سلة المهملات

يا أيها العالم مهلا، أنا اليوم أفهمك، فللإنسان لغته و خصائصه و مميزاته، التي تجتمع لتجعل منه مخلوقا قادرا على أن يكون إنسانا، لأنه تعلق بما حوله من الأفراد، و منه جاءت كل العبارات و الصفات التي تدل على أن هذا البشر ضعيف و قوي، صادق و كاذب، و إنها لتصنع له محيطه ذا المكان و الزمان المميزان جدا. و بين كل هذا يظهر الإنسان.
لو سألني أي بشريّ: أ أنت إنسان؟ فإنني سأجيبه: لا أعرف، فربما أكون قردا دون أن أدري! فالسؤال غير مفهوم، و الجواب هو ضائع بين الضائعات من الكلمات، و على هذا كانت الردود، و من هذه الرحم ولد الاختلاف، و عاش البشر بائسين، خاملين أو عاملين، فالشقاء لا يفرق بين بني آدم إلا في الحدة و المورد لأنها صلة الإنسان بالإنسان و بالإنسانية.
إنّ أكثر ما يجعل قلبي ينزف، هو وقوفي على تشتت الأفكار، و قد يكتشف هنا أحد الأذكياء! فيسألني لما تذكر القلب، و الأفكار منشؤها العقل؟ و أجيبه أنا: نعم هذا صحيح، و لكنّ القلب له أفكاره أيضا، فهي ليست من طينة الأفكار العقلية، لكنها أفكار قاتلة لصاحبها، إن هو لم ينتبه، و أبقاها بلا تمييز، و

هنا فاليفهم الفاهمون كما شاؤوا لأنّ القيصر يبقى قيصرا، حتى و لو تحطمت عروقه من شدة نبض قلبه الكبير.

و عليه، فتلك الأفكار تكمن ضراوتها في أنها تجعل الإنسان فاترا، مهزوزا، يأخذ بأيدي من قادته أفكاره إليهم، حتى و لو كانوا لا يستحقون عطفه، و لا يتركون في نفسيته سوى التعكير لمزاجه باستمرار، فهذا ما تعود الزمن عليه، و انتقل إلى الإنسان عبر أشباه الإنسانية، أو لنقول بصراحة: "إنها الإنسانية المزيفة، التي حاربت الإنسانية الصادقة و الصحيحة".

إنه عالم الإنسان من حيث المشاعر المتعلقة بالفرد و ما يحيط به من أفراد يريدهم و لا يريدونه، يحبهم و لا يحبونه، يقدم لهم كل شيئ، و لا يقدمون إليه أيّ شيئ، هكذا همس الزمن في مصير البشر.

فلقد اعتدنا انّ لكل قصة نهاية، و أظنها أنها بداية النهاية لقصة نسجت خيوطها وحدي، و بمفردي، و عليه ما جنيته من أشواك الورود هي ملكي وحدي، تتلذذ هي بفتح الجروح في قلبي، و أصرخ أنا كلما اقتربت مني أو ابتعدت، لأنّ حركتها، هي التي تزيد ألمي، و لكنه نعم الألم إن كان مما حصده البشر، بعد البذور التي نثرها نفس البشر.

لكن القيصر له رأي آخر، و هو أن الأشواك قد تصنع منظرا مؤلما، لكنه من المناظر الجميلة حقا، فلون الدماء، و شكل الجروح، و نغمات الصراخ من الألم، هي كلها مشاهد من أولكسترا رائعة، و نافعة، لمن لم يقدر خطواته جيدا، و لم يكن شريرا في أحيان و على فترات من الزمن، و هي بلغة الموت هذه تلازم الأحياء حتى في بكائهم، لأنها نوع من سد الفراغ، بين ما تمناه الفرد، و الذي لم يحدث، و ما لم يتمناه البشر و الذي قد حدث و أصبح واقعا ملموسا و حقيقة قائمة بذاتها، فشكرا لك أيها القيصر، و لك مني كامل الحب و الولاء، شكرا.

****

فكر حار و فضاء أحر

"…. إذ يجب أن نأخذ في اعتبارنا الملابسات الدولية التي قد تتيح لنا ظروفا مختلفة و غير متوقعة، يمكننا الاستفادة منها لتحقيق ما رسمناه من أمال…."

مالك بن نبي

لقد كان و يزال البشر يقيمون على حواف الطرق، و هذا ما جعل منهم بشرا، بحيث أنهم يبحثون عن اليقين، و يجهلون ما قد يصنع بهم بحر المستقبل، فعاش الإنسان بين الحروف كما عاش أجداده بين براكين الحروب، أين تعلم كيف يزاول مهنه بكل احترافية، و صال بين كلمات التاريخ، غير ملق لأحد الخواطر بالا، بينما كانت هي تحدق فيه بكل إعجاب.

فعلى الرغم من تنوع البشر أجناسا، ألوانا، و ألسنة، إلا أنهم تشاركوا نفس المخاوف من البدايات الأولى لبداية الوجود.

فتراهم تارة يهربون يمينا، و تــارة أخرى ينسحبون شمالا، و بين التارتين يضيع مسار الأهداف، على من أرادوا إهداء الحقيقة للملك الكئيب.

حتى أن الفرد أحيانا يشعر أنه غير موجود، أو أنه مات و أعدم قبل أن يوجد أصلا، مما يجعله يبكي على فراق الحرية و الحقيقة، فلا ينفعه بكاؤه كثيرا، و لا يقدم له الأمر اليسير، فحتى و لو كان الكذب صادقا، فإنه لا يجوز للفرد أن يكذب، و يدافع عن كذبه الذي صدّقه، على الرغم من أنه يعلم بأنه كذب و بهتان، ولد من رحم الشيطان. و في هذه الوضعية بالذات، ينشر على العقول نوع من البداهة، تلك التي خرجت من صلب الفطرة، لعلها تداوي القليل من جراح شوك الضمير، و لعلها تأخذ بيد هذا الأمير الصغير لتصنع منه رجلا، بعيدا عن أنظار السخط و المواجهة. لكن كل ما تم هو أمر خلق و انتهى، و بينما هو يتشكل، و بينما هو ي مراحله الأخيرة، يغمر الجوّ سوط القضاء، بينما تنزعج الحرية بصمت، فهي أصبحت أكلة باردة، في جوّ بارد أيضا، فيا لها من سخافة القدر و المصير.

من المحزن جدا أن يموت الأمل، و في لحظة تضيع إمكانية تحقيق الحلم، و بين العلاقات يضيع أسلوب الحياة، هذه هي تأثيرات الحرية على البشر، فعندما نجد شابا في مقتبل العمر يحصر أمانيه و أحلامه في تسعين دقيقة، هي في الأصل ليست له، فهناك حتما خطب ما، في منطقة عاطفية بعينها، و على هذا يظهر المستقبل مشوها، و يموت القدر في معارك الحوار، فلم يبقى في عالم انتهى أن يولد! سوى عبارات كادت أن تكون عصر بكل ما يحمله من قضايا، هذه هي عملات الأقدار و هذا هو عمل الضعف حين لا ينفع التحدي في مواجهة حق تقرير معاداة التقاليد و الخرافات، فإلى متى ينحصر الأمل في تسعين دقيقة؟ و إلى متى ينحصر المستقبل في صندوق الكتروني؟

علينا مراجعة الأمر، من بدايته و حتى تداعياته، فالذهنية التي تشارك في الربط، لم تعد قادرة على الحل، و هذا هو عصب المشكلة التي لا بد من أنها تحوّلت إلى أكثر من محرك سالب، يدفع باتجاه الموت قبل الموت. إذن علينا مراجعة أنفسنا و وضعياتنا، و مواجهة مشاكلنا، علينـــا فعل ذلك.

****

لا بأس بالاعتراف

جميل ما نحلم به في طفولتنـــا، و الأجمل ما نتمناه أيضا و نحن نحمل بريق البراءة في عيوننا، و لكن بين كل هذه الأمور تختفي القسوة وراء ابتسامات الأحباب، لا بعدا عنا، و إنما هو تأجيل لها فحسب، لتعود من بعد ذلك إلى الظهور، و لكن بوجه أبشع بكثير مما كنا نتوقع. كلّ هذا هو نسمات و محطات تسرق منا أجمل لحظات حياتنا القصيرة.

منذ فجر القدم حمل الإنسان مصيره على كتفه الأيمن، و حمل عصاه بيده الشمال و سار بين الهضاب، و بين الوديان، فاخترق السهول بحكمته، و صارع المفترس بقوته، وجال بين المذنبين بصبره، و كان سيّدا في عقله و رحيما في قلبه إلى أن بلغ الشاطئ.

و مع هذا كان صبورا للغاية، و كان قاسيا إلى درجة ندم عنها في أوقات الضعف، أين كان المآل جزء من التـاريخ، و كانت أحداثه التي زيّنت أشرطة الفضائيات هوامش كتاب سردت ذكرياته بدقة البروتونات في مداراتها الأصيلة.

فعصب الحدث هو الذي تكلم أخيرا، و بجمله أراح الكثير من عباد الزمن، و رهبان الأقدار، بينما نهم الرجال من أمجاد الضيق بكل عزيمة، و أبقوا على مسار الخلود حيـا، لكنه غير مرئيّ للجميع، بينما هو لا يخفى على الشرفاء من الإنسانية جمعاء.

قد يبدوا لأوّل وهلة أنّ الخارج من البطن! أنّه في إحدى ضواحي الفردوس، لكنّ الصرخة الأولى هي التي تذكره بالجحيم، و هذا ما سيلازمه على طول طريقه، و حتى النهاية التي لا أعتقد أنها ستكون نهائية أبدا، لأنّ الصمت هو سبيل الحكمة العليا، و الجرح الذي يفتحه القريب أكبر من أن يداويه أيّ طبيب. حتى و لو كان الأمهر بين أقرانه.

فالنعيم هو ذاك الإحساس بأثير يدغدغ وصلات الشعر في صباح يوم شديد الحرارة، أين نمسك بخيوط الأعذار، و نهرب من الألم، و لو لوقت أقصر من القصير، و مع هذا نحن لا نلوم أحدا عما اخترناه بأنفسنا، أو هكذا قيل لنا في يوم جمعة أثناء إصغائنا لخطبة الأسبوع.

فلا فرق بين الشقيّ و التقيّ إلا ببداية ترجمة الصوت إلى ملموس، و هذا ما أثبتته الأيام. لكن للإيمان رأيّ آخر، فالفجور و التقوى لا يلتقيان إلا في ما ظهر، بينما المؤجل يحمل نبأ العدالة التي ستسود.

فكان كلّ هذا الكلام حطبا لنار الحيرة و التناقض العميق، هكذا حدثني صوت من جوفي.

ماذا سيكون ردّ الأموات إن أنا استدعيتهم إلى منزلنا من جديد؟ أين تستقبلهم أمي بحنانها المعروف، فأجلسهم في غرفة استقبالنا، و أحتسي معهم كؤوسا من الشاي، و آكل و إياهم بعضا مما تصنع أختي الصغيرة من حلوى، بينما بعضهم يخطف بعض المعلومات من تلفزيون القاعة الذي أشعله بمجرد سماعي وصولهم. أين أسأل: مـــا الفرق بيني و بينكم الآن؟ أنـا حيّ و أنتم أموات! هذا هو الفرق؟ أم أنّ لكم آراء أخرى؟

و في جزء من الزمن، يسود سكوت رهيب، حتى أنا لم أتوقعه.... لقد أفسدت القعدة إذن، و همّ الجميع بالرحيل.... نعم!!!! لقد رحلوا كلهم، و تركوني وحدي أصارع أفكاري التي زادت من انهمارها على مجال عقلي، حيث شكّل لدي ضغط إضافي، و أنا بدوري شكلت صورا من الأجراس من حولي، و كل هذه المواقف من أجل أن أبقى في نوع من المواجهة، مواجهة داخلية خاصة، قد لا يفهمها معظم البشر، لكنّها لا تستثني أحدا لتستقرّ في زوايا ضعفه، فهي تعشق الإنسان حين تجده قابلا للانكسار.

".... ليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة، أي أنه مجرد جهد تبذله عقــولنا حين تستخدم في عالم الأشياء.... "[1].

مالك بن نبي.

[1] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق/ سورية ص: 96.

فالإنسان مهما ارتقى في سلم البشرية فهو يبقى حبيس نفسه، و حبيس الذي يدور من حوله، فيؤثر فيه قبل أن يتأثر به، و لما كانت القدرة البشرية هي القوة الكامنة و المدمرة، و القادرة على قلب الموازين، و التحكم في لعبة المصير، و بعد أن اكتشف الإنسان بنفسه هذا، عمد إلى التخلص مما تولد لديه من ضعف، فأخلى سبيل السجنـــاء، و أدخل الحرية غرفة الإعدام، من أجل البقاء سيّدا على عرش تسوقه الطاقة بكل عنفوان.

و من هذا يتبين لنا العلاقة بين الخفايا و الأعراف، و ما بين العلوم و لما هو موجود، كذات ألفت التقدم ناحية الأمام بدون أن تشعر غيرها بوجود احتكاك تحدثه، و على الرغم من تناثر شظايا الأرض من حول المسار، فما تزال الأقدار تمحي كل ما من شأنه تأليب التوازن ناحية الشرق، أو الشرق الأوسط، باعتبارها لعبة خطرة، يقودها العالم الثاني، و جزء من عالم الجنوب في مواجهة القوة العظمى التي نصّبت نفسها وصية لقيطة على المستضعفين من سكان الكون.

كما أنّ الإحساس هو الذي يصنع جزء من حضارة الذات، حين يترك بضع فراغات للعقل كي يجول بما تصوّره الضمير، و مع كل هذه الأحداث يبقى التفكير أقدس الأمور في مواجهة الطبيعة و المجهول بكل أنواعه، لكي لا تحيد القاطرة من على سكة الوجوب، فإنّ القانون يلعب الدور الأساسي في دخول الرضا حيّز الاقتناع لدى الجماهير، بحيث أنّه لا يدري من تعوّل عليه من فلتات الممجدين في قصور النفاق.

فلو نظرنا من حولنا إلى هذا النظام المعيشي المعقد، فإننا سنجد الكثير من الأمور التي تستحق الوقوف عندها، و من بينها أنّ سفينة الأخلاق تغرق، إن لم تكن غرقت بالكامل و نحن نزيد من غرقها كلما أرادت أن توزع أقوالها و مبادئها علينا، و كأننا متمردون على شرعية البلاء، و حسن القضاء في كل الأرجاء.

كما أن تلك الهدايا البسيطة التي كان يجلبها لنا عمدة انتمائنا إلى طينة واحدة أصبحت تنتزع منا انتزاعا هذه الأيام، فبدل من أن نأخذها نحن أصبحت تؤخذ من طرف مراهقات الأقوياء، و ذلك على الرغم من تحكمهم في كل الأشياء ما عدى الأكسجين الذي يدخل صدورنا بدون إذن منا، هكذا تورطنا في جهلنا الذي أخفى عنا بدوره الكثير من حقوقنا، و تصدق علينا برزم من الواجبات العرجاء، لا من حيث الزجر و لا من حيث الأداء.

و من النقاط التي تحتاج إلى قليل من الاحترام، هي تلك التي تختفي وراءها علامات الإقصاء، و منها ولدت هوامش التهميش، لتحلّ محل النخوة التي بقيت جارية في قصر التاريخ الزاهي، لكنه كاذب في مجمل ما تتطلع به الأمم.

فمن لا يحدث نفسه فهو مسكين، و غير مدرك لما نفسه هذه جعلته مسكين الفؤاد، بل هو أكثر من خامل خامد تدوسه عجلات العربات الانجليزية في فجر تسليم مفاتيح الولاء، و من يرضى بحال مشابهة فلا يجوز أن تلطخ صفحات ورق المراحيض باسمه، لأنّ البشرية لا تستحق ذلك.

فقد نولد متساوون في أمور لا تحصى في أيّ من مقامات الدنيا، بينما لا أعتقد أننا متساوون في كلمات صفحات الجبين، فهي الخبيرة و الجديرة بالتفرقة بين القادة و الأتباع، و ما بين ستار الكعبة و طلاء البيت الأبيض.

"..... ثم أرجع البصر يا سمو الأمير تر في الحضيض رجلا تستدعي حاله الشفقة لما ناله من العذاب عدوانا من الزمان و ظلما من أهله[1]....."
نيقولا ميكيافيلي

فتصريح الإنسان بين ما تولّده المواقف في كل أنحاء حياته، هو عجينة أصداء، و هي ذات ميزة تختلف من جيل لآخر، و خارجة عن التحكم حتى من الذي يصرّح بها على سبيل إخلاء سبيلها إلى العلن. أو كذلك تبدوا نهاية السنين الطوال، و هي تدنوا من كل فرد دون تمييز لحاله أو ما قام به.
فالمبدعون الذين يدفعون بالإنسانية باتجاه الرفاهية، يعيشون أشباحا و يموتون كذلك، ليدفنوا في المجهول، لكن أسماؤهم التي تزيّن براءة البشرية هي العزاء الوحيد لأهدافهم، نعم !! و كأنه قدر.
النهاية يتوقها الكثيرون، لكنّ الذين يسعون لإدخالها مجل السيطرة قليلون أو نادرون، كل على حسب استطاعته، و قدرة تحمّله، و مع كل ما يحيط بهم من أخطار فهم موجودون، و يبقى هنالك في كل عصر، أناس يراقبون وهم في حالة تأهب مستمر، لمعالجة الأمور، و الحفاظ على كرامة البشر، على الرغم من أنّ جزء كبير من الناس لا يستحقون أن يكونوا بشرا.
فالقادر على الفهم هو القادر على التحكم بكل ما يريد، و هو الذي يجعل من نفسه سيّدا رغم أنف الجميع، كما أنه قادر على تخطي الحدود، و التقدم بكل جرأة في الاتجاه الذي يختار، و بالطريقة التي يراها مناسبة، هكذا حكم الزمن في محكمة الأجناس.

****

من الأكيد التأكد

What have you done ! But here, help me.
Herman Melville

لعل من الواضح وجود هوة بين الظاهر و المخفي من الأمور التي تعترض حكمة البشر، و من الظاهر النظر في كل ما يحيط بنا من أجل كشف ما هو باطن، و بين الاختلافات هذه يحتار الإنسان، و تتعدد التوجهات.
إنّ لقيسرية العمليات أثناء فرز الاختيارات لأهمية قصوى في تدني أسباب النجاح، فالعالم هو الذي يتغيّر و يغيّر الإنسان، هذا ما هو متعارف عليه لدى العارفين بمجريات الأمور كما هو واضح.
فالقادم أعظم من أن تحتويه كلمات هذه الأسطر، حتى أنّ القيمة الحقيقية لأيّ عمل لا تكون في الجهد المبذول من أجل تحقيقه، و إنما هي من أجل بلوغ المكانة المعروفة و الغير مضمونة للكائن المقدس.

[1] نيقولا ميكيافيلي، الأمير، تر محمد لطفي جمعة، دار المواهب/ الجزائر ص37.

و على هذا فالصلاة التي لا تلزم صاحبها بالقوانين المختلفة لم تجد لأي كان طريقا لها بين مكاسب النجاح، و هي للذي لا يفهم معنى وجوده كرماد لا يمس عيون الناس كلهم، و إنما يمسّ فقط عيون الخائفين من بني آدم.
و ما يوجد بين الطرق المختلفة هي عراقيل الزمن لا غير، و السلاح الوحيد الذي بامكانه ازالة هذه العقبات هي اللجوء إلى التسلح بالارادة، فجبروتها هو الوحيد الذي يجعل المعوجّ يستقيم، هكذا لقنتنا الأيام من دروسها التي لا ينساها إلاّ متآمر على نفسه.
فالأمل هو الذي يصنع الفرق، و هو الذي يوقظ الضمير، و هو الذي يزيد من الاصرار على النجاح، إنه هو الذي جعل الإنسان يخطوا خطواته العملاقة، و ينتظم في أفكاره ليخرج بوجه جديد، و علم جديد، من أجل صناعة مستقبل جديد أيضا.

هذا ما أنـا متأكد منه، و الذي أتأكد منه كلما ضاق بي الزمن، و جار عليّ الزمان، بينما الوقت يأخذ مني أحلى الابستامات، فتعلمت أن أتشبث بحياتي، قبل أن أسعى لمماتي.
فيا أيها العالم مهلا، أنا أرجوا منك الاعتراف، بأنك أخطأت في حساب التقدير، و الإنكفاء على التبديل، بدل التجديد، فللأوّل وجهان، أحدهما جميل و سام، يجعل الأمم تهنؤ بوجودها، و الوجه الثاني قبيح، لكنه مجمل، فيجعل البشر يكره وجوده أصلا، و مع هذا فالتبديل على سبيل التجديد هو المطلوب من اجل الريادة.

****

فتنة هربيليسُ العربية

(الجريمة بلا ضحايا تبقى جريمة)

من يفتح كتاب الدهر يتعلّم الكثير، و من يقرأ كلمات الفلسفة يزداد حكمة و صوابا، بينما من يختار طريق العلوم على ما هي عليه تسلم حياته، في الوقت الذي يكون فيه من يتمسك بتقوى الديانات على حقيقتها هو الذي سينجو من براكين الغضب، و مفاتن الضلالة؛ هكذا شرح الزمان درسه بكل تفان للعاقلين الصادقين من بني البشر.
إنّ للكلمات سحرها حين تكون على قطعة لسان متزن، و إنّ هذا السحر يزداد جمالا و خلودا عندما تكون هذه الكلمات مرسومة على قطع الورق، قانون بسيط، يجهله معظم المتكلمين.

" .... إنكِ تعرفينه، لماذا في الحقيقة، يجب عليّ أن أخبرك بالقصة يا من تعرفين كل شيء؟ ...."[1]

هوميروس

يدّعي النصف البشري أنّه يعرف كلّ المعارف، و يجادل بالجهل كلّ المباحث، و في الأخير يفسد في الأرض بحجة الإصلاح، لدى كانت هناك نتائج عنيفة للكثير من الحوارات، تلك التي أدّت إلى التعويل على التهم الجاهزة مثل: الجنون، الجور، الكفر أو الفجور، و لكم هلك أبرياء من أجل الدفاع عن أمانة التفكير، ذنبهم فقط أنهم وقفوا في وجه أشباه المحاورين.
ما أنتن بائعة الهوى و هي تحاضر في العفة و الكرامة، هكذا صاح أحد العرب؛ حقا إنها نتنة، فعندما يتعفن المحيط الفكري بلصوص التفكير، يصبح المباح ممنوعا، و ينقلب المحظور إلى ضرورة، و الضحية هي حقوق الإنسان التي تعطي له صفة الإنسانية.
في ليل بهيم سار أذكى الرجال إلى غرفته، فوجد خليلته تنتظره لتهديه شرفها، و من بعد إذنها بدأ عبثه الذي أثمر عنوانا للأخلاق، و لأنّ مقادير القيم هي معايير شأن الإنسان، كان عطر تنظيم المثاليات بالماديات مصدر خروج البراعم من صلب الأشواك.
في زمن سُرقت فيه البراءة من الأبرياء، و فيه هتكت أعراض الشرفاء، و فيه نقم الأبرار على الأشرار، و فيه نام الضمير و قتل الأعراب، و فيه أصبح البشريّ يشرب الدم بدل الماء، و فيه كانت الفتاة سلعة و نقمة تستحق الوأد في طيّ النسيان، و فيه جال الخاطر بالذي حوّلته التقاليد المثقوبة إلى خرقة جديدة، في هذا الزمن فقط دون غيره احتاج العرب الجدد إلى نور كبرياء العربيّ، و احتاج الغرب إلى جاهلية الغربيّ، و احتاج الشرق إلى نعومة الشرقيّ، و أصبحت الإنسانية تطلب معانيها من عقول بخيلة جدّا، في هذا الزمن فقط مات الموت قبل الأوان، و ظهرت المأساة في ثوب العروس، من أجل هدف واحد و وحيد، هو: الإبقاء على حزن البشريّ بغطاء السعي وراء سعادة الإنسان.

[1] إلياذة هوميروس

" .... و كل ما نتمناه هو أن تقوم في بلادنا رابطة من المثقفين، لكشف هجمات الاستعمار على الجبهة الفكرية، حتى لا تبقى الأفكار معرضة لتلك الهجمات دون نجدة و لا مدد.... "[1]

مالك بن نبي

للأسف !!

الأفكار اليوم بلا حماية، في البلدان الضعيفة، حتى الأفكار الأساسية هي معرضة للاندثار أو الانقراض، و السبب في هذا كلّه هو عامل جدّ فعّال، و قد تمثّل في: "التمويه".

لقد تسرّبت إلى المفكّرين النائمين أفكارا مسمومة، و لقد دخلت عقول أشباه المثقفين (هواة السلطة، المال و المرتبة الرفيعة بلا عمل جاد) الكثير من الفيروسات الغازية لتراثهم و بأسباب و طرق مختلفة، حتى أضحى الحق باطلا و الباطل حقا، قانون فرضته ظروف ضعف الوعي، و مذاق الاستسلام الساحر عندما تستسهل شعوبا بأكملها هوانها، فتولي أمورها إلى أعدائها و بغياب كامل لإرادتها أو قواها الفكرية.

لا بديل عن العمل الجاد، عن الفكر الجاد، عن الحياة الجادة، لا بديل عن الجودة، و لو كانت قليلة! إلاّ أنّ نفعها يدوم طويلا، و سيبقى محصنا إلى أن يقرر هو الانسحاب، ليفسح المجال للأجيال التي تلحق مساره الرائع بكلّ فخر. على الإنسان أن يتحدّث في ما يعرف، و أن يقول ما يكتشف بصدق، لأنّ هذا هو صمام أمان وجوده بلا مجاملة، و كلّ تعدٍّ للحدود، هو خرق للجودة و الجديّة معًا.

[1] مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة، تر: عمر مسقاوي، دار الفكر دمشق-سورية، ص134.

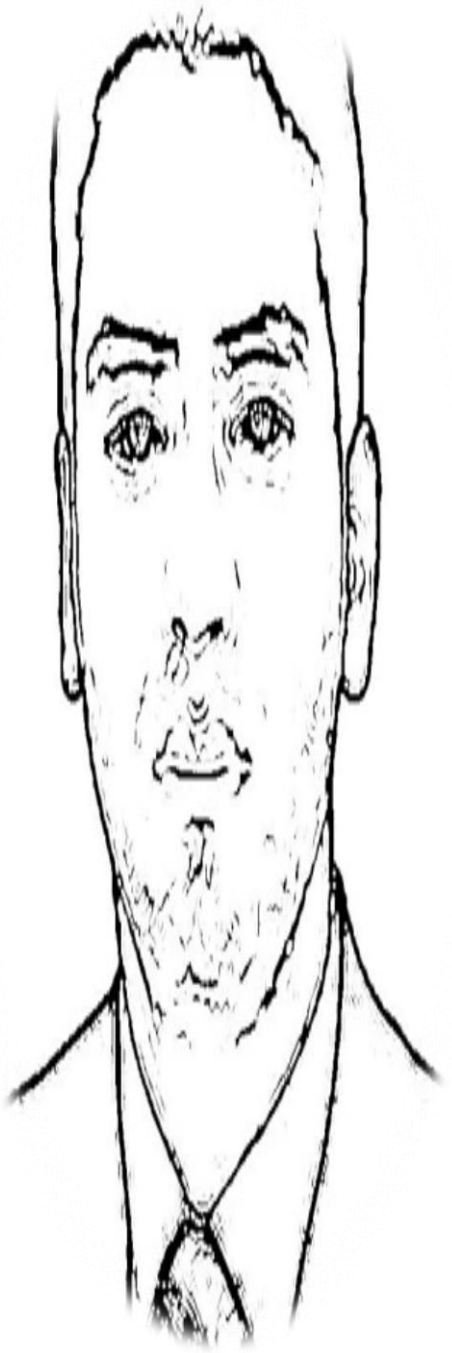

Quand quelqu'un pense! C'est un grand honneur pour lui, parce que la philosophie est une bonne nourriture pour l'esprit humain. L'idée philosophique est importante pour l'individu, car elle ouvre toutes les nouvelles portes pour lui. Je sais que le discours sur la philosophie est difficile dans les pays arabes, mais je sais aussi que tout être humain peut faire son chemin par sa philosophie de vie particulière.

Tout le monde est né avec un esprit, dans certains cas! L'être humain peut perdre sa capacité de pensée, mais ce n'est pas une raison de garder le silence pour la domination dans la vie morale, parce que dans tous les temps! Nous avons le pouvoir de penser, de critiquer, et faire une opinion librement.

Il ya des lignes entre la philosophie, les études et la vie quotidienne, si vous voulez les découvrir, vous pouvez vous poser cette question: Qui suis-je?

M. Mezouar Mohammed Saïd[1]

[1] **twitter.com/msmezouar**

"العظماء يعيشون منبوذين، يموتون منسيين، تفنى أجسادهم، و تبقى أفكارهم"

السيّد: مـــزوار محمد سعيد

****

#الجزائر

عناوين محتوى الكتاب:

- كلمة..... 04
- اسكوبيتا الفلسفة.....05
- الجمال.....07
- مـــا فائدة الإنسان إنْ لم يغيّر العالم!؟.....09
- قَالَكْ الفَلْسَفَة العَرَبِيَة يَا خُويَا!!!.....12
- علينا اقتحام المواضيع الإنسانية.....15
- "عَلـَى قَدْر أَهْل العَزْم تـَأتـي العـَزَائـمُ".....16
- أونْشولْد القوّة.....20
- بروفينثيا فلسفية.....21
- توركويزا.....23
- دِيرْ الخِير صاحبـي.....25
- عربية الفكر الجواني.....26
- فـاطستينـا.....28
- قراءة لتطور التفكير البشري بنظارة أغست كونت(30)
- فقرة فلسفية بين العلم و الأسطورة.....31
- الحـرية.....33
- مشاعر ربـّان القارب الحجري.....35
- من سيلاحظ؟.....38
- نحن هم نحن.....40
- ورود المجتمع الجميلة و القاتلة.....42
- المُقَاتِـل.....43
- بيلاريس التفلسف.....46
- فـردوس العرب و المسلمين المفقود.....48
- هدهدية القتال.....51

- تَظُنّ أنّك تَعْرِفُنِي.....53
- الحافلة البرتقالية.....56
- خبرة السنين و ثقافة الأيام.....56
- محرك آخر الأحرار.....58
- عرب الألفية الجديدة.....59
- مِعْوَلُ الإِنْسَانِيَةِ.....61
- سلامة فكر السلام.....62
- الناس يلمسون ما يسمعونه.....64
- إذا تكلم السيّد: ابن رشد سكت العالم و أصغى الحجر(65)
- الحق في الحقيقة الحقيقية.....65
- من اليُسر أن تكون سعيدا.....70
- هو ثابت عندي.....71
- غزل الموت.....72
- اللـــغة الشبه-ميتة.....73
- لا تترك يدك خلف ظهرك.....74
- من فضلكم! لماذا؟.....76
- إرجيبن هايت.....79
- أصحيح ما يُقال عنّـــا؟.....80
- أعيش من لا شيء 82
- الاستقراء منهجا.....82
- الماء في رأس الفأس.....84
- الهِدَايَة التِي يَرْجُوهَا البَـــشَرْ.....85
- أموت من أجل أيّ شيء.....88
- بوست فاخ فلسفي.....89
- تـــاج ألكسندر الجديد.....90
- تحية لساعي البريد.....92
- جانب من رحيق أوديسا اليونان.....93
- جناح كُسِر.....94
- حكمة المستور.....95
- دعونا نتفهم.....96

- شنوربارت العظمة.....96
- أنـــا رأيي هو: "لاَ يَهُمُّنِي...."....98
- لن انهمك في الموت.... لقد قررت.....99
- لَنْ تَحْرِقُوا أَرْوَاحَنَا.....100
- نسينـــا أنّنا نسور.....102
- يوم مع فكتور ديلافيرا.....103
- يا أيها العالم العربي: أنت ظالم.....104
- أصنام الألفية الثالثة.....106
- صلاة أكتافيا العربية.....108
- أفكارك تسبق اسمك.....116
- الإنسان ليس وحده.....118
- السياسة في ثياب عاهرة.....120
- الفلسفة الجزائرية.....121
- اللعبة الجميلة.....123
- بَارْتِيَامُو.....124
- ثـــانية.....126
- سلة المهملات.....127
- فكر حار و فضاء أحر.....128
- لا بأس بالاعتراف.....129
- من الأكيد التأكد.....132
- فتنة هربيليسُ العربية.....134

© All rights reserved to: MediaFire (Houston, Texas)

MediaFire.com
19241 David Memorial Drive #170
Shenandoah, TX 77385

القيصر